حجارة بوبيللو

رواية

إدوار الخرّاط

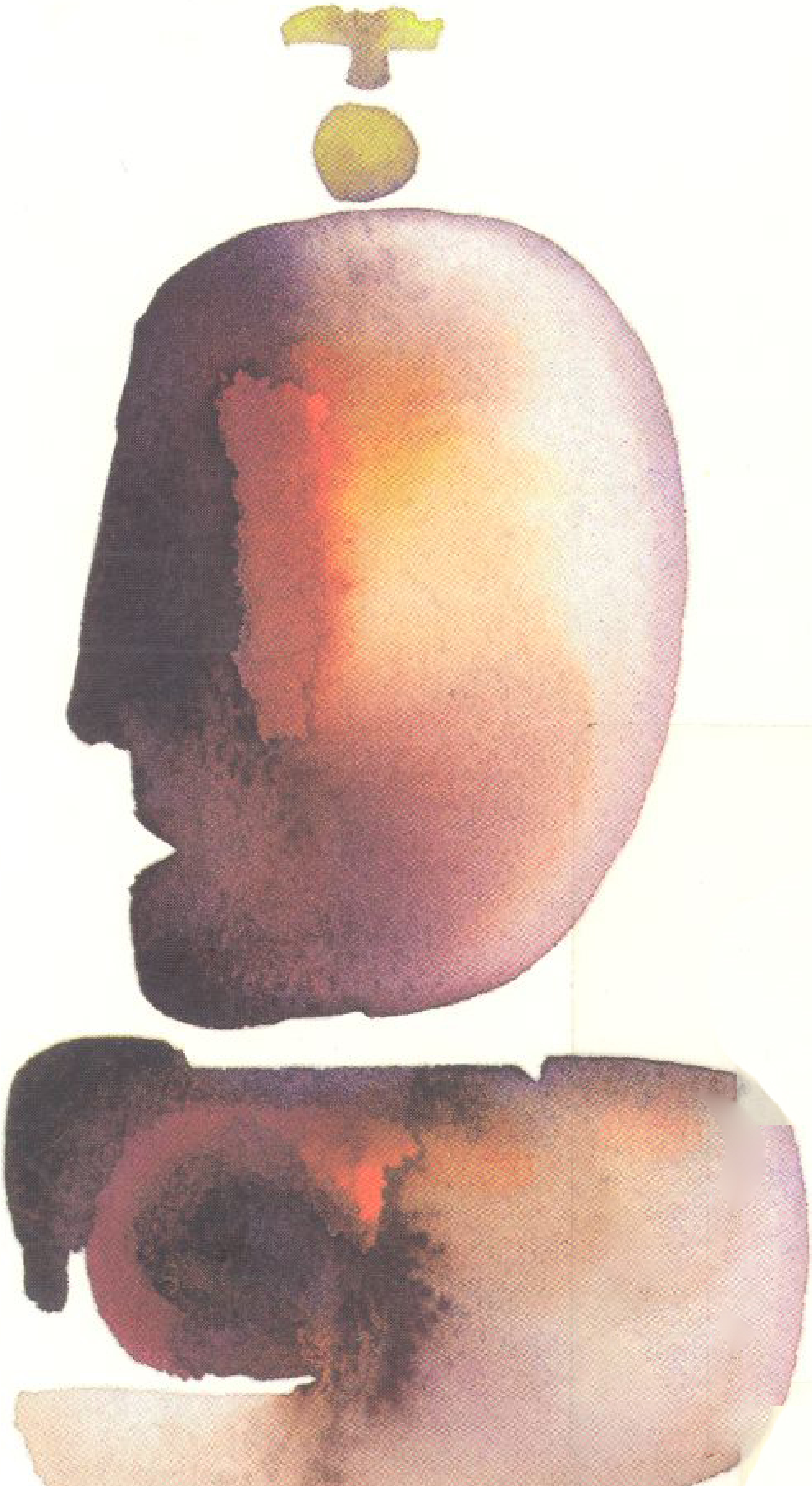

حجارة بوبيللو

ادوار الخراط

حجارة بوبيللو

رواية

دار الآداب - بيروت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩٢

«بـوبيللو» كوم أثـريّ تعـرف بـه تُـرَب الأقبـاط في قـريـة «الـطرانـة» Tarenthis التي تقع إلى شمال «الخـطاطية»، مـديريـة البِحِيرة، مـركز كفر داود.

وهي في موقع معمور منذ عصور ما قبل التاريـخ، كانت في العصـور القديمة مركزاً لتجارة القوافل بين دلتا النيل والصحراء الليبية.

اشتهرت بملح النطرون الثمـين، وفي العصور الفـرعونيـة كانت مقـراً لعبادة إيزيس.

اكتشف فيها نحو ٦٠٠ مقبرة أثرية وعُثر فيهـا على ٥٠ هيكـلاً عظميّاً مصابة كلها بضربات البُلَط والسهام.

في العصور اليونانية ـ الرومانية أصبحت حامية عسكرية ومقراً لعبـادة الإله أبوللو (بوبيللو).

لا يدري المُحِبّ فيمن حبّه
لا يتعينَ له محبوب

الإمام الشعراني

«الأنوار القدسية»

١ ـ المعدّية

يالْلي ظلمت الوداد
ورضيت بنار البعاد
أفديك بروحي

صوت الشيخ العفيّ شجيٌ وبليغ وعميق النبرة.

نحن في المعدية الحديديّة مسطّحة الجوف التي تنـزلق على الـريّاح البحيري بانسيابٍ هادىء؛ رائحة الماء في هـذا الصبح العـالي نفاذة، نباتيّة.

في طريقنا من الطّرانة إلى الغيط الغربي، وراء «بوبيللو» بين حافتي الصحراء والخضرة الغنية.

أبوللو المغنّواتي. . المخلّص، لاعب الليرا القديم، أيستطيـع ـ وقد أصبح الآن بوبيللو، فلاحياً بحيريّاً، عَبَرت به ميـاه آلاف السنين في تـرعها العكِـرة حاملةً طينـاً وطميـاً وطفـاوة الـطغيـان ـ أن يـدرأ عني الطواعين والعطايا والخَطَايا السرية؟

نور الصبح، خيِّراً ومدمِّراً معاً، هل يدحـر ما بقي من ليلةٍ لا تـبرح، ظلالَ توجُّعِ الجسم الفتيّ المسحوق في شهواته غير المنقضية؟

معنا، في المعدية، جدي ســاويرس، خـالتي وديدة وخـالتي سارة، عمي فـانوس، الـذي كان يموت في خالتي ســارة حُباً، ولكنـه تزوج خالتي وديدة، والولد برسوم الذي من سِنّي.

كان معنا أيضاً أبونا أندراوس، عمي جورجي عرّيف الكنيسة الأعمى، وخَضْرة الفلّاحة، وحميدة البَرْصا.

ولكن كان معنا، أولاً وأخيراً، لِندة ورحمة، حوريّتين مونِقتين، بؤرة الجماعة وبهجتها، تنظران بإعجاب يوشك أن يكون عشقاً صريحاً لأبيهما وهو يغني، صوته الحنون القويّ يتهدّج مع رقرقة الماء في الريّاح.

أُحبهما معاً، لندة ورحمة، وتسحرني مفاتن خَضْرة، وأُنثويّتها الفاضحة.

في داخل هذا المثلث النسويّ، كنت.

عمّي سلوانس كان صرّافاً، دورته في المنوفية، وينام في استراحات المالية بعد أن يجمع الضرائب من الفلاحين وأصحاب الأرض يلفّ عليهم ممتطياً حماره المُطهَّم الفخم، وله مهابة، لأن نقاءه الخُلقيّ لا تشوبه نقطة سواد واحدة، وحذقه في الكتابة والحسابة لا يبارى، وله مكتب في مصلحة الرسوم المقررة في شبين الكوم. الآن كان متبسّطاً وحزيناً، وفي غنائه شجن وفتوة. كان يُلمّ بالطرانة بين الحين والحين، لم أكد أراه إلا لماماً، زوجته ماتت من سبع سنين، فترك البلد كأنه يعاقب نفسه على خطيئة لم يقترفها؛ أم أنه لم يقترفها؟ وترك البنتين في رعاية أختيه خالتي روزه وخالتي سالومة، وخَضْرة التي كانت تخدمهن جميعاً تعيش معهن ومع الجواميس والبقر وفحل الثور. تحملهم، جميعاً، على كفوف الراحة، في البيت القديم العالي.

قويُّ الوجه، قمحيٌّ داكن، عيناه نفّاذتان وغائرتان تحت

محجريهما، وخضراوان. يدان صغيرتان، واضح أنهما مدرّبتان، ورقيقتان بشكلٍ غريب وكأن لهما قدرة على تهدئة صخب المياه في الريّاح. جلابيّته الجوخ الغالية تضرب إلى لونٍ طحلبيّ قاتم، ورصين، وتنسدل على هيكل جسمه المتين العَضِل، وهو جالس بارتياح على دكّة المركب الجانبية. يغنّي، ممتلىء القلب.

كان له ابن أخت يدرس في المعهد الزراعي في شبين الكوم - هل كان عمي سلوانس ينام عندهم؟ - ويأتي للطرانة في المساحة الصيفية، كما كنا نأتي من اسكندرية، لكنه كان أكبر مني بعدة سنين، والغريب أنه أشقراني أبيضاني جسيم وطُوال، له حضور وجاذبية، جلابيّته دائماً ناصعة زيّ الفُلّ وجزمته الأستيك دائماً لامعة السواد، كنت أغِير منه، كان المفهوم والمقرر ضمناً أنه سيتزوج رحمة بعد أن يأخذ «الدّبْلون».

يصدر عن المعديّة صوتُ صريرِ السلسلة التي تصل بين ضفتيْ الريّاح، يجذبها المعدّاوي، أواصرها مصلوبة تصلصل بصوت خلْفيّ وراء الدندنة الغائبة عنا، وعن نفسها:

جَنَتْ عليك الليالي
وطال عليّ الأنين
والماضي يخطر ببالي
يخلّي قلبي حزين

أما من الناحية الأخرى، فالسلسلة الحديدية الصدئة مرتخية، حلقاتها المحمرّة غارقة من المتصف، في المياه المقلّبة بطمي الفيضان المُدوّم، تتحرك مع حركة المعدية البطيئة الناعمة في عبورها الذي

يجلب إلينا نسمة مائية حلوة تتفتح لها صدورنا، مُـرحِّبة في حَـرّ أوائل سبتمبر.

مررنا ـ ونمر بلا انقضاء ـ بالكوم العالي صلب الجسم، عـلى حرف الريّاح. تراب القرون الناعم وأنقاض المشهد الإلهي والأرض الوعـرة الخشنـة تلمع بـالنشـعِ الملحيّ وفيهـا شعث من الحلفاء الشـائكـة التي تجرح العين، تحرس تُرَب الأقبـاط، أنقاض الصَبَـوات القديمـة لم يبق منها إلا شقافة الزجاج الأخضر السميك، غير جارح، وشظايا الخزف اللامَـع عليـه النقـوش من الأوميجـا إلى الأبسيلون وعـواء الـذئـاب المهزومة بسهامِ جالبِ الطواعين وقاهرها، حامي الفـانين وشـافيهم. مَنْ لي بأن أعرف نواياكَ القدسيّة أو القـاتلة؟ عمي سلوانس الوريث الذي لم يُعقِب ولداً، أين الخورس الذي لـه أن يصاحبـك في عبورك غير المنتهي؟

أحدّق إلى رحمة. لا أستطيع أن أُحوِّل عنها عينيّ، حتى مـع رقابـة أبيها الفاهمة، ونظرة جدي ساويرس الصارمة، صقراً جارحاً وحانياً لم أنسَ ـ ولا أنسى ـ صفعته الأولى والأخيرة على وجهي منذ أسابيع، إذ ضبطني متلبساً، أجـري وراء لندة في الـزقاق الـسدّ الضيق بين بيتنـا وبيت عمي أرسانيوس، في سَوْرة الاستغماية المرتجلَة في عِـزّ الظهـر، فإذا بي أصطدم بها عن نصف قصد، وأُحس ـ لحظة واحدة ـ بـطنها المتماسك النابض تحت انتصابي وهي تنهـج، ثم تفلت من بين ذراعيّ مضرّجة الوجه عارفة العينين مبتسمة كأنها بالرغم منها.

لكن رحمة هي التي أُحدِّق إليها الآن مسحوراً
كانت أصغر مني جسماً ـ حتى ـ وأنحف عوداً

رقيقة، وجهها طويل خفيف السمرة مسحوب، ليس فيه دوران اللحم بل نعومة منسابة. هل هي غريقةٌ رحمة في أمواج حبي البائد الباقي، أمواج الليالي، هذا الوجه المنحوت الشمعيّ، شاخصَ النظرة، يراودني في مياه الأحلام الملحيّة، ألم يكن وجه غريقةٍ أخرى في بحيرة زيوريخ؟ أم هي غريقة قادمة لا أعرف، بعد، غرَقَها؟ قلت: الغرق شهادة. أم هو وجه شاعر أحببته وضرب نفسه بالرصاص، من الحب، ومات سُدى، مَنْ يعود يذكره؟ وكانت غائرة العينين قليلاً، ونحيلة وصموتاً. على عكس أختها الصغرى البضّة المدوّرة الحنايا؛ كانت أميل إلى لبس الثياب الطويلة الصاحية داكنة الألوان، على عكس أختها التي تحب لبس المشجّر، الملوّن، حواشي فساتينها مكشكشة، طويلة صحيح فلا مفر من ذلك، ولكن واسعة قليلاً من تحت، مما يعطيها انفساحاً وانكشافاً إلى حد ما.

تكشفت له ظلمة الغيطان، حيث تكمن المداهد، رسل الملك سليمان، والأشباح. وبدت له السواقي ملفّعة بالظلال، جاثمة، مَرَدة تستريح. ردّد الأفق هدير ساقية تدور، والمياه ترتفع، وتتساقط، ومصر تتنفس، وتعمل في الليل كما تعمل في النهار، مثل شاعرٍ يصوغ أبداً قصيدةً خالدة من أحزان قلبه الهادئة.

سألتُ ستي أماليا عن حكاية رحمة وابن خالتها أسعد، فقالت لي:

ـ وانت بتسأل ليه ياواد؟ قال يا داخل بين البصلة وقشرتها. . . آه يا ناري من ولادِ آخرْ زمن، دي البتّ مولودة قبل منّك باربع سنين يابن سوسن. ياميّه من تحت تبنْ، ساهي وتحته دواهي صحيح. ياخْواتي!

أتجنب النظر إلى خَضْرة، متربعة ـ جنب حميدة البَرْصَا ـ على أرض المعدية الحديدية الرطبة ـ لا يصح طبعاً أن تجلس على الدكة الخشبية مثل أسيادها، هل هذا يصح؟ ـ ذراعها على القُفّة الكبيرة المغطاة بخرقة نظيفة مغسولة جيداً، باهتة التلوين ـ ربما كانت فستاناً من فساتين لندة القديمة؟ ـ وتحت جلابيتها السوداء نصف الشفافة تبدو جلابية أخرى ملونة بأزهار حمراء صغيرة وكثيرة ـ هل هي أيضاً من فساتين لندة؟ ـ وطَرْحتها الشفافة السوداء تنسدل على ظهرها حتى أرض المعدية. تُخفي بيدها الممسكة بطرف الطرحة نصفَ وجهها الأسمر الصابح. كان فخذاها المدوّرتان الملفوفتان قد ارتفعتا إلى أعلى قليلاً، في تربُّعها على الأرض المنداة قليلاً، تحتنا.

أدخلتْ ساقيها وطوتهما تحتها فبانت لوركيها استدارةٌ وبضاضة خاصة، حتى من تحت الجلاليب التي التفّتْ عليها بإحكام ووثاقة في هذه الجلسة التي ليس فيها أدنى نيّة واعية للإثارة، ولكنها ـ لذلك ـ مثيرة جداً. لا أريد أن أنظر إليها، لكني لا أستطيع أن أنساها.

هأنَذَا أعبر من ضفّةٍ إلى أخرى، دائماً، بلا بدء ولا انتهاء، وعلى فمي قرص المليم الأحمر البرونزيّ الكبير، يغلقه، أجرة المعدّاوي.

المعدّاوي خشن الوجه، أخرس، لا غَمْضَ لعينيه، له مأوى خفيّ على الضفة الأخرى.

أسعى دائباً إلى قاتلِ التنّين، أحمل عنه كَفّارة خطيئة، في منفى مقيم، في أرض الثلج الشمالية، أقصى أقاصي المعمورة ومعه وعلى رغم كل نسوان الشَبَق والثَمَل والشهوة أريد النظامَ والعقل والعدل والموسيقى.

لن أصل أبداً، لن أدفع الأجرة؛ دائماً بين شطّين.
أعرف هذا، ألا أعرفه؟
في داخل هذا المثلث النسوي كانت الأغنية تهزّ قلبي الطازج الغرير.

أما في الطرّانة فقد صنعتُ، على يدي، من صبغةِ هدوم وجدتها، مسحوقاً ناعماً، في بيت ستي أماليا، حبراً أحمر فاتح اللون.

وعلى ورقٍ نصف شفّاف رماديٍّ قليلاً - كان الورق عزيزاً عليَّ وصعب المنال في ثاني سنوات الحرب، ومازلت حتى الآن أكنز الورق الأبيض والمسطّر كما يكنز الجوعان أرغفة خبزٍ لن يأكلها أبداً - وبالريشة الخشبية السوداء أمّ سنٍّ نحاسيّ رفيع، وبلُغةِ الصبا وبسذاجةٍ لا اعتذار عنها، ولا بُرء منها، كنت أكتب على الطبلية، متربعاً على الشلتة.

قبل أن نخرج من الطرّانة مباشرة، ونحن نستعد لركوب الحمير حتى نقطة المعدية في الريّاح، وصل البوسطجي - عريان أفندي - إلى الساحة الصغيرة أمام بيت جدي ساويرس، تحت الجميزة الضخمة.

منديله المحلاّوي، مربّع التشكيلات الزُرقِ الباهتة، غيرُ نظيفٍ تماماً ومندّى الحوافِ من العرق تحت طربوشه.

نشِطٌ وعفيٌّ مع أنه ناحلٌ ضاوٍ في رُفْع الإبرة، صفّق بيديه قبل أن ينزل تماماً من على حماره الميري الأبيض العالي، وهو يهتف:

- عمي ساويرس. بوسطا. . اله. ! يا صباح الخير على أصحاب الكرم والخير. . يابتّ ياخضرة إديني شوية اللوميّة أمّال يابتّ. أبلّ ريقي يابتّ. . !

وهو ينظر إليها نظرة شَبَقٍ صريح، ويسلمها البوسطة.

لم يكن في البريد إلا الأهرام ـ اشتراك ـ يجيئنا كل يوم بالمستعجلة التي تصل إلى محطة كفر داود ومكتب بريدها في تمام الثامنة صباحاً، ومجلة «الاثنين والدنيا»، تصل منها نسخة يرسلها أبي من اسكندرية، كلّ حِينْ ومِينْ، حسب التساهيل.

ومنها استأثر بي، من وسط أشياء ساحرة كثيرة، مجهولة، أنّ ملكة الاستعراض المسرحي بديعة مصابني تقدم من يوم السبت ٣٠ نوفمبر ١٩٤٠ في كازينو أوبرا بميدان ابراهيم تليفون ٤٤٨١٤ الاستعراض الموسيقي الثاني: «ساعتين حظّ» ٧ مناظر حافلة بالمفاجآت المبتكرة تأليف الأستاذ الروائي المعروف أبو السعود الأبياري وتلحين الموسيقار المجدد الأستاذ فريد غصن وميزانسين الرقص للبروفسور إيزاك ديكسون ويشترك في التمثيل الراقصة العالمية تحية كاريوكا والمنولوجست المحبوب اسماعيل ياسين مَطْعم من الدرجة الأولى بار أمريكاني موزيكهول.

في تراب الطرانة وجفائها وخضرتها الخام كان ذلك مغوياً.
لم أكن أعرف بالضبط الموزيكهول.

لماذا تصورته إذن ساحة فسيحة خاوية تقريباً، مبلّطة ببلاطٍ صقيل، وفيه بيانو عريض جداً على منصة عالية جداً، وراقصات مثل اللاتي فتنتْني صورُهن في المجلات ـ لم أكن قد رأيتهن في السينما بعد ـ مثل التي أثارتني، وتجسدت لي، وساورتني بها لذّات الصبا الأولى، وهاجني بها القذف البريء شبْه الطفوليّ، في العدد ٢١١ من مجلة

«الاثنين» نفسها، قبل الحرب بقليل، سنتين، يمْكن؟ اسمها سعاد فهمي بفرقة بيا بكازينو مونت كارلو، ومع أنني اسكندراني فلم أكن قد عرفت مِن هذا الكازينو إلا لافتة على الكورنيش عندما مررت به، ويدي في يد أمي، في طريقنا إلى حمّام الستّات، في الشاطبي، يوم الأربعاء.

النار تدور في عينيه الذابلتين، والكلمات ترتعش على شفتيه الجافّتين، لكنه لم يلقِ عليها نظرة، وسار في بطء، ثم أزاح الستار عن نافذةِ شرفته التي احتضنتها أفنانُ الكرمة المتدلية كما تحتضن أمٌّ عزونةٌ طفلَتها الحبيبة إلى قلبها، وعطّرتها أنفاسُ الأزاهر البيضاء، وألمبها الأرَجُ الدافىء المثقل المتساقط من شجرة التوت العملاقة، كأن هذا الدفء يسود ضريحاً تتوقد فيه شموع.

سعاد فهمي تلتفُ بفستانٍ مفتوحٍ من تحت الإبطين فتحته واسعة، يبدو منها جانب من ثديها الرشيق، وتنزل الفتحة حتى منتصف خصرها. ويدور نسيج الفستان المنسدل ملتصقاً بخصرها وبطنها وفخذيها، سابغاً حتى ساقيها، مشقوقاً من جانبه، حتى يصل إلى الأرض في طيّات مَوْجيّة، والحزام القماش المضفور، لامعاً، يحصر خصرها، وهي تمسك بطرف منه، وثيقاً محكماً على أعلى البطن، تحجزه بإصبعها الإبهام بينما تفرد يدها على بطنها، مصبوغة أظافرها بظلٍّ قاتم. كانت الصورة بالروتوغرافور الذي تستخدمه دار الهلال، بين الرماديّ والرصاصيّ الذي به نغمةُ الأزرق الشاحب، وكانت ترفع ذراعها العارية من فوق نهديها الصغيرين، وعيناها فيهما نظرة

غواية مستميتة، شعرها وحف ثقيل يسقط على جبهتها الضيقة في نصف دائرة أثيثة التكوين وينسدل حتى كتفيها العاريتين.

لم أصنع غراماً قط - في حقيقة الأمر - إلا مع خيالات جَسَدانيّة.
حتى في عِز التجسّد والأرضيّة، كُنّ تخييلات.

أما صواعق الحب والعشق التي انقضّتْ عليَّ - كما يُقال - فقد ضربتني ثلاثاً. لم أكن أملك لها ردّاً، وارتجفتْ الحراشيفُ بالشحنة المهلِكة، وصلصلت دروعُ الحيّة العظيمة التنّين، بلا جدوى.

لم أكن قد ذهبت إلى مصر - القاهرة إلا مرة واحدة أذكرها، من سنين، وكنت صغيراً جداً، زُرنا المعرض الصناعي الزراعي، يمكن من ثماني سنين، يعني سنة ١٩٣٢؟ وذهبنا إلى بيت قريبنا الكمساري جنْب خط السكة الحديد، تحت مطرٍ أحال الحارة الضيقة إلى ممرٍ مُوحل مستحيل، وبيّتْنا عند عمتي ديماريس في شبرا واستيقظتُ يومها في الفجر على صوتِ أذانٍ لم يطرق مسامعي قبلها ولا بعدها أعذبُ منه ولا أشجى. في سكينةِ الفجر الساجي نـان ثم سلامٌ لا يمكن وصفه، لا ينتهي جمالُ ترداده، مازالت دعوة المؤذّن يومها إلى حيٍّ على الصلاة، والشهادتان، بترنيمٍ عميقِ الإيمان، لها كلها أصداء باقية لا تبارِح جنبات روحي التي لم ترتوِ قط، ولا تفرغ أشواقها.

ياه..!
بدت له من الشرفة تربةُ مصر الغامضة الحارة، وقد تدثرتْ بغلالةٍ ليليةٍ شفافة.

رأى النجوم المتألقة كنيران صغيرة مشبوبة في السماء الزرقاء

ينعكس وهجها على مياه النيل المنحدر في جلال وهو يغنّي مُهَمهِماً بأنغام قديمة متآلفة الألحان واللغات، وعلى ضفافه كانت عرائس المياه تتمدد في تلك الليلة الصيفية، ملتفّات بضوء النجوم، هامسات بأحاديث الأساطير التي تتجدد أبداً ولا تموت. عذارى الليل المرهوبات اللاتي يضطجعن على الشاطىء في ليلهن الأبدي، بشعورهن السوداء المتناثرة، وعيونهن العميقة الساجية يغرين مَنْ قَاده القدر إلى أذرعهن، فيرتمي بين أحضانهن الناعمة، ولكن لكي يغُوص به إلى الأعماق، ويخرجن، وحدهن، داميات الشفاه، ملتهبات الأعين بنارٍ مثلوجة.

أما في الصباح، بعد فطور الفول البيتي المدمس، بالزبدة، وعيش البَتّاوْ الطازة، والشاي باللبن في الكوب الزجاجي مخضرّ اللون قليلاً، فقد كانت زيارتي لبيت رحمة ولندة يعني بيت خالتي سالومة وخالتي روزة، طبعاً، شبه يومية، أو مرتين في اليوم أحياناً.

كان بيتهم من البيوت القلائل، في الطرّانة، التي من دورين. في آخر زقاق ضيّق، متلوٍ، ينتهي فجأة بحائط سَدّ، ترابُه الناعم يعلق بقدميّ العاريتين في الشبشب الرفيع ـ مَنْ كان الذي يهتمّ بلبس الجزمة في القرية، على الصبح؟ ألم تنتهِ أيام المدرسة، والحفلطة؟، الجلابية أو البيجاما المخطّطة فيها كل الخير والبركة ـ وكنت أحاذر أن تغوص رجلي في أقراص الروث الطرية المدورة، أعرف أن خضرة سوف تجمعها لتصنع منها الجلّة الجافة التي أرى صفوفاً منها فوق سطح البيت.

مدخل البيت - بين حائط الـزريبة وجـدار الحد المصمت المبني من الـطوب النيء - مسقـوف وضيق ومـظلم من وراء البـاب الخشبي العتيق - ذي السُقّـاطة الخشبيـة أيضاً - التي تـرتفع بفعـل حبلٍ يُشـدّ من فـوق، من الـدور العلوي، لينفتـح البـاب، ثم تعـود السقـاطـة فتستقـر في تجويفٍ مُعَـدٍ من الناحيـة الجُوانيّـة للبـاب. وقـد غـادرت البهائم كِنّ الزريبة من الصبح البَـدْرِي، لكن رائحتها مـازالت كثيفة وراكدة تفعم الحس، لا تنجاب ليل نهار.

عندما دخلت، كانت خضرة تكنس الزريبـة بسُباطـة نخْل خشنـة السعفـ، مربوطة بشمروخ سنْط مسوًى واضح العُقَد.

في جلابيّة الشُغل السوداء الباهتة المُلطّخة، شق طولي مفتـوح على جنْب، ينــزل حتى تحت خصرهـا، يلوح منــه قميص داخـلي بلون فـزدقي كالـح، خشن النسيج، وثـديهـا الصبيُّ الأسمـر يفلت منـه، يهـتز - وهي تشتغل - متـماسكاً وغضّـاً، منعشاً بشكـل مدهش، تحت الثيـاب غـير النـظيفـة، دون أن تلقي أدنى اهتـمام إلى نـظرتي النَهْمـة الخجول معاً.

بنتها الصغيرة تلعب بكوز ذرة ناشف نصفـه قد عـريَ من حبوبـه الجافّة، لفّتْ رأسهـا بخرقـة داكنة يبـدو من تحتها شعـرها الأشقـراني الملبّـد، نظرت إليَّ بعينـين واسعتين خضراوين، متسـاءلتـين وكـأنهما غَزلتان، بلا خجل.

أما آخر أولادها فقد كـان يلتصق بساقيْ أمّـه وهي تكنس، يتدأدأ

وهو يشدّ جلابيتها، ليس عليه إلا قميص قصير يكشف عن قضيبه الصغير، وخصيتيه البريئتين، وساقيه المقوستين قليلاً.

ـ ياواد خُشّ جوّه اختشي يُوه.. يابِتّ حُطّي عليه هِدْمة، يادي العيبة، ياهْوي!

ولكنه ينظر إليّ وقحاً بوقاحةِ الحياة الطفولية الجديدة المنطلقة من سخونة الروث، وجَسَدانية الجاموس الجسيمة، وحنين الأرض الذي بلا تورّع ولا وعيٍ تقريباً يتحدى الخَبْسة وزمْتة الحيطان.

وكانت سائر البنات سارحات في الحوش، تحت النخلة، وأمام البيت في الوَسَعاية المحجوبة عن الطريق؛ فهل رأيتُ في ركن الزريبة ظلالَ رجالٍ كثيرين؟ أم رأيت رجلاً واحداً، وكأنه كثيرون؟ أسعد الأشقراني أمْ عمّي سلوانس بعينيه الخضراوين الثاقبتين تُشعلان ظلال الكِنّ؟ رَجُلها حجازي أم ظِلّ الوادْ لافنْدي الاسكندراني بن عم قلْدس الصعيدي، القادم من راغب باشا، الذي يموت حباً في الحوريّتين لندة ورحمة، ويتلظّى بنيران شهوةٍ جافة؟ فهل ظِلال الرجال دائماً، تترصدني وتتربص بنسواني؛ لا، بل كان هناك، رأيته في عتمة الصبح.

كنت أعرف أن حجازي زوجها، الأُجَرِي، يشتغل يوماً ويبطّل أياماً، ويسافر بالشهور مع التراحيل في مواسم الشغل، لكنها تحبل كل عام.

وعندما يقعد في البلد كان يأخذ البهائم أحياناً للمرعى على الترع او الرّيّاح أو جسر البحر الكبير.

وكانت تلك شُغْلة الصبيان ـ أو حتى البنات الصغيرات ـ لكن الحَاجَة وحْش. وكان للرجل وجهُ وَحْشٍ وضحيةٍ معاً، خشن مجدور جافّ كفرعٍ جميز عتيق وفيه أيضاً نضارته المحجوزة. رأيته مرة يكسح الزريبة ويُخرج منها طبقاتٍ قديمةً جافة من مخلّفات البهائم يعجنها بالروث الطازج ثم يُقرِّصها ـ كالنسوان ـ ويفرشها في الحوش تحت النخلة ليصنع منها الجِلّة، وكان يلبس خيشة متصلبة من القَذَر، على اللحم.

وكان هو وخضرة، ووليدها الأخير، والبنات الخمس ـ في وِشّ العَدْو ـ ينامون جميعاً مع البهائم، في ركن الزريبة، أَهُو مِنه حَرَس، ومِنْه ونَس، ولهم على أي حال، من الخير نصيب!

ـ عَوافي ياخضرة.

ـ يعافيك ياسيدْنا لفندي ياخويا، ويجعلْ لك في كل خطوة سلامه.

رفع رأسه إلى السماء فرأى النجوم الأبدية الدقيقة تلتفّ بالقمر الشاحب الصغير الذي اكتسى بسحابةٍ بيضاء شفّافة.

النجوم أنقاض قصر أبيض تبددت بقاياه وتشتت حطامه حول بحيرةٍ نصف مستديرة من فضة هادئة. رأى السحب الجميلة تسري في صمت إلى أرض خرافية مجهولة، أشرعة حالمة تحمل في قواربها أبناء آلهة، هاجعين، أبناء خنسو أبوللو، وبناته القمريّات الشُّمُوس.

لفحت وجهَه الملتهبَ نسماتُ ريحٍ دافئة عبقت حواشيها بشذى زهرٍ برّي تهبّ من ناحية المقبرة حيث تظلل الأشجارُ أشباح القبور، حيث تتأوه العِظام المفتتة، تحت السنْط والنخيل العقيم، حيث

تضرب جذور النبْق والجمّيز في التربة خلال عيون الجماجم المظلمة التي تُحدّق بلا غمْض في ليلها الأبديّ، حيث سيقان أشجار التوت والمانْجه تخترق الهياكل في التراب، لكي تحمل الأوراق الغضّة، مشرقةً متفتحة، في نور السماء.

ناديت من تحت:

- خالتي روزة. خالتي سالومة..

لم تكن إحداهما خالتي على الحقيقة، بل هما أقرب إلى خالات أمّي، كان ابن عمهما حنا بيه الذي يعيش في شارع جانبي من الرصّافة في اسكندرية، وتحرص أمي على أن تعطيه حقّه من فطير الملاك ميخائيل الذي تصنعه لي في عيده، وله ابنٌ على اسمي أيضاً، أكبر مني كثيراً وعمّر طويلاً وكان شاعراً عمودياً نُصّ لِبّة نال حظاً من الشهرة.

جاءني الصوت المشروخ الرفيع:

- إطلع يابْني.. إطلع ياضَنَايَ.. يالندة.. يارحمة.. شوفي ابن خالتك، افتحي المندرة البَحَري.

كانت خالتي روزة وخالتي سالومة توأمين مصنوعتين على قالب واحد. لم أرهما قط - حتى في عِز الصيف - إلا بالثوب الأسود السابغ تدور على صدره سُفْرة ملفلفة من قماش حريري لامع بالياقة العالية المقفلة التي تضمّ، بإحكام، العنقَ المجعّد الضاوي، عنق ديك رومي مخضرم، وبالحذاء الأسود الرجالي واطىء الكعب صيفاً، وبكعب كباية له أزرار جلدية مدوّرة متلاحقة على الساق الرفيعة شتاء،

وبالشراب ذي القماش الثقيل صيفاً وشتاء. أما في أيام البرد في آخر سبتمبر، فقد رأيتهما تزوران ستي أماليا بالبالطو الأسود الحرير - التاريخيّ - على الفستان.

لم يكن يبدو لهما صدر أو عَجُز، كانتا مسطحتينْ قائمتيْ العود بصلابة، ناحلتينْ بجفاف.

وكان بُخلهما يُضرب به المثل في الطرانة كلها، بالفعل.
- يوه إياك حتعمل زَيّ ست روزة مش لادِدْ عليها حتى كُباية الشاي..!
- زَيّ الست سالومة قُولَح دُرة ناشف مايبزّش اللومّيَة..!

وكانوا يحكون عن كنزٍ من الجنيهات الذهب الحميدي والانجليزي والورق الكبير أبو مَدْنة، كأنه مناديل خضراء. خبيئة مدفوسة في كوّة مموّهة بالطوب النيء تحت السرير الحديدي ذي الأعمدة العالية، أو يُقال إنها في المصطبة الطينية في الدور الفوقاني، في المندرة الأخرى التي لا تُفتح لأحد قط، تحت أكداس المراتب القطن والألحفة والأكلمة السيوطي، وتحت النافذة القِبلية المقفلة دائماً، ذات القاعدة العريضة التي وُضعتْ عليها كتب الترانيم وتعلُّم اللغة القبطية وألف ليلة وليلة بأجزائها الأربعة منزوعة الأغلفة وجزء واحد من كتاب «الأغاني» المطبوع بالحجر وَرَقُه قد اصفرّ وجفّ ويوشك أن يتهشم من فرط هشاشته.

كان الباب لا يُفتح أبداً، بعد أذان العشاء الذي يأتي من بعيد، من الجامع المطل على الريّاح البحيري.

خَضْرة، وحجازي إذا كان في البلد، وأولادهما ينامون من العِشا ويصحون من النجمة، والخالتان كالديدبان، حدأتان رابضتان.

أما لندة ورحمة فقد كانتا تبيتان عندنا ـ يعني في بيت جدّي ساويرس ـ إذا عزمتا على السهر أو العشاء معنا ـ بعد أن تأخذا الإذن اللازم بطبيعة الحال ـ وخاصة في هذه الأيام، عندما كانت خالتي وديدة مخطوبة لعمي فانوس، وبنات العائلة والستات والقريبات والجارات يعقدن حلقات الغناء الفلاّحي والطبل البلدي المرتجل، على مصطبة بيتنا المكشوفة، في نور الشعلات الحمراء المتراقصة في كيزان الصفيح المعمولة مصابيح، وكنا نسميها «الشيخ علي».

أيّ إصرار عنيد يدفعني في وسط مثاليّات الحب الخَجول المكبوت، واضطرابات القلب وإحباطات التقاليد الفلاّحي والعادات القاسية، وعصفات الشهوة الخفية، وعلى نور «الشيخ علي» المتهافت المهتز، أن أواصل الكتابة بالحبر الأحمر الفاتح مقتعداً الشَلْتة الناشفة، مُسنداً الورق الخفيف نصف الرماديّ على مِهادٍ من صفحات «الأهرام» القديمة، مفروشٍ على خشب الطبليّة.

سَرَتْ في جسده رجفة.

إنه في ريف مصر، في كهف أحلامه، في مثوى آلهته، في موطن السحر والخرافة والأشباح، في مهد الضنْك والكدّ والحياةِ دائماً على شفا الموت.

ترك النسيم الدافىء يهبّ من الشرفة المفتوحة، واستند بظهره إلى الجدار، وهو ينظر إلى معبده.

صامتاً يتعبّد.

قال: أمازال في أحد أركان روحك؛ هذا الفتى الموجوع الساذج؟ أمازلتَ ترعاه، حتى؟

ألا تريده أن يموت، هو وشِعره الغرير الذي لا يساوي، في سوق الشعر، بَصَلة؟ ألا تريده أن يَغْبُر؟

قال: ألعلّه قد تمّ تحنيطه؟ من وراء قناعٍ مكشوفٍ للعيان؟ فهل جُمجُمته ملفوفة بأكفان الكتّان المهتوكة، لَم يبقَ منها إلا القليل من حبّات الزجاج اللامع، أو المنطفىء؟ حبّات من ملح النطرون؟

قال: بل حيٌّ ينبض، برغمكَ أو رضاكَ، سيّان.

قال: مدفون تحت تراب الكلمات.

٢ - بوبيللو

عندما وصلنا إلى الغيط الغربيّ، ونزلنا من المعدّية على سقالة خشب، مَدَّها المعدّاوي على جرف الرياح، فوق الطين المبلول الأسود الذي ينزّ بماء الفيضان المكتوم في جسم مادته الغنيّة، كانت الشمس قد حميت.

تحت حلقةٍ ملتفّة من أشجار السنط والجازورينا وشجرة نبق واحدة عريضة الجذع، عريقة، متهدّلة الأغصان، فرشنا على الأرض أوراق الذُّرَة الخضراء الطرية، طبقة فوق طبقة.

كانت خَضْرة تُهوِّي على النار الموقدة من حطب القطن وقوالح الذرة.

وكانت كيزان الذرة التي نُزعت للتوّ من أغلفتها الخضراء الحريرية الملمس تطقطق على الجمرات سريعة الانطفاء، لا تكفّ خَضرة عن تزويدها بالوقود وتهويتها بجانب من صفيحة مسطّحة صدئة مازال عليها آثار من رسم القوقعة وكلمة «شل» باهتة الاحمرار. الدخان يصعد من الكانون المرتجل المعمول من طوبتين قائمتين على طولهما، حلقات الدخان المتصاعدة لها لفحة نفاذة من الاحتراق سرعان ما تخفّ ذؤابتها وتتطاير في الهواء.

تغدينا على الفطير المثلّت المسقسق بالزبدة الخالصة، كان مَنَابي معه ورك بطة محمّر فيه حلاوة الدسامة التي تتأتى للبطّ المسمّن، تضعه ستي أماليا تحت رِجْليها، وتزغّطه مرتين في اليوم، على الفول والذرة

والكريات المعجونة بالماء المعمولة من الردّة والطحين وقليل من السمسم.

عزم عليَّ جدي ساويرس بالكونياك، أصهبَ في كأسٍ صغيرة مضلّعة الزجاج تبرق وتشعّ تحت تراوح هفهفة الظلال ونور الشمس.

كانت نسمة الهواء قد اشتدت، وقد اقترب العصر، وحفيف الشجر له موسيقى، ومياه الفيضان الحمراء المتدفقة في الرَيّاح لها هدير خافت ومدمدم في ارتطامات أمواجه ودوّاماته، ونحن نهشّ الذباب الذي تجمع حولنا، يحطّ علينا بلا هوادة، بعناد، والمنشّة الخوص رفيعة الفتائل ذات المقبض العاجيّ في يدي عمي سلوانس وفي يدي جدي ساويرس، لها صوت احتكاك ووشيش يشرئبّ له الجِلْد: أزيز الدبابير، والفَراش سريع الرفرفة بأجنحته الشفافة والفضيّة، وخوار الجاموسة المربوطة في الساقية يختلط في مسامعي التي أحدَّها الكونياك وأرهفها، بدندنة عمي سلوانس وشجوها المكتوم ورضيت بنار البعاد، ياللي راعيت الوداد، وسمعت نجوى الفؤاد، أفديك بروحي، ونباح الكلب الضروريّ الذي لا بدّ أن يرتفع بإصرار، وخوف، من على حفافي الغيطان.

ذهبتُ، في آخر النهار، إلى آخر الحلقة المفروشة بأوراق الذرة المشعّثة الآن، وقد جاءتها أشعة شمس الغروب من على جَنب، ناعمة ومنبسطة وبدون ظلال، وجلست جنب خضرة، جاءت ساقاي العاريتان تحت الجلابية البيضاء التي تَربتْ أطرافها الآن، بجانب فخذها المدورة، وهي متربعة في جلستها، بعيداً عن «الخواجات»

لأنها تعرف قدرها، ولكنها سلطانة في بَذَخ الجسد الحُرّ الذي يفيض بتدفقٍ من الحنْكة والبراءة والمعرفة غير المنطوقة معاً.

قلت لها: خَضرة، قَشْرِيلي كوز دره كمان، وحياة عينيكِ.

كانت في نظرتها إلى الولد الصغير الذي كنته مؤامرة وتواطؤ، وجراأةُ المرأة التي تعلّم الصبيّ كيف يعرف ذكورته.

أكلتُ الذرة نيئة طريّة تشرّ بماءٍ لبنيّ في فمي له حلاوة خفيفة ومفاجئة، والنمل الكبير، حرامي الحَلّة، البنّي الفاتح، يجري بسرعة خاطفة من بين ساقيّ وتحت وركيها، يحمل رزقه من بين أوراق الذرة الخضراء العريضة، ويهرب به إلى جحوره واضحة الثقوب في تراب جسر الرَيّاح.

قالت خضرة، من غير مبالاة:

- بوبيللو؟ كوم المساخيط..! دا من غضب ربنا جَلَب عاليهم واطيهم، أعوذ بالله من غضب الله.

كان حسّي باللحم الأسمر الناعم المسترسل يقظاً الآن، ومتوتراً، ولذته مسترجَعة، حَية غير راكدة.

هل هي استعادةٌ لا تكفّ عن المثول؟ هل هي الآن سورة الكونياك، والزَفَر السمين، وحلاوة ثمار الأرض الغنية؟ أم هي حُمَيا خيالات الصبا التي لا يُكبح جماحها؟

هل كانت علّمتْني من فنون الشبق ألواناً؟

أم كان هذا اللجَجُ من عربدةِ الغيوبِ؟

فوح التراب المبلول الذي جفّ من وقدة النهار ونفْح خُضرة أوراق

الذرة التي تموت تحتنا ولفحة روث الجاموسة بين حين وآخر، كأنما كلها تزيد من سعار نشوةٍ أرضية مكتومة في روحي.

كانت خَضرة تضع على رأسها الطرحة السوداء الشفافة التي انزلقت قليلاً على كتفيها، تشفّ عن مدوّرة زرقاء - زرقتها داكنة ومخايلة قليلاً - تحت سواد نسيج الطرحة الذي يهفهف في النور، تتدلى على ظهرها ضفيرتان من شعرها الغزير، سميكتان، مفتولتان بشريط من قماش المنديل الأزرق الذي يبدو الآن ناصعاً إذ يلتفّ حول شعرها الوحيّ الأسود.

سمعت خالتي روزة تطلب من خضرة أن تضمّخ شعرها بالجاز، كانت تطلب منها ذلك بانتظامٍ مرة في أول كل شهر، لتنقّيه تماماً من كل واغل.

وبعد أن جفّ الجاز وفاحت رائحته في مدخل الدار رأيت خضرة تمشّده ببطء، بحركةٍ شهوية.

أقفلت على نفسها الباب الخشبي الذي يسد الكِنّ المسوّر بالطوب، في الزريبة، ويُظلِمه.

من فوق، وأنا أقرأ لخالتي روزة صفحاتٍ من «ألف ليلة وليلة» كنت أسمع وشيش وابور الجاز تحت صفيحة الماء المملوءة من عند الرأس الحجريّ في النيل - حيث المياه أسرع جرياناً وأصفى - وعندما نزلتُ شممت من عندها رائحة ميّة القسيس التي كنت أشتريها من سوق التلات في كفر داود، وأهديتُها خضرة، خلسة عن العيون.

موج شعرها الأسود المتلاطم يغمر جنْبي وصدري وأعلى بطني،

وهي تنحني عليَّ، في الليل والسرّ ـ بينما النهار ساطعُ الضحى في الخارج ـ فيه رائحة حرّيفة وحوشيّة ـ قالت لي مرة إنها تلق في الهون حباتٍ من القرنفل، وعين العفريت مع قشر الرمان الجاف، تنقع المسحوق في قليل من زيت الزيتون، وشيء من الكحول، ونقطة ريحة صندل، وتستخلص منه ما تمسّد به شعرها. قالت لي مرة أنت تجعل من رائحة شعري أشبه برائحة لبؤة متحرقة للسفاد. حسّ نداوة شفتيها إذ تنضمان عليَّ، وحرارتهما، وعبثهما بي، لا توصف لذته، وعندما يوشك أن يصل إلى الذروة ـ مَنْ يطيق احتمال حرقة النشوة؟ ومقاربة التمام؟ ـ عندئذٍ ترفع فمها بحنكةٍ وذكاء جسديٍّ حصيف، حتى يطول الأمد.

توهّتُ بشبقِها.

غالتْني وجمحتْ بي، في سورات جسدها، في مفازةٍ لا منجى منها، لا منجى منها حتى الآن.

خبّأتُ جسدَكِ في قلبي، نابضاً، مطالِباً، عارم الحياة، حتى الآن، حتى الآن.

قال إن المصابيح الشرقيّة المشغولة بنمنمة النحاس كانت تصبّ ضوءها الأزرق الوديع، تلقي هنا وهناك أنواراً خفيفة مرتجفة وظلالاً شفافة، وبين لوائح السَنَى وغمْض الظلّ تناثرت التماثيل الصغيرة، فاتنة حالمة، بقايا روح جمدت في قِطَع منحوتة من الحياة.

عيناه تستقران فقط على تمثاله الأخير.

أفرغَ في المرمر الأبيض الناعم كل كؤوس حياةٍ مترعة بخمر

الأحزان، والأحلام، خمرَ نشوةٍ وكآبةٍ، سُكْرَ القلب الذي لا يُراعِي.

ينظر إليها متولِّهاً، روحه هي محراب قدسها ومذبح بخورها وصرحها المحيق؛ تحت قدميها شظايا أحجار متطايرة وجذاذات المرمر لامع الحواف وأدواته الحديدية القوية، الأزاميل والسكاكين والخطاطيف والإبر والمثاقيب. تثوي، هي، بين بقايا النُحاتة وبين تخاييل الظل وارتعاشات لهفة النور.

يمر بيديه المحمومتين على شعره الأشعث المغبّر.

بنت، حورية، الاهة، من مصر، تحلم؟ أم تَرَى ما لا يراه البشر؟ مضطجعة في مخدعها الرخامي متموج الطيات، جسمها الغض تكتنفه غلالة تتثنى وتتهدل كأنما تحتضن منها الروح، بشغف. رفعتْ وجهها المرمريّ النحيل الصقيل، واعتمدت رأسها الأنيق بذراعين عاجيتين عاريتين، وقد انسدل شعرها، غدائرَ حَجَرٍ مضيئة، عميقتينْ في محجريها، توحيان بسعة لامحدودة، بنورٍ داخليٍّ مكتوم، أسبلت جفنيها الثقيلين على عينيها، أهدابها ترمي ظلالاً طويلة على الخدّ الشاحب الأسيل، زواياه حادة التدوير، وناعمة، وشفتاها الممتلئتان نصف مفتوحتين، مستعدتين للتلقّي.

صَمُوتٌ، أنينُها لا يُنطَق به، في وهجٍ غامض غير منظور.

قبل أن نصل إلى الغيط الغربي كان بوبيللو يرتفع إلى علّوٍ شاهق، الكيمان التي يحمل منها الفلاحون مقاطف السماد الكفوري الغنيّ تقطعها، في حدودٍ رأسية تقريباً، آثارُ الفؤوس.

ركام من الشقافة، كِسَر سميكة من الزجاج الملون بالأزرق

الفرعوني والأصفر الداكن نصف الشفاف، ناعمة في اليدين، غير جارحة، أحجار جيرية، ورملية، عليها نقوش نصف مطموسة بالحرف الهيروغيلفي والديموطيقي واليوناني والعربي الكوفي، راكمت السنينُ المتعاقبة الطوال الأكوامَ العقيمة من الحجر والزجاج وأنقاض الرخام. دفنتها تحت كيان التراب التي تكشفت فيها فجوات غائرة جَرَفت منها أجيال من الأيدي الصَبور الدؤوب، من جَدٍّ لأب، حُفَراً من السباخ الخصيب. رفاتُ أجسام بائدة وفتاتُ أرواح لا راحة لها إلا في أرض الغيطان المسقيّة بماء الفيضان وطميه. ترابُ الكهنة والشعب والجنود والتجار يغذو القمح والبرسيم والشعير ويمتزج بعصارة جذور الجميز أبديّ التكرار والنبق العتيد. أعوادُ الذرة الغضة وحبوبها السكريّة، دورةٌ مشرقة الحلقات أم ثأرٌ يأخذه لنا ولنفسه الفلاحُ الذي لا يموت أبداً. هل يموت الآن في ذبذبات الڤيديو وكَهْربات الإسمنت والطوب؟ ابن النور، عدوّ الظلمة، وعدوّ كل ذراريها الجافة، ألايزال يضرب بفأسه الأرض - الايزال؟ - كما يصنع الحب مع امرأته، يتلقى أول قطفات المحاصيل بعد أن أنضجها، سقاها من عسل النيل القديم وحَمَاها من لظى الصيف في الشراقي ومن ندوة الحشرات والديدان وقضم الجرذان ونهش الجراد.

أما في العصاري، تقريباً كل يوم، فكنت أذهب إلى بيت عمّي أرسانيوس، وابنه فانوس الذي سيتزوج خالتي وديدة، لكي أجد رحمة.

لكي ألتقي بها.
ونخرج معاً من هناك، نتمشّى.

كنت أصفف شعري الثقيل بالبريّانتين وأغير جلابية النهار، ألبس أخرى نظيفة، زيّ الفُل، وأمسح الصندل المفتوح الذي سوف أعود به متربًا هو وقدماي معاً وبه ثقل من الطين اللازق في نعله من جسر النيل المرشوش، ندور حول الجرن الفسيح الذي يبدأ فيه نشع الفيضان ينزّ ببطء، في الأول، ويرتفع قليلاً، حتى يصبح بِرْكَةً واسعة رقرقةُ الماء الراكد فيها تخفي السمك الصغير الذي يصطاده أولاد الفلاحين بالكوز، أو بالقفْش باليدين بسرعة وبحذق، من أين جاء السمك؟ لم تكن هذه التمشية الأفرنجي عندئذ موضع استغراب من أحد، الآن يجيئني رد الفعل المحتمَل - بل الواقع فعلاً - عند أولاد القرية بعفرتة أهاليهم، وعند أصحاب اللحى والجلاليب القصار الذين لم يكن لهم عندئذٍ وجود، وأصحاب حُواذ المرأة التي كلها عورة واحدة يجب كتْمها؛ كانوا أيامها يعرفون ساعة للقلب وساعة للرب.

نمشي حتى موضع الساقية الضخمة المهجورة، تحت جسر النيل المرتفع، ننزل إليها على حِجارٍ مرشوقة في جانب الجسر الترابي الهش من فوق، المتماسك عند الشطّ العريض، ونحن نكاد ننزلق، ونضحك من خشية الوقوع، أُمسك بيدها الرفيعة العظام، شفافة تقريباً، أُحس لها رجفةً من النشوة الحسية ومن إعزازٍ وإكبارٍ غير مُفَسَّر، ونجلس في ساحة الشط الواسعة غير بعيد من المياه الدفّاقة، على ذراع الخشب المترب المشقق، أسود الآن من الجفاف ومعووجاً، ساقطاً من عجلة الساقية الضخمة الغائرة قليلاً في تراب الشط. المياه - في ذروة الفيضان عاماً بعد عام - ترتفع حتى تُغرق الجانب التحتانيّ من هذه الذراع الجسيمة وتترك فيها، بعد أن تنحسر، خَطّاً

حين التموّج بجدد هذا الجانب بلون داكن يظل على دكنته حتى العام التالي.

لم تكن رحمة تتكلم كثيراً - على عكس أختها لندة التي كانت تستمتع بشقشقة الكلام بلغوتها الفلاّحي حلوة الجرس والإيقاع - كانت تسألني أحياناً عن دروسي في العباسية الثانوية، ماذا تتعلم هناك؟ وعن أخبار الحرب في الجورنال، وكنت أحكي لها بفقهٍ وتدفّقٍ وتلقائيةٍ لم أعرفها مع النساء بعد ذلك إلا في النزر من الأحايين.

حكيت لها أن في وسط أوروبا، بلاد الأفرنج طبعاً، منطقة اسمها بوهيميا يسكنها ناس اسمهم التشيك وناس آخرون اسمهم السلوڤاك ولهذا جاء اسمها الصعب تشيكوسلوڤاكيا الذي لا يعرف أحد أن يقوله في الطرانة بذلاقةٍ ولَسَن إلا خالتي وديدة. وقعتْ الآن تحت سيطرة هتلر - كان هتلر مشهوراً في الطرانة - وأن على الحلفاء الانجليز والفرنسيين أن ينظروا في مسألة استقلال بوهيميا حتى يتجنبوا حرباً أخرى، وأن الأمة التشيكية لها تاريخ وحضارة عريقة، وأن هناك أحلاماً، وخُططاً، لإيجاد مَلكٍ يحكم في الوقت نفسه على بوهيميا وسلوڤاكيا وهنغاريا ويكون له ثلاثة عروش في ثلاث عواصم اسمها براغ وبراتيسلاف وبودابست. وقلت لها إن طائرات الانجليز ألقت منشورات على هامبورج وبرلين تدعو الألمان إلى الاستسلام وحكيت لها أيضاً عن ليدي الزابيث بيرس شقيقة دوق نورثمبرلاند التي أعلنت خطبتها للماركيز دوجلاس فكانت هذه الخطبة نهاية سعيدة لنزاع ظل مستحكماً بين أسرتي الخطيبين زهاء ستمائة عام، وبالمناسبة حكيت لها عن روميو وجولييت، ونهايتها الفاجعة، ودمعتْ عيناها قليلاً وكنت

ذَرِب اللسان في النطق الانجليزي القُحّ، لكنها لم تبالِ بذلك بل سحرتها قصة الحب فقط وكانت تصغي إليّ بكل روحها، بعينيها العسليتين العميقتين. كأنها غادرت جسمها الآن، في المغارب. نعيق الغربان يزداد حدة وتواتراً على شجر السنط والتوت، فوق، هناك على الجسر العالي الذي كان يبدو بعيداً ومقطوعاً عنّا، خوار البقر والجاموس وثغاء الغنم العائدة من الغيطان، ولا بد أن نصعد الآن، ونعود قبل هبوط غبشة المساء، وإلاّ كان لأهلنا معنا حساب وأي حساب.

خيّل إليه أن روحها تسترسل مع أنفاسها الهادئة، مع أشجانها الحالمة، وأن نهْديها الصغيرين يرتجفان، فوق قلبها الخافق الملهوف، في نشوة حلمٍ ترين عليه الكآبة، وغلالتها ترتمي على ساقيْها المستلقيتين، كأنما تبغي أن تُقبّل قدميها ـ كما يصبو إليه أيضاً ـ ثم تُغفي متعبةً لاغبة في غمار أحلام غائبة، وشظايا الروح تشعّ منها الوداعة الحزينة التي هي ليلُ الحياة إشعاعاً غير مرئيّ. من هي؟ إلاهة أم طيف غير متجسد، ماثل في مخايل المرمر والأنوار؟ نظرت إليه وقالت له: تعالَ. تعال إليّ أيها المنهوك. تعال بين ذراعيّ، لكي ترتاح في حضني. أكانت حلماً من شطحات شبابٍ هائم شرود؟ أم كانت على جَمَد مادتها تنبض بالحياة كل الحياة؟ مضى إليها كالمسحور، أغمض عينيه، وتقدم، وركع.

قال الآن أعرف كيف عبد المصريون إلاهاتهم، وكيف كانت إلاهاتهم خالدة لا تموت.

قال إلاهة؟ شيء؟ امرأة؟ أم أنه هي؟

مازالت مسبلة جفنيها، ترنو إليه من وراء أهدابها، تحلم أحلامها الوادعة أو الشرسة، لا شأن لها به. هي حرة. منفصلة، ليست شيئه. ليست له.

في الطريق إلى بوبيللو مررنا بمقابرنا، على مدقات مترية غير محددة المعالم بجانب الأرض النشعة بالماء الملح الفضيّ المغبّر في الشمس.

صعدنا إلى الربوة. مرتفعة قليلاً، منثورة بالتُرَب المبنية بقباب صغيرة نصف متهدمة، والتُرَب القديمة المنقضّة على الأرض وحطام أكوام الحجارة الصغيرة لم يعد أحد يتذكر لمن كانت التُرْبة. وبعد ذلك بسنوات عديدة سوف توصيني أمي بأن أدفنها ـ قلت لها بعد عمر طويل ـ بجانب أبيها جدي ساويرس، في بوبيللو، وتُكرر الوصية بإلحاح، وأَعِدها، بطاعة، ولكني لم أستطع، وصنعت لها قبراً غالياً في أرض المدافن بالشاطبي، في آخر شوارع موحشة، ولا أعرف ولا أهتم إن كنت سأُدفن فيه إلى جانبها، أم يكتفي أولادي بقبرٍ مرتجَل في مدافن مار جرجس بمصر القديمة.

حوّدنا على الكنيسة الصغيرة المقفلة، فتحها أبونا بمفتاحه الحديديّ الضخم، وعمّي جورجي يتحسس الأرض في ثقةٍ ومعرفة، بعصاه الغليظة، دون أن يخطىء طريقه إلى الهيكل وهو يخبط الأرض المبلّطة برخام قديم. كان عمّي جورجي، عرّيف الكنيسة، يستطيع أن يشعل سيجارة بعدسة مكبِّرة، من نور الشمس، بمجرد حس أصابعه المدرّبة؛ ووقفنا وراء أبونا أندراوس، وصلّى بنا صلاة قصيرة ـ من غير أن يفتح المذبح أو حتى يعبر الحجاب لكي يدخل الهيكل، ثم تلونا

أبانا الذي في السموات، تمتمت معهم، لم أكن أحفظها ولا حفظتها قط حتى الآن، وجَثَوْنا أمام الحجاب ورسمنا علامة الصليب وباركنا أبونا وحاللنا، وخرجنا إلى نور الصبح الذي يعشي العيون ووضعنا الرحمة والنور على تُرَب أجدادٍ وأسلاف لم أكد أعرف منهم أحداً، سُكْنى التربة غربة نهائية ليس لها من مُقِيل، ولكنها الوطن الأخير. من أين جاء أولاد الفلاحين ينطّون كالمعيز بجلاليبهم الباهتة المرقّعة، على اللحم، شعرهم المهوّش تحت الطواقي المغبّرة الملطّخة الله يرحم ميّتينك ياخواجه أرساني الله يرحم ميّتينك يا معلم فانوس، وزعتْ عليهم لندة ورحمة وخضرة المِنين والبِتّاو السخن من خبيز الفجر، والبلح الأبريمي الناشف.

كنا نَلمّ بقايا النهار، وقد شبعت أعضاؤنا من متعتها العضويّة البحت الحسية التي مهما قيل فيها عبر السنوات فلا وصفَ لمدى امتلاء نشواتها الراسخة في نواة الجسد.

وعلى شطّ الرَيّاح البحيري في العصاري كانت البنات والنسوان يغسلن الهدوم والطشوت والحِلل النحاس وطواجن الفخار والأطباق الصفيح، انحسرت الجلاليب عن أفخاذهنّ السمراء، بوغيٍ منهن، أمام الأعين، كأنه لم يكن في ذلك على أي حال ما يدعو لأدنى خجل، نَشِطات في الدعْك والعصْر والشطْف يضحكن ويثرثرن كأنهن في ساعة راحة من الضنك لا في ساعة شغل شاغل مستغرق للجهد.

كانت البهائم تعود من الغيطان في صف طويل، تثير التراب الناعم فيغلّفها في سحابةٍ لها طعم خشن في فمي، صورة تجسدت من

نحْتٍ قديم، وتحركت، لا أملُ استرجاعَها من ألف عام، من آلاف السنين، قائمة في اللحظة، لا زمن فيها. وقفتْ جاموسة ناتئة العظام، ونحن ننزل على الخشبة الممدودة على شط الجسر، لنأخذ المعدية، بهيمة من قَبْل التاريخ، من قَبْل الأزمان، باهتة السواد، رفعت ذيلها فجأة، فانكشف أمامنا الشقّ الطوليّ المفتوح بلحمه الورديّ الفاتح، طريّاً ومتماسكاً يترجرج، وانبعثت منه نافورة مياه تبدو نظيفة رائقة أدهشني نقاؤها المنطلق بقوة، من غير أدنى حياء.

تذكرتُ حكايات الولد برسوم عن مغامراته الجنسية مع الجواميس.

وفكّرتُ، بسذاجة قليلاً، أليس واقع الحياة العضوية، البيولوجية، بكل ما فيها، أقوى وأعمق - بل وأجمل أحياناً - من رهافات الإخفاء والتستّر ودعاوي الرقة والسمو المزعوم؟ أصرحَ وأصدق على أي حال؟

لكن السذاجة مطلوبة الآن - البراءة والمكاشفة من غير خبث الالتفاف - في وجه تعقيدات نصف قرن من الانتكاس إلى غيبيات التزمّت وضروب المكابتة وتعلّات عنف القمع التي تنتسب، بلا أحقية، إلى الدين والشرع والخلق القويم.

فكّرتُ، بسذاجة.

آفاق الطين ممتدة الآن على مشارف الغيطان، وَحْشة المغيب على الترعة الواسعة مطبِقة وشاسعة معاً، الصمت الآن، فجأة، تاماً،

محيقاً، ونسمة تهبّ فيصدر حفيف ناعم عن ورق الشجر المتكاثف الغائم في غبشة أول المساء.

سمعتُ أصوات الفلاحين واضحة النبرة جداً في الأفق البعيد، ولكني لم أتبين الكلام.

وثَمَّ مركب خشبيّ صغير يشقّ المياه القاتمة القديمة، دون صوت، من غير شراع، كأنما ينساب وحده بلا راكب ولا سكّان.

وعلى الشط الآخر خُصّ معمول من البوص وأعواد الذُرة الجافّة وحطب القطن اليابس، فتحةُ الباب تبدو لنا سوداء، في عكس نور الغسق الدُرّيّ الذي يؤوب بسرعةٍ إلى دُكنة المساء.

قلت هل مرّت بالفعل آلاف السنين؟
أمازلنا في أحراش إيزيس؟

امتدادات شاسعة من مياه المستنقعات، قارب وحيد، يحرسه العقارب، حُور مازال طفلاً ضائعاً موعوداً بالمجد والعذاب؟ وأنتَ ألن تفرغ أبداً من إقامة مشابهات لا معنى لها؟

المعدّية، في آخر رحلات اليوم، تعبر الغسق بحثاً عن شمس الظلام، هل تجدها أبداً؟

نظرتْ إليّ رحمة، نظرة طويلة في جِسّي، نصفَ دقيقة ربما، بينما كانت لندة تثرثر مع عمي فانوس بصوتٍ منخفض مستمر، كأنما هي، على غير عادتها، في هيبةٍ من شيءٍ ما.

ياما ناديت من أساي، في وحدتي يا حبيبي، ما ردّ إلا صَداي، فضلت أنادي، في كل وادي، ويطول نِدايَ، شجْوُ الكهل ونداءات

الأشواق القديمة ظِلُّ المُغنّي الخفي وعزْف الليرا في حماية الثعابين والصقور والغربان وقطعان البقر، في صحوها وهجوعها سيّان، أحراشُ الغار وأدغال الحَلْفا الوحشية البازغة من سَبَخ الملح وطراوة وحرافة الجُعْضيض بين سيقان الملوخيّة البريّة المُزهرة، وأسراب الوز الأبيض المنساب على الترعة، وراء وزّة ستي أماليا ـ كأنها بجعة سوداء ـ التي كنا نعزّها جداً ونناديها باسمها «نعيمة» فتجيب بصيحةِ العِرفان، كانت تأتيني النيمفيّة الحوريّة دافئي سيريني عروس النيل، بعد أن تقود السرب من الترعة إلى طرقات البلد وحواريها، ثم تعود إلى البيت، وحدها، عند كل غروب، فتأكل من يدي حبوب الذرة أو الفول أو ما يفتح به الله علينا من قوت.

للمرة الثانية نصف دقيقة.

ما أعظم وما أكثر ما يحدث ـ وما يمكن أن يحدث ـ في نصف دقيقة.

وبعد، ألم يَكْفِ؟

ويعد، أيها الوادي العميق حيث يجثم كهفُ الظلام ويبسم معبدُ الأحلام، حيث يمتزج النور بالحلكة، وترتطم الأمواج الصغيرة في عمق الهوة المظلمة، يرتفع أزيز الماء كأنه يغلي، حيث تتغنى الوردة الغضّة على فَنَنِها الهافي فيقبّلها النسيم بحنان ويُسبغ عليها النور حباً وهوىً، يحتضنها الأرج العبق المنبعث من غورِ ذاتها، وبعد، أيها الوادي، إلام المآل وأيّان المصير؟ نظرة طويلة كالأبد، نصف دقيقة، ربما، شعاع يخطر ويختفي في ظلامٍ أبيد.

وفي ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠ قالت «البلاغ» إنه عُثِر في الرَيّاح البحيري بالقرب من كوم بوبيللو على جثة امرأة تبينّ أنها تُدعى خضرة محمود

من أهالي الطرّانة مركز كفر داود، وكانت الجثة عارية ومحلوقة الشعر وبها كسر في الجمجمة من ضربة فأس. وقد تعرّف الأهالي عليها وقرروا بأنها كانت «غندورة» ولكن لم يُعرف عنها سوء السيرة وأنها تركت خمسة أولاد صغار وتحوم الشبهات حول زوجها المدعو حجازي عوضين وهو هارب وتجري التحريات بغية القبض عليه وتباشر النيابة العمومية التحقيق.

ويومها كنا على وشك السفر راجعين إلى الاسكندرية، أنا وأختي عايدة التي ماتت بالتيفود بعدها بسنة، وأختي هناء التي هربت بعد ذلك بسنين وتزوجت مسلماً لا نعرفه واختفى عنّي كلّ أثر لها، وكانت رياح باردة، قارسة وجافة، تمسح الأزقة المتلوية المتربة، تصفر في الجرن الذي انحسرت عنه المياه وإن ظل موحلاً كثيف الطين. وفي السماء غيوم رمادية بطيئة، وهناك في العظام برد غير مشبَع وغير بليل.

لم نذهب بعد ذلك للطرّانة، أنا وأخواتي، لأننا، بعد ضرب البياصة في باب سِدْرة بالطوربيد الكبير وتهدُّم الورديان والميدان بني كوم الناضورة وشارع السبع بنات، هاجرنا إلى أخميم في صيف ١٩٤١ ثم إلى دمنهور طَوال ١٩٤٢.

قلت: الغَرَق شهادة.

فماذا صار من أمر رحمة ولندة؟

أمازالتا على قيد الحياة، في بلدةٍ ريفية أصبحت الآن مزحومة مكتظة بضجيج التلفزيون والڤيديو، أعرف أنهما غادرتا الطرّانة من

زمان، أتراهما عانستين مقدّدتين جافّتين تكرران مشهد خالتي روزة وخالتي سالومة؟ أم تراهما كهلتين متهدّمتين لهما أولاد وأحفاد، صوتهما ثاقب مشروخ، مُقعدةٌ الواحدةُ منهما من المرض أم نشطة متوفّزة بحركة العجائز التي لا تهمد ولا تستكين؟ وكيف تبدوان الآن، مغضنتين ممتلئتين باللحم المتهدّل المدعوك؟ أم ناحلتين ممصوصتين تستندان إلى عكاكيز؟ أم هما تحت التراب، مآلنا جميعاً في نهاية الأمر، أليس كذلك؟ ذلك أمر ـ وإن كنّا ننساه ـ محفوظ مشهور، والتفجّع المأثور.

طوارق تقرع القلب.

وبغضّ النظر عن أية رومانسية محتملة أو ممكنة، عن أية نوستالجيا مقبولة أو مرفوضة، ستظل رحمة جميلة ورقيقة إلى الأبد، وستظل لندة غضّة ومتمردة الجسد.

أما خضرة الشهيدة فقد كنت خبّأت جسدها في القلب، يُشعل لي سِكّة الشهوات، أبداً، بنارٍ متجددة لا تنطفىء والروح مشتتة بالشوق العقيم.

إلامَ آلت نصف دقيقة؟ إلام آل نصف قرن من الزمن؟
هل يمّحِي أثر الشهوة؟
هل يمّحِي أثر المحبة؟

٣ - حميدة البرصا

ساعة الظهر في الطرّانة هي ساعة الوحشة.
يقولون إن العفاريت تطلع في عزّ الظهر.

أما نحن، عيال الطرّانة، الصبيان والبنات، فإننا لا نخشى طلوع العفاريت بل لعلنا نستحثّها، ونرجو، بشقاوة مفهومة ومطلوبة، أن نستفزّها ونرغمها - حتى - على الطلوع، بالتحدي الصبياني المألوف. طَبْ اطلعوا لنا كده.. ما تطلعوا بَجى.. آدي الجمل وآدي الجمّال..!

فهل كنا حقاً بهذه الشجاعة، والعفرتة، في ليل الطرّانة العتيم؟

في ساعة الظهر كان لقاء الخليل ابراهيم مع الملاكين ووعد الرب بأن يولَد لسارة ابنٌ بِكر في شيخوختها.

في ساعة الظهر التقى يسوع المسيح، في نوره الصاعق، بشاؤول الطرسوسيّ الذي أصبح رسول المسيحية إلى روما المجيدة، قيصر كنيستها وواضع شريعتها.

في ساعة الظهر أيضاً كان لقاء يسوع بالمرأة السامرية عند بئر الماء. لا يعطش أبداً من شرب من هذا الماء. أيّان مِنّي رِيّ العطش؟

في ساعة الظهر رُفع على الصليب ودُقت المسامير على الخشبة من خلال عظام يديه، من أجل خلاص البشر. أيّان الخلاص؟

وفي ساعة الظهر كان المعلم شنودة البقال عائداً إلى بيته الذي

يطل على الجُرن الوسيع في سُرّة البلدة، تُظلّه شجرة جميز عريقة عريضة الجذع.

قال إنه رأى في عرض النيل شيئاً طافياً. كانت منتفخة البطن، مقلوبة على وجهها، افترشت الماءَ طرحتها وقد اسودَّ لونها، نصف مغمورة تحت سطح الموج، وتتقلّب، قال إنه رأى ما يشبه نجمة ذهبية تومض في الشمس، مشعّة ونفاذة، قال ثم دفعها التيار المُدوِّم المضطرب إلى ناحية كفر داود، النجمة الذهبية كانت تصاحب ذلك الشيء السابح في التيار نحو الشمال، قال حلفت برب المجد أنها كانت حميدة البرصا، قال اللهم اخز الشيطان، وصَلُبَ، ومجَّدَ المسيح. والنجمة الذهبية تتألّق، تزداد سطوعاً في عز الظهر في قلب السماء. قال إنّه لم يكن يريد، حتى، أن يقول. هبّت عليه لفحة من نتن الجثة الذي لا مثيل لدسامته وقوة ضربته، قال لم أستطع أن أتحرك، حتى اختفت.

هأنذا في المنتصف؛ إلى جانب مني، هناك الشطر البارد المظلم المتحجّر القاسي؛ وإلى الجانب الآخر، الشطر الملتهب المنصهر المتألق. اللهم اجعلني وقوداً للشطر المحترق، اللهم اجعلني هشيماً للنصف المشتعل. اللهب، اللهب، أريد بقاءً ساطعاً في اللهب.

لا.

بل أريد الظلام. يفتنني. أريد نشواته وخفاءه. أحب مخاتلته وخداعه. كأنما بي لهفة لمفازعه، وهواجسه، وتوجساته، أحلامه وكوابيسه الرازحة.

الحارة السدّ التي توصل من بيت خالتي روزة وخالتي سالومة، إلى بيت عمي أرسانيوس الملاصق لبيتنا، تحت النبقة الضخمة العتيقة.

مقفلة مهجورة، في عزّ الظهر.

حَرّ اغسطس يملؤها بسكونٍ وثقل.

ليس ثم صوت في هذه الظهيرة الخانقة إلا أزيز ذبابة كبيرة زرقاء، عنيدة، مستميتة، وصوت تهشّم ورق الشجر الجاف المصفرّ تحت قدميّ.

لماذا أجد نفسي في هذا المعبر المغلق الذي لا ينتهي إلى مآل؟ لا يجتاز إلى شيء؟ في هذه الساعة النصفية السخنة التي لا تنتهي، والتراب.

هذه المحرقة، هذا الانصهار، على باب الجحيم الزائف المرسوم على حائط مصمت، لا يفتح ـ حتى ـ على هاوية النار بل يحترق فقط بلظاها، دون نفاذٍ إليها ولا تَرَدٍّ فيها.

الصمت المُحيق يقطعه فجأة نباحُ كلب غير مرئيّ، صوت طويل من غير أمل.

كأنه خائف.

كأنه معذّب بالحرّ، والوحشة.

كيف يمكن أن تُغْمَر الوحشة في حُمَيّا الجسد؟

هل هذا ينفيها، يلغيها، يغرقها؟

أبداً؟

أين حرّ الظهر اللاهب من نور عينيك الأخضر الساري في الروح بلا انتهاء؟

يا حبيبتي - هل أنت قد وُجدتِ قط؟ - أين أنتِ الآن؟ أم أين أنا؟ هل حقاً ضربت أيدي الليالي بيننا؟ أم أن حبنا - حبي - أقوى من أمواج الليالي؟

يا لضرب الرومانسية الساذجة التي لا برء منها في صميم عظامي.

رأيت حميدة البرصا - فجأة - في آخر الحارة، تأتي إليّ - تعرج قليلاً في مشيتها البطيئة.

من أين أتت؟ الحارة عندها سدّ. من أين خرجتْ إذن؟

كنت أراها أحياناً في بيت عمي أرسانيوس: خضرة قد نادتها إليها، هدّأت من روعها، ربتت على كتفها برفق - دون أن تقترب منها جداً - وأعطتها شيئاً من طبيخ - مما بقي بعد الغداء - ملوخيّة أو بامية أو رِجْلَه، وقطعة لحم عنيدة مشتبكة بالعظم والشَغَت، في طبق صفيح غويط، مخصوص، لا نأكل فيه، ورغيف بتّاوْ جافّ أو رغيفين.

سمعت خضرة تدعوها بحنان: خُدِي كُلِي ياختي، خُدِي بالهَنا والشفا، بالمداوة ياخْتي. يوه، ياترى ياهلترى أكلتِ إمتى ياغْبِنيٌ.

وسمعت ردّاً تداغمت فيه الأصوات، كأنما تموء كحيوان، كأنما الحنوّ ضَرْبَة، كأنما فقدتْ القدرة على الكلام من زمان. لكنه كان صوتاً إنسانياً جداً، ليس حيواناً ذلك الذي يموء من العرفان والجوع.

اقشعرّ جسدي. ونسيته على الفور.

تنتحي حميدة البرصا جنب الباب من جُوَّه، بمنأى عن كلاب الحارة، وقطط القرية النهمة، وبأصابعها متآكلة الأطراف تغمس البتّاوْ في الطبيخ، وتدفعه بسرعة ولهفة إلى الفم المشقوق، شفتاها المتقرّحتان المتورّمتان، لا تكادان تنضمّان على اللقمة التي أراها تبتلعها دون مضغ تقريباً، ترتفع لها تفاحة آدم الواضحة في عنقها، طرحتها السوداء قد تهدلت حوله، وعيناها تدوران في شغف الجوع، ولذة الإشباع، والخوف من المفاجأة.

متى أكلتْ آخر مرة؟ وماذا أكلتْ؟

أحذفُ وجودَها وأنفيه عني.

كما كان أهل الطرّانة كلهم يلغون حضورها، لا يرونها، أصلاً، ليست هناك.

البُقَع الفاتحة في جلد وجهها ويديها، أنصاف أصابعها البتراء الغليظة، العُقَد الباهتة المتورّمة في خديّها وشفتيها. كانت هي التي تلغيني، تحذف صباي، وتقول لي من غير صوت: لا.

لم تكن تخرج من مأواها. مَنْ يعرف اين تبيت؟ إلام تأوي؟ في زريبة مَنْ؟ تحت أرجل جاموسة مَنْ؟

على أول المساء تتلصص منسربة، ملتصقة بالحيطان المبنية من الطوب النيء والقش وأعواد الذرة الجافّة، تخفي وجهها بطرحتها السوداء التي تبدو معفرة بالتراب، مغبرة رمادية الأطراف.

خضرة قالت إن حميدة البرصا ـ ياوِلْدَاه ـ لم تكن تغسل طَرْحتها أو

هِدْمتها إلا بعد غروب الشمس، تختار مَنْزَلاً وعراً ومتحدّراً للترعة، بعيداً عن المساقي جاريةِ المياه التي تُملأ منها البلاليص أو تَنزل إليها الطيور وتغتسل فيها البقر والجاموس، بعيداً عن مواقع غسيل الهدوم والمواعين التي تختارها وتكرّسها بنات الطرّانة ونسوانها، يثرثرن ويضحكن ويتغامزن على الرايح والجايّ، ويشتغلن بجدّ، أفخاذهن سمراء مكشوفة ولامعة من ندى الماء المتنثر، عارية دون حسٍ بالذنب.

بعد عودتنا من وادي النطرون، وانتهائنا من ترحيلة إعادة رصف شقّة من الطريق الصحراوي ـ وقد أخذ خالي ناثان عهدتها من المقاول الكبير الذي لم أعرف اسمه قطّ ـ كنّا أمام دكانة المعلّم شنودة البقّال، في أول الليل. أنا وخالي ناثان، وأسعد أفندي ابن أخت عمي سلوانس الصراف. أخرج لنا شنودة مقعدين خشب مدورين، دون ظهر، عملهما له خالي سوريال عندما جاء إلى هنا أوّل الصيف، وجلس هو على حَجَرة بيضاء كبيرة، أما كرسي الخيزران فقد عزم وحلف على خالي ناثان ليأخذه.

كنا نواجه الدكان، في الحارة الضيقة، ووراءنا حائط سدّ طويل متلّوٍ ليس فيه منفذ، حائط بيت الشيخ علوان، صاحب كُتّاب القرية وإمام مسجدها ومقرئها. وكان يحجز أهل بيته عن عيون القرية ويمنعهم زيارة أهلها، نصارى ومسلمين على السواء، يحوّط على كنز هشٍ سريع الاشتعال.

كان بيته في الجانب البَحري من الطرّانة الذي يسكنه كل أقباط البلد تقريباً، فيما عدا بيتين أو ثلاثة.

أما الكنيسة فقد كانت في الجانب القِبْلي، في وسط بيوت المسلمين وأمام السراية.

الجرن المدور الفسيح يربط بين شقَّيْ البلد.

جامع القرية كان أيضاً في طرفها القِبْلي، يطلّ على الغيطان من ناحية، وعلى النيل من ناحية أخرى، والطلمبة الوحيدة في القرية كانت في حوش الجامع، تمدّ الميضة بمائها الرائق الذي كان يصعب قليلاً ترغيته بالصابون.

وكنتَ تأتي إلى الجامع بعد أن تترك دوّار الشيخ عيسى وتعريشة الخشب التي تتعلق بها العنبة العجفاء الناحلة على مصطبته العريضة، وبعد أن تدور حول سور السراية الكبيرة المرشوق بالزجاج المكسور وشقافة القُلَل والزِلَع، طالعاً من ماء النيل مباشرة من الناحية الأخرى، والسراية لا يقيم فيها إلا الخواجا أبو أنيس ـ البقية الباقية من عائلة داود ـ وخادمه العجوز حمدان. هو أيضاً لا يزور ولا يُلمّ به أحد، لا يفتح الباب الخشبيّ العريض لأحد، بعد أن جاء ابنه الذي كان طالباً بمدرسة الطب العليا في القصر العيني في المسامحة الصيفية التي فاتت، وجاء معه برقّاصة من مصر قال إنها زميلته في الكلّية، فلما عاد أبو أنيس من دمنهور، طرد ابنه من السراية، واستبقى البنت، وأطلق أنيس على نفسه الرصاص؛ وظلت السراية خاوية على عروشها. لم يكن الشيخ يسمع في عزلته إلا صوت طلقة نار.

وبعد السراية تأتي إلى قبّة الشيخ أبو طاقيّة. خضراء، منخفضة، وحدها على طرف جسر النيل المرتفع، ولها شبّاك حديديّ نرى منه

النعش المكسوّ بحرير أخضر ناصل. الشيخ علوان يوقد المبخرة في صلاة الجمعة، ويتبرّك به الناس.

أما طرف القرية البَحْري فقد كان آخر بيت فيه، يطلّ على الغيطان، جنب الساقية القديمة المهجورة، هو بيت الست حنينة. تعيش فيه وحدها، بعد أن مات عنها زوجها عمي ميساك البنهاوي، لا يعرف لها أحدٌ أصلاً ولا فصلاً، سيرتها على كل لسان، وكلها غزّ وتنخيس.

عزم عليّ المعلم شنودة بكأس عَرَقي، سقسقه بالماء فابيضّ وكثُف قوامه، زيتياً، كاللبن الحليب، وفاحت منه رائحة الينسون النفاذة، وحتني خالي ناشان أن آخذه، من غير كسوف خُد يابني صَهْلِل ياما عمّك شنودة جَرْبع خمسينيّات كونياك أُوتَار معتبرَ من جدّك وياما أكل زَفَر مزغّط من إيد ستّك يالله ياعم حد واخد منها حاجة إن شا الله ماحدّ حوّش إلى آخره إلى آخره. وضحك أسعد أفندي بصفاء وصعد العَرَقي قليلاً - كالعادة - إلى رأسي وأحدّ بصري وتيقظ حسي وتوتر جسدي.

عندما خرج إلينا من الغور، وفي يده رُبْع العَرَقي، كان لخطواته الثقيلة صدى في الفراغ، وسط الدكان.

الرفوف حوله، في عتمة خفيفة، عليها علب الدخان والسجاير معدن كوتاريللي بالقاروصة، وبالعلبة، وفَرْط، وشاي التموين في باكوات ورق مسطحة صَفْطَانَه صغيرة حمراء، وعلب أخرى مستطيلة ومكعّبة وطريّة الشكل، وعلى الرف العلوي أقماع السكّر الكاملة في

غلافها الورق الأزرق، أما الكَسْر منها فجنب البنك يضربها المعلم شنودة بسنجة الوِقّة المضلّعة فتنبثق منها شرارات حمراء متطايرة من قوة صدمة الحديد بصلابة السكر ناصع البياض. تحتها باكوات الملح في عبوات ورق رمادي مرسوم عليه أبو الهول. جنبها زجاجات الزيت الفرنساوي تراكَمَ التراب من الخارج على دَسَم زجاجها، وأقراص اللوف الخشن الملتفّ على نفسه. ومن الناحية الأخرى مكعّبات صابون النابلسي فاروق الصفراء الجافة اسودّتْ قليلاً من الأضلاع الخارجية. أما صفائح الجاز فكانت بجانب الباب، بعيد متناولها ورائحتها عن سائر البضاعة. لم تكن الرفوف الخشب الخام عامرة. لمبة جاز نمرة خمسة مِدَخّمِسة في خواء وسط الدكان. على الأرض المتربة أكوام عالية من قوالح الذرة وشوالات الغلّة والشعير والحلبة، والعيش البتّاو الناشف في مقطف كبير. صفوف البيض الطازة مرصوصة في قفص معمول من جريد النخيل، هذه عُمْلة أهل البلدة، بنك البلدة، ياما قايضت كوز الجاز - بالكوبون - بكوز الذرة، لستي أماليا، وحُقّ الدخان أبو غزالة بثلاث بيضات لجدي ساويرس. وعندما يخرج المعلم شنودة من الدكّانة يرفع البنك الخشب ويتركه يسقط على دعامتيه بخبطة قوية.

قَدَّرْتَ لي سبيلاً على الأرض، ليتني أتألق في جوهرك.

يا أم الإله، يا ذات الأسماء التي لا تُحصى، يا موئلي، لا أعرفك أيتها الغريبة، أنكرك. أنتِ فيَّ، كلَّ لحظة. تعاساتي لا نهاية لها يا سيدة القُرَى المولودة ناضجةً كاملة في القوقعة نيمفيّة البحر الكبير إيزه عشتار مريم رامة اشفعي لي، بحقّ الأنّات التي لا يُنطق بها. دفنتُ

وجهي في ظلامكِ الذي يسطع بنورٍ أكثر تـألقاً من كـل أنوار الأرض والسماء.

نور معموديّتي الثـانية مـوسيقى الأمواج تصـدر عن جدران المقـبرة تحت شجرة الدُوم، القردُ القدسيّ لا أراه أعـرف أنه جـاثم بلا حـراك بين سَعَفِها الدائري المجدول، صلاةُ تطهير للآثام الثقيلة ماضيةً وآتيـة، بزوغُ القمر الوليد.

وفي حموة العَرَقي الخفيفـة كان حضـورها الـذي يمر أمـامنا، قـوياً وكأنّه تهديد، تحت حائط الشيخ علوان الرماديّ القاتم، في طراوة غبشـة أوّل الليل، تميل على رِجْلها وهي تنسرب حافية، قدماها المتربتان نصف أصابعهما قد تآكل وسقط، غلظت جذوعها الباقية وتكوّرت، عينـاها وحـدهما نقيّتـان متألقتـان بنارٍ داخليـة ليس فيهـا غضب ولا مـرارة، أمواج شعرها الناعم المنسـدل، مـرحاً ممـداً بعنايـة، تحت الطرحـة المغبرة باهتة السواد، مفروشة على ظهرها.

طريّاً ودافئـاً، مع أنـه مطمـور في الرمـل منذ أكـثر من ألف عام. المجد لك يا يسوع قال المعلم شنودة، كنت هناك وأنا صغير، مع أبي الله يرحمه ويقدّس روحه، عندما رفعوه، قال نضح الجثمان فجأة بالدم وسال الدم على الأكفان الملفوفة حوله، كتّان أصفر كأنه الحرير، وكأن جراح الاستشهاد مفتوحة مازالت، تنزف، قال، تحلّلتْ رقائق الزنك التي تحيط بصنـدوقـه، وتفتّت خشب الصنـدوق بمجـرد أن رُفـع في الهـواء، واستحال مسحـوقاً من رمـاد باهت، ولكن بقيت عـلامـات الصليب المـرسومـة على لفـائف الكتّـان لم يمسسهـا البـلى ولا أصـاب فتـائلها عـطب، قال، كـل الدفـائن حولـه سقـطتْ عِـظامـاً مفككـة

متناثرة، وبقي جثمان الشهيد سليماً يضيء وجههُ المكشوف بنور ليس من هذه الأرض، كأن الروح لم تفارقه بعد، قال، رأيته عندما أخرجوه، وقبل أن يودعوه صندوقه الجديد المعمول من خشب الجوز الثمين، سِرّاً، دون أن تعرف الحكومة، صلّوا عليه صلاة الشهيد، مساء، على نور الشمع الكبير، وكانت الكنيسة محتشدة بالناس، لا ينِدّ عنهم صوت، والقداس السِرِي في عنفوان تقلّبه، رأيته، قال، قويُّ البنيان مازال، ممتلئاً بالنعمة، مهيباً، على قسماته آثار الآلام التي لا توصف، تجاوَزَها وعبر إلى المسيح، صَفَتْ ملامحه، ورافت، نال إكليل الشهادة، قال.

عثروا تحت بوبيللو على جثمان القديس بساده، محتفظاً بكيانه، قال.

قلت لكِ: أحتاجُ إلى الشجر، والناس، والسماء ذات الموج الساجي، والنوارس المنطلقة الصارخة على غَمْر البحر، لكي أعرف الحرية، لكي أخلص من ثقل الدهور بكل مجده وأكاليله.

ليست حرّيتي محبوسة داخليّة مقطوعة عن جسد العالم، عن تجلّيات جسد الله. آخذ قرباني في نور الشمس الفسيح في سطوع ليلٍ لانهائيّ الأفق.

لا. لم أقل لكِ ذلك

لم أقله

لا أقوله

ألا ينتهي القِيل والقال؟ عددتُ صياحَ الديك، مرتين، فقط أظلُّ أنتظر الثالثة.

هل أبحثُ عن جسد العالم، عن تجلّيات جسد الله، في جسدك وعجينته؟

أم أبحثُ عن جسدك تحت بَشَرة السماء الناعمة، في عَضَل الشجر، وفي زهوره الصفراء الساقطة في تراب الطريق؟

قال كان جسده أبيض اللون، نضراً، قال، وأبونا أندراوس سكب عليه قنينة عطر جديدة غالية، اِسْوَدَّ الجسد على الفور، كله، ولكنه ظل على لدونةِ أعضائه وطراوتها. وبقيت في الوجه المُسْوَدّ المنير، آثارُ كدمات قاتمة، جرّوه على الأرض أثناء تعذيبه، جلدوه، وجذبوه على وجهه من فوق سلّم قصر الوالي وأركبوه بالمقلوب، دامياً مرضوضاً، على جاموسة، وطافوا به شوارع المدينة.

عصبوا عينيه طوال المدة في طُرة، في أبو زعبل، وضعوا الأسلاك المكهربة في ذَكَره وحول خصيتيه وعلى حلمتيْ صدره، كسروا أسنانه بلكمات قوية، أوقفوه في الماء البارد عارياً، وعلّقوه من قدميه حتى فقد الوعي، وقالوا اعترف.. اعترف.

في بكين وبرلين، في روما وقرطاجنة، في لورنزو ماركيز وبيونيس ايريس، في دمشق وبغداد، في سيول وهانوي، كلّهم سواء.

الكدمات والتشويهات قد نعمت بالشهادة وكأنها وَسَامة مُضَافة، كانت الذراعان منزوعتين عن عظام الكتفين، وآثار القطران المغليّ المسكوب على رأسه تاج من الشوك. حروق في الجسم على هيئة سيور غير منتظمة، والكلّابات الحديد غُرست في لحمه وعظمه غرساً، تَرَكتْ فتحات غائرة، ثقوب هلب مَرْكب حادّ الأسنان، في الصدر، ثلاثة أقانيم العذاب والاستشهاد.

الشهداء بلا اسم ولا عدد. بلا مجد ولا نُصُب.

صفوفهم تتوالى، تسقط، ترتفع بلا انقطاع، بلا انقطاع.

في وحدتي - وأنا مع نفسي - أجد نفسي دائماً تُسْدِي لك الحنانَ والشوق، من بعيد، من غير زمن، وأنا أعرف أن هذا الحنان لن يصلك أبداً. أعرف أنه يسقط سُدى مهدراً في وحشة الغربة المضروبة بيننا. هل الحب، والشوق، دائماً يضيع سُدى؟ والعذاب؟ لا أعرف. هل ترسلين إليَّ - أنتِ - مثل هذا الحب، هذا الشوق هذا الحنوّ؟ لا يصلني منك شيء إلا الصمت. ولا منهم، ولا من أحد.

هواجس اللامبالاة القديمة، وإرادة القطع، والخلوص.

الخلوص من الاضطراب والتشكيك والتشعّث.

ورغبة - لك الحقّ فيها؟ - في التطهّر من المرارة التي تتكثّف من صمتي وانقطاعي الذي هو علاقتنا دائماً، عندما لا نكون معاً، وأحياناً عندما نكون معاً، أيضاً.

هل يمكن تنقية المرارة بأقراص يبيعها الصيدلي، كحبّات الاسبرين؟

حريتي ليست فقط داخلية.

وبصوته المبحوح الخشن الذي يخرج عبر بلغم المعسّل وكُريات الأفيون الدقيقة المعجونة، مدفونة تحت اللسان، وهو يحدّق بقِصَرِ نظرٍ واضح، عبر غبشة أول الليل، بعينيه الجاحظتين قليلاً. وجهه، مدوراً لحياً تنقشه خروم رفيعة كنَغْز الإبَر من أثر جدري قديم، يمتدّ، في حركةِ تحديقِه النظر إلى الأمام، على عنقٍ متين قصير، كان المعلم

شنودة يحكي ـ دون حرج ـ حكاية كريمة بنت الشيخ علوان، جاره الذي لا يفتح بابه لأحد.

كانت كريمة تلمّ صفحات قديمة من «الأهرام» التي بقرأها أبوها، بايتة، بعد أن يفرغ منها عمدتنا عباس عيسوي، وبعد أن يأخذها أهل بيته، يساعدون بها على وَقِيد الكوانين والفرن، ثم يرمونها على جنب، تحملها حميدة البرصا إلى كريمة. وحدها حميدة البرصا تدخل البيوت دون إذن، ما كان لأحدٍ أن يسألها أو يقترب منها. البَرَص كان حصنها الواقي المنيع، سورٌ حولها يحيطها بأمانٍ خاصٍ بها وحدها. وكريمة تقطع بالمقص كلمة «محمد» بالبنط الكبير والصغير سواء، وتختار قصاصات من كتاب بالصور عنوانه «رسائل غرام جديدة» للأستاذ سليم عبد الأحد، تسوّيها وتلصقها، بصمغ تصنعه من قشر شجرة السنط في حوش بيتهم، على ورق كراريس كنظام وزارة المعارف العمومية، وتبعثها، مع حميدة البرصا، مراسيل غرام إلى الواد محمد ابن شيخ البلد، تدسها في نسخٍ قديمة منزوعة الغلاف، اصفَرَّ ورقها وبليت أركانه، من روايات الجيب أو روايات المطبعة العصرية لصاحبها إلياس أنطون إلياس من ترجمة المرحوم طانيوس عبده. قال تعلمتْ الكتابة، قال تعلمتْ الكتابة والقِراية، في المدرسة الأولية في كفر داود عندما كانت عند أمها التي طلّقها الشيخ علوان بعد أن شاعت عنها وذاعت حكايات ـ غير مؤكدة مع ذلك ـ عن ذهابها في المغارب ـ من زمان ـ وراء الطاحونة وما يحدث هناك في دِرا الحلفا والهيش، بين النسوان وبين ولاد البلد العايقين الفسدانين.

غارت الأرض الطينية تحت قدميه، انزلقت رجلاه في وحل لَيِّن

مرحِّب طريّ الملمس يجذبه بتوقٍ لا يُردّ. هل كانت المياه أمواج غضب أم رقرقات اختناق الحلم طعم الملح في عينيه المفتوحتين ضرباتها رقيقة لكن قاسية صدره يدرّ بالحنو الموجع وهي بين يديه يدفع برأسها في العنصر الغريب غير المُعادي وتطاوعه. ارتفعت المياه دون أن يتطاير لها رشاش حتى وصلت إلى ركبتيه يضغط على العظم المدّور المضلّع النحيل وجهها الشائه المضروب قناع نحاس سطحه حارّ في البلل انحسرت كل عوراته عنه فجأة في هذا التموّج الخفيف الريش الأسود الحريريّ يغطي يديه ويثيره فينتصب فجأة ولكنه لا يقذف طرحتها السوداء مفروشة في الماء تطفو تحت سقف الموجِ بقليل لا ترتفع إلى سطحه ولا تغوص لها حياة خاصة تتقلّب استكنْتْ بين ذراعيه وهي ماتزال تتفلّت وتموء قليلاً مواءها المحِبّ الشاكي العارف بالجميل أيضعها تحت الماء بيديه العاريتين؟ قلبه يصرخ صرخة واحدة بإزاء الجسد المنساب ويثوخ في عمقٍ ساكن مظلم لحظة الاندماج الحميم مع هذا الكيان الناعم الذي لا اسم له.

سِتّ الخَماسين بِتّ غيوم الطرّانة الشتويّة سُحُبُها القاتمة تلقي ظلالاً متموّجة تعابين الماء وَرْدتي السوداء شوكتها في شفتي جرحها مفتوح لا يرمّ قلت لن أضمّده أدع الدم ينزّ حتى مجيء الصبح الذي لا إيذان له بمجيء جاريةِ حابي المبذولة طوعاً أو عسراً المومس التي لم يمسسها بشر خصيانكِ يبخّرونك بالصندل والعنبر والطيوب من وراء حِجارة بوبيللو عبق البخور الحرّيف فيه نتن جذّاب يطوّق عنقكِ تطير جبال البخور ودخان المحارق سُحُباً مهدَرة قلت حِجارة فوق حجارة؟ إلى متى تظل ترتفع الأنقاض؟ يمامة مقصوصة الجناح ومحلّقة

لا تسقط الكبش النطّاح يطاردكِ بلا هوادة يضربكِ بقرنين لا تنكسر حفافيها المدبّبة الجاموسة تمتلىء ضروعها باللبن المشكوك فيه قوامكِ الإلهيّ مضروب بالعَوّار صفحة الماء تطفو عليها أوراق البطيخ العريضة أعواد الذرة الناشفة تنْقلب وتدور في حلقات حاشيتكِ غير المنظورة أوقات النعماء والنكبات كل الرباطات مفكوكة وكل الأنشوطات محلولة العُقَد نوّار البرتقال فيه بُشرى لَعِب الغرام على المصاطب المظلمة نداء نيران الحطب في الأفران والكوانين.

من بعيد تتردد في الأفق صفّارة الاكسبريس الطوّالي كأنما تمتصّ الغيطان قوّتها ويقول جدي ساويرس دون أن يخطىء قولها ولا مرّة: الساعة حداشر ونُص ياوْلاد كمان ساعة كده عريان أفندي البوسطجي حيوصل حَدَانا ويطلب شربة مَيّة من البنت خضرة.

رأيت حميدة البرصا تأتي إليّ، في عِزّ الظهر. من أين أتتْ؟ الحارة عندها سَدّ مقفلة لا منفذ لها. من أين خرجتْ فجأة؟

اتجهتْ إليّ مباشرة، بلا حِوَل. عيناها المتقدتان في عينيّ مباشرة. أعرفها كما يعرف المرء ذات نفسه.

وحدنا، ليس في العالم إلا أنا وهي، في ساعة الظهر الموحشة الصامتة.

التقى جسمانا بقوةِ صدمة.

احتضنُها بلهفة، بكل ما في روحي من نجدة. لا أرى أنفها الأفطس المتآكل، وفمها المتورم باهت البياض. طويتها في حضني، تغمرني رائحتها النفّاذة الحرّيفة. كنا شيئاً واحداً، جسماً لا شقّ فيه، لحظةَ بذْل نهائيٍ وتماسكٍ لا ينفكّ.

نفرتْ مني في الأوّل، خطفةً برق. ثم أقبلتْ. رجفة الجسم فقط في إيماءةِ نَأْيٍ لا تكاد تُحَس، ورعشة الالتصاق. تشبّثتْ. كنت قد اندفعت إليها في طلْقةِ حافزٍ لا يقاوَم ثم تماسكتُ وتجلدتْ نسيتُ كل شيء.

قبلة تماسٍّ أقصى لا انفصال له. الشفتان المشقوقتان المتضامتان بصعوبة جِلدهما الجافّ أحسه عذباً في عمليةِ صَلْبٍ لا ينتهي.

لم تُغمض عينيها المشتعلتين بنار صفراء مخضرّة. ليس فيهما مرارة ولا غضب ولا طلب للنجدة. وليس فيهما انتصار. أرى عمق نفسي في هاتين العينين.

دهشت ـ كأنني في غيبوبةٍ من نوع ما ـ رأيت في أذنيها الدقيقتين قرطاً صغيراً، نجمة ذهبية وَمَضتْ في الشمس ثم خَبَت. قامتها في حضني، مفاجئة طازجة مطواعاً، أحسست أنها لا تلبس شيئاً تحت الجلّابية السوداء الباهتة، لحمها غضّ طريّ وبِكر، شعرت بهما نهدين قويين على صدري، صلبين تقريباً. وعرفت، دفعة واحدة، قطيعةً كاملةً مع العالم، توحداً كاملاً بهذا الجسم الحارّ.

ثم انفصلنا، دون صوت.

قلتُ القناع. أي إثم يعاقب عليه المرء إذ يُفرَض عليه قناع الجسم.

القناع مخزٍ، حِجارة منقوضة.

قالت: قامتك أطول منهم جميعاً.

قالت؛ لا لم تكن هي التي قالت: كل هذه الرومانتيكية عندك؟ أكبر منك بكثير.

كأن القناع الشائه لم يكن قط.

قلتُ: ذلك لا يعني شيئاً، أيَّ شيء. لا يُثبت ولا ينفي شيئاً.

قلتُ: هل أصبحتِ في عداد الآلهة؟

لن أقدم إذن قرباني. أنبني.

في كلِ عام يرفع حابي بين يديه نهديك الصغيرين، ناعمين، ثمرتين غضّتين.

يهديك النيل ماءه الطهور. تلوَّثَ الآن بعوادم المصانع والمخلّفات الكيمياثية والفضلات الحيوانية.

أما زهر النرجس النقيّ فقد زيّنتِ به شعرك المنسدل، زيت الزيتون قد مسّدتِه به، وعسل النحل ولبن الجاموسة. وفي الصيف خمر العنب الصافية.

أنوثتك المخفيّة وذكورتك المُضمَرة أُقنومان لا ينفصلان في جوهر عشقك المشتعل داخل جوهر كأس الكونياك الأصهب الذي لا أنتهي من شُربه مع المعشوق لا يفيض ولا يمتلىء قط دقّات الطبلة الصغيرة وشوشة الطار في أفراح لم تبدأ هل تستلفين مذاقها؟ مرميّة بالسهم والقوس حطام رأسكِ مغمورة في جرن معموديّةٍ لا نضوب لها جُرن الطرّانة الذي نشف ماؤه النيليّ الآن واندثرت ذكراه صرخات انتصار الحب هتفات قذف العاشق بالمنيّ المهدور رقّة الريحان ورمليّة العِتْر البلدي معاً مكنونةٌ كلها تحت الشّوْءِ والعطَب على حافة الصحراء

الغربيّة في حمى بوبيللو منبسطة بلا نهاية ولدك العتيق الذي لم يأتِ قط، أدونيسكِ حوركِ يسوعك چيڤاراكِ كلهم، مصروعون كلّهم، لم يزدهرْ حتى التفتّق النهائي ولم يذْوِ قط.

أصبحتِ في عداد الآلهة: لن أقدّم إذن قرباني وأنيني.

عروس البحر الدفينة تحت القناع الشائه قد شيّدت دخيلتي لك داراً ومأوى قائماً لا ينقض ولا ينهدم. قناع مقتحم ماذا وراءه؟

قشرة هشّة. القناع، وما وراءه، يصبحان واحداً. واحداً، هما الحاصل الواحد، دون ازدواج أليس كذلك؟

أحسه صرحاً شامخاً وأعرف أنه شيء قميء، أهو محراب، محراب تقديس أم موطن خطيئة أم هو لا ذاك ولا هذا بل مثوى كابوسٍ مبتذَل ولعلّه تافه في ساطعِ الظهيرة في حارة سدّ وفي قريةٍ رثّة قد دالت قد راحت قد انقَضَتْ.

هذا التفجّع له رنّة الحكمة والعمق والشعر وكأنما ملؤه خبرة السنين. أقول لنفسي، طبعاً: يَاه؟ أتظن ذلك؟ يا سلام! لكنه في آخر الأمر كوميدي قليلاً وشائع وسوقيّ ومكرور حتى آخر الملل، أليس كذلك؟

حَطَب الشِعْر هشّ وجافّ ولا يصلح حتى للوقيد.

شِبَاك الكلمات مخرومة، لا تحجز شيئاً. يسقط السمك عائداً للبحر ميّتاً. ليس عندي شَبَك. الشَبَك هو نفسه السَمَك.

قوقعة ضيّقة الفوهة، مجوّفة، مدوّرة ناعمة البطن، تطنّ بوشيشٍ غير مقروءٍ ولا مُؤَوّل.

٤ ـ نافذة علويّة زرقاء الزجاج

هـذه الحياة تبـدو جميلة هادئـة في إحـدى لحـظات الـرقـة، والمـرء يستيقظ من غفوة الظهر فيجد سماء الأصيل واسعـة رصينة في زرقتهـا الناعمة والريح تهبّ منها على الروح، والشمس دافئة ليست حارّة ولا رازحة، والأطفال يلعبون ويصرخون في الشارع المزدحم.

والمرء حين يجد هذه السماء الناعمة والطيور السريعة ترتفع فيهـا، وتذهب مائلة منخفضة فوق البيوت المشمسـة، ويجد أن هذا العالم كله لا يساوي شيئاً إلا جمالَ لحظة، حنوّ هبوب الـريح الصغـيرة، رفرفـة الطيور، ضجّة المدينة السابحة في شمس العصر، عندئـذ يحس المرء، لحظة، بالسلام يمر بقلبـه، يوحي إليـه بوداعـة هادئـة في استسلامهـا وقبولها للمأساة ـ من غـير رضى بها ـ وفي أسىً لا ثـورة فيه الآن، ولا دموع، لا سخريـة ولا صخَب، بل صمت كـالذي يـأتي في موسيقى جميلة.

كم أريـد أن أجد، في طـريقي، أكثر قليـلاً من هذه اللحـظات، الهدوء الذي يتقبل الجمال في السـماء ويتقبل صمت الـوحدة لا غضب فيه، لا يَشقى من معنى المأسـاة ولا ممّا يتقلّب من الضيق بحيـاة الآلاف والملايين يعيشـون في تراب الحيـاة المدقـع؛ ولا تنحـرف به امتدادات ناهشة طفيلية من الهواجس والأفكار.

لكنها قليلة هذه اللحظات.

من خمس سنوات أو سـتّ كنت أذهب كل عصـريّـة إلى الجـزيـرة

الرمليّة المنسية في النيل، يطفو كل سنة ثم يغرقها الفيضـان، وينحسر عنهـا. أنام عـلى الرملة بعـد الغروب، عينـاي معلّقتان بهـذه السـماء الـزرقاء نفسهـا عميقـة بـزرقـة الغسق. أحلم بحب عـظيم وأُسميـه نبيـلاً، بصداقـات راسخة تتحـدى صروف الزمن، بـأعمال شـاهقة، بروج أحلام. لم أكن عندئذ أعرف السلام.. أو أظن ذلـك. لم أكن أعرف معنى أن يتقبل المرء المأسـاة. هل أعـرفه الآن؟ كنت فيـها أذكر أنزوي في ركن مظلم - في الغرفة المقفلة في بيت جدّي ساويـرس، أو في ناحية معتمة من الروح، سـواء - وكنت أبكي كطفـل يتمزق قلبـه بضربات عاصفة وجامحة. ألم أكن - ألم أزل - هذا الـطفل؟ أبكي لأن رحمة، أو لندة، (هل كنت أعرف أيّتهما، أنا؟ كنت أعتقد أنني أحبها، أما زلت أعتقد أنّني أحبّ أيّتهما، كلتيهما؟) لم تكن رقيقةً إليّ، ولم تكن تعـرفني. (طلبي الحنو والمعـرفة لا ينقضي، لـلأسف.) ولأن أحداً في الوجود لم يكن يعرف أسرار أحلامي، لأن أحـداً لم يكن يستطيـع أن يحب ضوء القمر كما أحبه، وأن ينصت إلى هـدير أمـواج النيل معي، وينصت معي أيضاً إلى الضجيج الذي يفور ويتقلّب في داخلي.

أو هكذا كنت أظن.

لكن البكاء حقيقي، ولاذع جداً.

في ظلمـة الدمـوع أعـرف في داخـلي أن الـوحشـة لا تـطاق. وأن الصمت جائح، لا ينتهي أبداً.

في العصر إذن كنت أترك الطّرّانة المترية الصغيرة نحو جزيرتي هذه الـرملية - كـأنها وجدت من أجـلي - في وقدة شمس العصر منـدفعاً لا أحتمل ركود البلد الحـار وإصرار صفّارة الطاحونة في رتابتهـا تصمت

وتصرخ في الفراغ، تصمت وتصرخ، تصمت وتصرخ باستمرار وعناد كأنما ركبها جنون في حرّ العصر، فيم يهمني أنا أن الناس كانت تطحن غلّتها وشعيرها وحِلْبتها وأن المعايش صعبة على كل حال؟

أفرّ، أجري تقريباً، إلى حضن النيل القديم، أعبر المخاضة الضحلة، أرفع ذيل الجلابية وأنا ماسك شبشبي بيدي، أحاذر أن أطبّ في نقرة غويطة وأن يبتل لباسي، وأتلمس موقع قدميّ عبر الماء الرقراق شديد الصفاء.

أتوه في الجزيرة الرملية التي ليس فيها أحد غيري، وليس فيها إلا زراعات بطيخ صيفي تنضج على مهل وحدها ويسحرني تأمل الحبّات الضخمة الخضراء قائمة تغوص في الرملة تقريباً مخفيَّة تحت الورق الزاحف العريض، اخترت واحدة (صغيرة) منها، مَرّةً، فقشتها بيدي، كانت هشّة المكسر، ونحتّها بأسناني وكانت نصف حلوة ولم تستوِ تماماً، ورميت القشر بعيداً بعزم ما فيّ، في أعمق جِتّة في النيل طُلتها.

أذرَع جزيرتي، تغوص قدماي الحافيتان في الرمل الأبيض ناعم الذرّات، ثمّ أجري خلف الطيور الزرقاء التي تطير منخفضة. ألاحقها، يخيّل إليّ أنها في متناول اليد ليس عليّ إلا أن أمدّ ذراعي فأقتنصها لكنها تفلت مني - ألا تفلت دائماً؟ - صورة طائرة في حلم، تندفع، ومضات خاطفة، زرقاء وجميلة، تنخفض كأنما تراودني عن قصد، أجري خلفها واثقاً كل الثقة الآن أنني لن أظفر بواحدة منها قطّ. أحبّ أن أجري خلفها فقط، أملأ عيني ونفسي بها، وبالسماء التي ترتفع

إليها الطيور الزرقـاء فجأة، وتهبط فيهـا بسرعة وصمت، نغمات حية زرقاء مرميّة من السماء.

فإذا شعرت بالإنهاك، وانخطف نَفَسي تمـاماً، ارتميت عـلى الرمـل الأبيض، وأخذت أحفر في الرمال بيدي، حتى تظهر المياه، تنـزّ طبقة كالغشاء فوق الرمل، بحيرات صغيرة من المياه الصـافية في فجـوات الـرمال، أقيم حـولها، بـطفولـة، سدوداً وجسـوراً، أردم البحيرات، أصنع غيرها، أحلم وقد أوشك المغرب أن يحلّ بي، ثمة أنوار صغيرة محمّرة تظهر من الطرّانة، عبر جسر النيل.

في تلك الأيام لم أكن أعرف معنى السلام.

هل أنا الآن أعرفه؟ هل عرفته قط؟

كنت مـلء نفسي أحلام صبيـانية في نبلهـا ـ سذاجتهـا، وأحـلام بشعـة قاسيـة، تنبثق من حـرارة النفس وحُمّيا الجسـد الـذي يضـرب شرنقة الطفولة ويخوض أولى موجات ذكورته.

الآن وهواء اسكندرية، في راغب باشا، يشتدّ قليلاً، السماء تعمق زرقتهـا التي لا مثيل لهـا، وينحدر النهـار نحو المغيب، لم أعـد أحس هـذا السلام إلا عـابراً، ضيفـاً يلقي تحيـة من عـلى الـطريق، ويمضي كالملائكـة الثـلاثة الذين زاروا ابـراهيم العجوز، أكلوا تحت خيمتـه، وبشّروه، ومضوا في طريقهم. كان من بينهم الرب.

في الظهر كنت راجعاً مع شفيق بسـطوروس وأحمد صـبري ووديع بـطرس. أحس بالثقـل القديم العنيـد يرزح في نفسي، ثقـل في كـل شيء لا يـدع شيئـاً إلا ركـوداً سـاقـطاً عـلى قلبي. وهم يضحكـون

ضحكـاتهم المقلوبة تلك، شهقـات الشقاء الـذي يـريـد أن يفـرّ من ذاته، زفرات تأكيد الذات تلتقط هواء حيـاتها من قلب زحمـة الحياة، تشهق وتضحك لأنها تجد حـولها تلك العـلاقات المقلوبـة بين النـاس والأشياء، كل المسـاخر الصغـيرة والكبيرة تُخرج لسـانها في وجـه المرءِ وتُدحرِج حملاقيْ عيونها أمامه.

نحن في ذلك نشقّ الطريق القديم نفسه، الذي اختططناه لأنفسنا بين ركام بقايا أفكار فجّة وعـلاقات شـوهاء وصـور ماحلة، لا أحـد يهتم، ولن يهتم أحـد، بما يحـدث أو سيحـدث، بمـا حـدث أو لم يحدث. كلٌ منا يشق سِكّتَه المرتجلة ـ مهما زعم لنفسه ـ كلٌ منـا وحيد في ذاتـه له أحـلامه وضحكـاته وشهقـاتـه وحيـداً إلى الأبـد، وحيـداً كـالمقضيّ عليه. وحيـداً لا يهتم بأحـد في النهايـة، ولا يعنى بـأحـد. أحقاً؟

ألم يكن مفروضاً أن الصحبة والرفقـة ـ والحب؟ ـ تقضي على هـذه الوحشة؟ لماذا هذه العلاقات، إذن، تزيد عبء الوحشة؟

في وحشتي وفي لحظات السـلام النادرة أُحس دائماً بأنه معي. ولكنه احتمل ثقل وحشته ـ هو ـ حتى النهاية وأزاح بيـده كل هـذا العبء، ومضى.

رصـاصة من مسـدس صغير كـأنه لعبـة: أنا هـارب من الشقاء. رأيتهـا اليوم صبـاحاً، ومـررت بيدي عـلى شعـرهـا. ولمست جبينهـا بشفقي، أحسسْتُ ما بنفسي، واختلجت عيناهـا، وخفت أن أبكي. لا

تتركها أبداً يا بدوي وارعها من أجلي فهي تعسة وأنـا أعبدهـا. منير. الجمعة ٢٠/٥/١٩٤٥ أنا هارب من الشقاء. .

أما أنا فلست أملك هذا.

ليس لي إلا أن أنظر إلى لحظة الهـرب من الشقاء، كـما ينظر المـرء إلى حلم من أحلامه القديمة. لن يتحقق بـإرادته. ليست بيـدي هذه اللحـظة الأخـيرة. عـليَّ فقط أن أنتـظر، صـامتـاً، أعمـل وأشهق بالضحك. أجـري خلف طيور زرقـاء لن أمسك بها أبداً، وأرتمي في غسق المغرب منهكاً مازلت أحلم. وعند الليل شقياً وموحشاً أبكي في الظلمة.

قـال رجل البـوليس للمجـرم عنـدمـا قبض عليـه أخيـراً، فشكـا وبكى: قال:

- ياعيني. قطّعت قلبي. .

أضغط على رقبتها الصغيرة الملساء بكل قوّتي، بكـل عزمي ألتصق بكل استدارة فيها سعيداً على نحوٍ مـا في حضنها المبتلّ. نطفـو معاً في تموّجٍ واحد متماسك لحمهـا تحت يدي فيـه بضاضـة جديـدة طازجـة تـومض في عتمـة المـاء نجمـة ذهبيـة وحيـدة تتقلّب في اهـتزاز المـوج البطيء والماء قابض وضحضاح. نخبط بـالأذرع ولا رشاش هنـاك. لم أصدق عينيّ وإن كنت أعرف في صميمي أن ذلك محتوم. قلت الغـرق شهادة الحرق شهادة حيّة لامعة في الأذن الصغيرة مازالت نقية محتفظة بكل نقائها في هلوسات الطين. يرتفع الماء فوق رأسي يرتفع حتى يصل إلى عنان السماء تدور ذراعاي حـول جسمها أغـوص بها أحتضنهـا في

صدري. القبلة الآن لا فكاك منها أذوق طعمها الطينيّ. فيه حلاوة خفيفة صامتة. أحب هذا الغرق لا أنجو منه علّمني حسي بفقدانك أننا نحب وحدنا كما نموت وحدنا. غاصت قدماي في الطين الرخو بصمت لم أخرج منه.

لا بل كنت أخرج في الظهر، أضرب في السكك الترابية الضيقة بين غيطان الذرة والقطن والبرسيم، رائحة الخضرة الساخنة تفغمني، أسير بلا نهاية ولا هدف، أدور وأتلوى مع الطرقات، غيطان الذرة عالية محتشدة بالأعواد المثقلة بالورق والكيزان التي تنضج على مهل، في التراب، عالية ومتقاربة أكاد أغرق في حُوشِيَّة زروعها أشقّ فيها طريقي بالكاد، أمرّ جنب المساقي، على حفافي القنوات الصغيرة، وعلى شطّ الرّيّاح الكبير، ماؤه منخفض وبطيء ومخضرّ قليلاً، غاثر تحت الجسر، في حموة الشراقي، ساعة الظُهريّة المحرقة. حتى أصل الى النيل.

أنزل من جسر النيل منحدراً متسارع الخطى أكاد أقع، أعرف هذه البقعة التي تترقرق فيها مياه قليلة الغور، صافية وزرقاء تقريباً في شفافيتها، أخلع الشبشب وأمسكه بيدي مع طرف الجلابية الذي رفعته فوق ركبتيّ بكثير، أخوض الماء دون أن أثير الرمال على الأرضيّة الناعمة المتماسكة، أرى قدميّ منكسرتينْ من لعبة الضوء عند حافة الماء الزجاجيّة تقريباً، ارتفع مع الأرضيّة قليلاً قليلاً حتى أصل إلى شطّ الجزيرة التي أعتقد فجأة أنها لي وحدي؛ أنهج، في الوحدة الكاملة والصمت الكامل تُوشّيه رفرقاتُ الماء يتشرّبه الرمل الذي يدكن لونه من البلل عند الحافة القريبة العميقة، على الناحية الأخرى

من المخاضة الضحلة التي عبرت منها، هبّات الهواء في وسط النيل ندية وحارة وحلوة كأنها سكّرية الطعم ومُسكِرة نوعاً ما.

أقف فجأة، أتسلل بخطى مسترقة وراء عصفور أزرق طويل الجناحين لا أعرف اسمه، أخطو إليه بخفّة وسكون، اريد أن أمسكه، يطير فجأة أمامي، ثابت الجناحين بزرقتهما بريشهما الذي لا يكاد يتحرك، وكأنه شفاف، وإذا سرب من الطيور الزرق تحلّق معه، مندفعة إلى الشاطىء الآخر، مرتفعة إلى السماء، ريشها الزمرديّ يتماوج في طيرانها معاً، رفرفتها من غير صوت، انطلاقاتُ أحلام وأشواق ومحبّات غير معروفة بعد، لم أمسك بها قط.

طرقتْ الخيالات بابي، لم أفتحْ لها، بل ماج بي الشوق، واضطرب.

أعرف أنه سوف يُنضيني ويُضنيني خيالُك الذي يطرقني بالليل والنهار، يُشجيني ويُؤسيني، فماذا افعل؟ أتحملّه، على الكلال. بل أستدعيه. لا، لست أستعذب الوجيعة ولا أطيق اقتراب الألم مني، فكيف إذ يُطبِق، ولا يمضي؟

«طال بي الحبس» صريع الغواني أم صريع الأشواق المحلّقة.
ماذا أستطيع أن أعطيكِ؟

كيف أستطيع أن أمد لكِ يد الحب، في وحشتكِ، وربما دهشتك؟

سيقول لي عمي ميخائيل: جئت لها وجاءت لي بعد أن أوشك النهار أن ينتهي. بعد أن بنيتُ العمر في غير أرضها، ولا أرضي،

فليس لي من أرض ولا مأوى. بعد أن أوشكت يدي أن تكون صفراً من كل شيء، من غير حسرة، من غير وجع.

سيقول لي: ليس هناك إلا هذا الحب الغريب الذي يعمر غرفة البيت القصوى المقفلة، الغرفة الأربعين.

ما جدواه لكِ؟ أيّ سَنَد لكِ فيه؟ أريد أن أُسدي إليكِ أمناً وعوناً ونجدة. لكني لا أعرف هل أنت حقاً بحاجة إليها؟ نجدة غير مطلوبة، وربما غير ضرورية.

إلى آخره. إلى آخره.

وسوف أقول: قبلة البدء هي أيضاً قبلة النهاية، ربما؟
قبلة البرء هي أيضاً قبلة العطب الأخير، ربما؟

ولعلني قلت، أو لم أقل: الذي قال هذا رجل يحبكِ، أنتِ، عندما كنتِ وجوداً مترَقّباً مستسلَفاً، من قبل ومن بعد. أنتِ عنده وجود واقع مستحوِذ. أنتِ عندما تكونين، وصْلاً، واستحالة، ذوْباً في حضني، ووهماً، ذكرى وتخيّلاً، وابتذالاً يومياً، معاً.

وجودكِ الذي لك أنتِ وحدك.
مثل ظل قطة سوداء تحت نافذتي.
قلت: أين منامها؟

على الأبواب؟ في الحوش الترابي؟ في العراء؟ أم في فِراش وثير مُعَدّ، خصيصاً، ودفيء؟

في آخر أيام الشراقي، عندما يرتفع ماء النيل في تلك البقعة من النيل، إذا رفعت جلابيتي حتى وسطي، وخضت الماء حتى يبتل

لباسي، أستطيع أن أعبر إلى الشاطىء الآخر. وأنـا أنهج من المغامـرة في عتمةٍ تحلّ وشيكاً الآن، حريصاً على أن أخطو في الموقـع الصحيح تماماً وإلا غاصت بي ساقاي في مغاور قاع النهر التي لا أراها الآن عبر الماء المضطرب.

أعود من مغامرتي التي لا يعرف أحد ما هِي، منهكاً متربأ مبـلّلاً، نسيت الأكل ونسيت ما سوف ألقى من ستي أماليـا: يالهـوي يالهـوي مال وشّك مخطوف كده ياواد؟ دا لُونك ولا البفته البيضـا. ياخْـواتي. أعمـل فيك إيـه يابن سـوسن؟ هـو أنـا حـاخْلَص من أُمّـك يـاواد، وحاروح فين من أبوك؟ ياواد اهمدْ بقى وكِنّ هو أنا حافضـل انبخْ في حسي لإمتى؟ طبْ تعالَ، تعالَ. غيّر هدومك وكُلْ لك لقمة.

وتحيطني بذراعيها الضاويتـين اللتين تَسَعَـان حنانَ الأرض كلهـا، وهي تحضر لي رغيف البِتّاو، طرياً، سخناً، بالزبدة الطازة التي تكـاد تسيل على سطحه المحمر الفوّاح.

عنـدما كنت عـائداً، ليلتهـا، أخـذت الـطريق الـطوّالي من وراء الطاحونة، حتى لا أدور في الغيطان. كانت العتمة قد ضربت، ونباح الكـلاب موحش، وكـأنما في البعـد عواء يجمّـد الدم ـ مَنْ يـدريني ما هو؟ أهو ضبيح ضباع أم وعوعة ذئب؟

في الهيش والحلفا المرعرعة، وراء الطاحونة، حدست حضـوراً غير غريب.

تأوّهات المرأة الشبِقة وهتفاتها المكبـوحة: آه يـاني. . آه. . ياوِيـلي ياسواد لِيلي. أوعى عليّ ياخويـا بالـراحة، من غِـير هَبْش ياولَـه جاك

هَبْشة . . آه ياني. وزحير الرجل الذي ينهج بصوتٍ أجشّ خشن. أصوات الليل والعهر، أنين اللذة المنتزَعة وقسوة النشوة المبحوحة، كانت أرعبَ عندي من عواء الوحوش التي لا أعرف ما هي.

لحقتْ بي، من وراء الطاحونة، وسبقتْني. لم أر وجهها في الظلام، لا يبدو في مشيتها أنها خَجِلة، ولا هي متأثمة، ولا شيء، طبيعية جداً فيما خيل إليَّ، الرضى الجسديّ غير واعٍ، حتى، بأنه رضى أو شبع أو اكتفاء، هو ذات الجسم، مسلّماً به، غير مدرَك ولا موضع للتفكير فيه، قفّة الطحين على رأسها، موزونة في إيقاع خطواتها الهادئة الواثقة، طرحتها عليها هباء أبيض من الطحين وباهت من تراب الأرض ـ هذا لمحته بسرعة ـ قائمة العود، لا همّ لها، كمن فرغ لتوه من قضاء حاجة أو أداء شغلة، وارتاح. لم يعلق ببالها شيء.

كنت قد عدت من الطرّانة، سَنَتَها، وكانت أشعار شيلي وكيتس تؤنسني في الغرفة المطلة على حارة الجلّنار. كنت قد أُنسيت الآن نوافذها العلوية الصغيرة، تحت السقف مباشرة، كوى زجاجية لا ضُلَف لها، زجاجها أبيض وأزرق فيروزي، وأصفر. يتقطّر منها ضوء سماويّ دائم، ناعم وخاص. يُشِيع في الغرفة سكينةً عذبة الجوّ، أنيسة المعشر. تبدو لي هذه الغرفة الآن شديدة الفقر والرثاثة، ولكنها غير منفّرة، بل كلّ نفسي حنان لها.

وحتى في الليل كان نور مصباح الشارع يُنَعِّم من خشونتها التي لم أكن أحسها حتى. كان شِعْرِي يرقّق حواشيها ويُطرّيها.

في هـذا الضوء، نهاريّـاً وليليّاً، كتبت أوّل أشعـاري على مـائـدتي الرخامية العريقة بسيقانها الخشبية المشغولة التي نقر فيهـا سوس قـديم ومندثر، خـروماً دقيقـة كثيرة، رخـامها الأبيض الـرمادي في القـرص البيضاوي متعرّج الشرايين، مازالت قائمة، مـاثلة حتى الآن. الكنبة الطويلة مغطاة بفرْش خشن وملوَّن فوق المـرتبة القـطنية صلبـة القوام شيئاً ما، هي كما كانت تماماً من أربعين خمسين سنة، ينام عليها الآن متولي مبروك اللبّان الذي يـدور يوزّع اللبن عـلى شوارع غيط العنب وراغب بـاشا، أقسـاط اللبن الضخمة والـوسطى والصغـيرة، قديمـة اللون، معلّقة بالترتيب على البِسْكليتة التي يركنها تحت السلّم الحجريّ، وقـد حـلَّ محـلَّ السلّم الخشبيّ طـالمـا انتظرت مُنى تحتـه في العتمـة، مُنى ممتلئة الشفتين نائتة السنّ تحت شفتها العلوية، طالما حلمت بقبلةٍ على فمها الواسـع النـاعم حارّ الشكـل، لم أعرفهـا قط، هذه القبلة، ولكن عرفت الموت والهجر والنكران، وهو الطبيعيّ والعاديّ والمألوف المتوقّع، من غير ضجّة ولا صخب.

وعلى الباب أسمـع المرأة تهتف بجـارتها في الحـارة، وهي تطلّ من النافذة التي تقابل نوافذي الزجاجيّـة القديمـة، وتحلف بملء عقـيرتها، بصوتها الحيّاني: إن شالله ينْـزل لي بالسمْ الهـاري لو كنت رميت قشر البطّيخ اللي اتزحلق عليـه الواد ابنـك اسم الله عليه، يـاختي دا حتى مادخلْش بيتنا السَنَة دي، وعندمـا أسألهـا هل هي تـذكر سُكّـان هذا البيت من خمـسين سنـة، الستّ أم محمـود، وبنـاتهـا جمّـالات ومُنى؟ تضحك، في غنْدرة لا محلّ لها، عن فمٍ أدرد تآكلت نواجذه وتقول: أيْـوه.. خمسين سنـة؟ هو انتَ فـاكرْني عجـوزه ولا إيه؟ دا بَسّ الهمّ

اللي اكلني ياخويا. مُنَى؟ وجَمالات؟ أُمّ محمود؟ والنبي ماشفتهم ولا عرفتهم. آل اللي يعرفك مايجهلك..!

والجارة من نافذتها العلويّة، صدرها الضخم مدلوق ومدكوك على إطار الشباك، تصرخ بصوت ملسوع بالولد يجري بعيداً عنها في الحارة: ياواد مِش انتَ اللي شُفت خالتك أم سيِّد بترمي قشر البطيخ؟ ماتردّ ياواد يامقصوف الرقبة، رَدَّتْ الميّة في زورك. مش انت اللي قلت ياواد؟

كان قد رفع جلابيته عن مؤخرةٍ عارية سوداء الجلد، وفرّ ناحية الشارع الذي كانت نفيسة قد رقدت فيه تومىء، بفصاحةِ الجسد، إلى حكاية المضاجعة والتمثيل الايمائيّ لخِلْقة ولَدٍ متوَهَّم في حمّيا الردْح لمُنَى، ونحن نرقبها مبهوتين.

أما السرير العالي ذو الأعمدة والدوران المشغول بالدانتيللا، فقد كان في مكانه، مازال، وكأن أبي سيأتي الليلة متأخراً، ويسهر على خمسينيّة الكونياك الأصهب ومَزّة شرائح البيض المسلوق المعصور عليه ليمونة، والجبنة التركي ونسيرة الفرخة. ثم يصعد إلى شقّ ليلته، وعشقها، على هذا السرير، بينما أسهر في الغرفة الداخلية المطلّة على المنور أذاكر، أقرأ مختار الصِحاح، أترجم الشعر، أرى المروج الخضر الممتدة حتى الأفق، وبحيرات الماء الأزرق المثلوج، بينما قبلة حميدة البرصا مازالت على شفتي، أرتعدُ بها، أتقدُ بها.

من قوى هذه الأرض الغَمِقة غائرة الخصوبة، تُخضِعين الناس، والآلهة، لسطوتك.

هـل تحملين الرَصَـد و«العَمَل» في الحجـاب الذي كتبـه لك عمي الشيخ علوان بماء البصل والحبر الأحمر والأزرق، بالقلم البَسْط، عـلى ورقٍ كثيف النسيج، مطبّق مثلثات مطويّـة أحدهـا على الآخـر، هل تجذبينهم إليكِ، بـلا حِوَل، مسحـورين، مغمضي العيون والأشـواق المحزّزة.

في جنينـة عم تومـاس لاوندي تُسقِطين ثمرات الجـوافـة. فَحْـلا رمّانك ينضجان حتى العطن دون أن يستطعم أحد رضابهما. الحبّـات الحمراء متحدّرة من الفم المشقوق.

حارسة طِيبة عوراتك متجددة أبداً، ناعمـة ومحرقـة، من جديـد، للشفاه النهمة، في عمى شهوتها الساطع.

ضـاربة الـرمل هـامسـة إلى الـوَدَع مخزومـة الأنف بحَلَق نحـاس مشرشر.

قلت: أحفظ عليكِ كبرياءك.

بنت الحبشيّ النجاشي الأحمر، منبثقة من طمي النيل منذ الدهور.

صاعدةً من قوقعة الظلمة رافعةً ذراعيها، طرحتها السـوداء الباهتـة قد انسلت من على كتفيها، بانَ عَظْم الترقوة الأبيض المزيـل من خروم الثوب الملبوس على اللحم تتضرع لحنان موسيقى لن تسـمعها قط وإن كانت تعرفها في العمق منذ الأزل السحيق.

أدحضـكَ يا أبـا النـور في عتمـة سمائي تحت نخلة مـولـدك، تحت شجرة زيتونك، أُنكر ملاذي، أنفي مرجعي نفيـاً، آفاقُـكَ دارت بي تضيق سدودها، طائرُ القلب مذبوح عـلى ماء حيٍّ يتقـطر دمي دمكَ

نقياً وملوّثاً آناً فآناً في وعـاء الخزف الـلامع المصقـول الخارج تـواً من الفرن.

بيـدي اليمنى أنضح رشّ المـاء الحـرّ عـلى الـوجـه المضروب بقبلةٍ أبدية.

ها قد انطلق طيْري بأجنحته الزرقاء محلّقاً في أجواز السـماء المغلقة سبعة أيام بلياليها لا يأوي إلى كِنٍّ ولا ينتهي منفاه.

ثغاء الخروف الفادي يتردد به الصدى يحمـل الثغاء، كـالملاكـينْ، فرخَيْ حمام، إلى شمسكَ التي تضع قـطرة من زيت الميرون عـلى أذني اليمنى عـلى إبهام يـدي اليمنى على إبهـام قدمي اليمنى، طاهر طـاهـر طاهر، ما يتبقى من الزيت تمسحُ به على راسي لا حاجة لي به أنفضه عني أجحده أوقد من أمشاج روحي محرقةً لا أريد لـدخانها أن يـرتفع إليكَ بل هو يلتفّ عائداً إلى حشاي.

أموسيقى الليرا الذهبية موسيقى المزمار موسيقى الـسمسميّة تغسـل أدران التوحّد مع عروس النيل في موتها المائي وانتفاخ بطنها بالموت؟

ومـع كل شيءٍ فليس ثَمَّ تـطهير قط لأن الـطهارة قـائمـة أزليّـة لم تمسسها قط لوثات الغضب والصَغار.

يا هلترى إيه اللي انكتبْ للفؤادْ
شُوك الضنى ولا عبير الودادْ

هـل كانت سينـما بلازا، أم سينـما الكوزمـو؟ وهل كـان هذا هـو مشهد السور الحـديديّ الـطويل، قـوائمه، كـالرمـاح، تتعاقب تحت ضوء البروجكتـور المتحرك عـلى الشاريـوه، بقعة نـور مستديـرة وسط

الـظلام، تُلقي ظلالاً متـلاحقة عـلى ما يبـدو أنه غيـطان موحشـة أو حدائق شاسعة مهجورة، والصوت الباكي يكوي الروح وهـو، بعد، طفل: يالوْعتي ياشقايَ، ياضنى حالي، ضاع الأملْ من هَوايَ.. فيم كان الطفـل الصبيّ يبكي في عتمة السينـما؟ ضحّيت غرامي، عشـان هَنَاكِ.. أيّ غرامٍ مهتوكٍ ومدمَّر في غرارة الصبا وروْع اليفاعـة الماثلة وانهيار كهولةِ الروح معاً؟

آيـة أوهام تلك التي صـاحبتك ـ وتصـاحبك ـ منـذ ذلـك العهـد السحيق؟

هل أنت ـ حقاً ـ من ضيّع في الأوهام عمره؟

أو كما قال؟

لا أستسلم.. أستسلم.. لغواية اليأس..

لا.. لا أستسلم..

أستسلم..

لا أستسلم..

لا..

٥ ـ الحائط القبلي المهدوم

في أول صباح حارٍّ من مسرى، بعد أن ارتفع النيل وملأ الجُرن، رأيت المعلم جورجي مقبلاً علينا، رافعاً رأسه، كما يفعلون جميعاً. يخبط الأرض بعصاه خبطات منتظمة، يتحسس السكة بها، واثقاً عارفاً ولكن شكله قلِق ومنذر، وهو يعبر من تحت شجرة النبق العريضة أمام بيت جدّي ساويرس.

وقف على الباب ونادى:

ـ ياهْل الله . . يابا ساويرس.

قبل أن يدخل، يتلمس العتبة بعصاه حريصاً وحافظاً، ضرب جانبيْ المدخل بعصاه، وعبر من الباب الخشبي العريض.

قال بصوته المليء، الباريتون، من فوق البطن، إن الحائط القِبْلي للكنيسة قد سقط اليوم، الصبح بَدْرِي.

قال إنه رأى ملاك الرب، نعم رآه، رآه ساطعاً في ملكوته. ضرب الجدار ضربة واحدة بسيفه البتّار. المجد للرب. ضربة واحدة مرت في قلب الحائط الحجري الكبير. بسرعة. ونعومة.

كانت النار تتقد على حواف السيف العريض أحسست وأنا راقد في الحُوش القبلي البراني لفْحها؛ مانْتَ عارفُه يابا ساويرس.

قال إنه أحس لفح النار قبل أن يرتفع السيف الضخم، ثم رآها. رأى صفحة السيف ممتدة تومض، مونعة تجري على وجهها شعاليل صغيرة وتنزلق عليها بفحيح. ثم سمع هَدَّة الضربة القاصمة.

يابا آرساني كانت الضربة لِيَّ. لِيّ أنا.

قال إنه سمع حجارة الحائط القديمة الكبيرة تقع، متدهورة ولها لَجَب متلاحق كالرعد. وعندما قمت على حيلي وذهبت إلى يمّ قِبْلي كان هواء الصبح يهبّ على وجهي حُراً دون عائق، وعرفت مِن أبونا أن العمود الرخامي الذي كان الحائط مبنياً عليه، قد مال إلى جنب، وأخذ معه الخزنة الخشب وفيها السنكسار القديم المجلّد بجلد بقر أصلي، والصور والأيقونات المصلّ عليها، والأناجيل القبطي والعربي، راحت تحت الحجر تحت كومة الأنقاض التي ارتفعت مرة واحدة إلى أعلى مما تطوله عصاي. يارب ارحم. كيرياليسون.

قال رأيته يأخذ تاج العمود الضخم كرحى عظيمة منحوتة ومنقوشة بالخط القديم، قال رأيته؛ ورماه بضربة ذراع واحدة ناحية النيل؛ سمعت خبطة الماء، وحصّلني رذاذه، سقط في البحر وارتفعت له نافورة هائلة وظلت الهوّة التي تركها في سقوطه مفتوحة، رأيتها، لم ترجع المياه إلى أصلها، وكالحصّاد بمنجله قال ملاك الرب بصوت عظيم هكذا ستُرمى بابل المدينة العظيمة، ولن توجد فيما بعد، هكذا سوف أطوّح بكلّ الخطاة إلى الهوّة المفتوحة.

قال الانجيل وحده سوف يجبر المكسور سوف يقيم المعطوب. كانت عيناه جاحظتين، خلع نظارته السوداء، لحظة، كان بياض الحملاقين باهتاً، ويتقلبان دون هدى، دون مركز. وأعاد النظارة على الفور.

لم نعرف إلا بعدها بساعات عندما عثر الفلاحون بالصدفة على

عمي باسيلي ممدداً دون حراك، مكسوراً تحت الأنقاض تغطيه الحجارة الكبيرة. فاقد الوعي، ظننّا أنه مفقود الرجاء.

وعندما نقلوه إلى البيت الطيني الصغير في حُوش الكنيسة، صلّى عليه أبونا أندراوس، فتح عينيه فقط. قال بصوت ملتبس غير مستبين: جورجي. أخوي، ولم يتكلم بعدها قط. كانت عيناه فقط تلمعان، وإن كانت عينه اليمنى قد توقفت في محجرها، لا تتحرك، وثقل جفنها. ذراعاه ساقطتان إلى جنبه بلا حياة، وساقاه، كلتاهما، مشلولتان. فاجأته، على الرغم مني، في غرفة الست حنينه، متردّياً ومتجمّداً في آخر الصيف. وفي الصيفيّة التالية عرفت أنّه استطاع أن يمشي، بعنَت، مستنداً إلى عكّاز مرتجَل معمول كل شي انْ كان من فرع جميز عفيّ.

لم يكن المعلم جورجي يعرف أن أخاه كان قد قام من فَرْشته في صُبْحيّتها، وأن حائط الكنيسة القبلي سقط عليه. ضربه ملاك الرب كأنه يعاقبه على إثم لم يرتكبه، أهذا هو مصير الأبرار؟

عمي باسيلي الطيّب، الفتيّ، شديد الأسْر، هو الذي كان يقوم بذراعيه العفيّتين على فِلاحة القيراطين اللذين تركهما أبوه، آبا ونجت درياس الكبير. يقوم على معاشه ومعاش عمي جورجي، مستورَيْن الآن، لم يعد في مُكْنته أن يقوم، على الإطلاق، على حِيله. راح فيها الرجل.

كان محتقناً، مزروداً بالدم، وجه المعلم جورجي المكتنز المترهل بجلده المزرق أصلاً، منقوراً بآثار جدري قديم، عيناه الجاحظتان

مبقورتان ونيّتان، تدور المقلتـان من غير رؤيـة، وتحس أنهما تتبعانـك مع ذلك، وترصدان كل حركة في داخل نفسك أيضاً. لم يعـد فيهما - الآن فقط - حسّ التقحّم والفجور والبذاءة التي عـرفتْها فيـه، وقبلتها منـه الطرانـةُ كلها، سلّمت لـه بهـا، من زمـان. بـل حسّ الـروع، والتوجس، والمعرفة بالخطيئة.

لا صلة لذلك كله بأنه عريف الكنيسة وكبير الشماسـين وحافظ لا تخونه الذاكرة للخولاجي ولألف ترنيمة بالقبطي والعربي، وأنـه هناك حيث يجـري كل شيء كبـير أو صغير في الـولادة والتنصير وجَبَـانيُوت الخطوبة وأكليل الزفاف وقُدّاس الجناز، في رش الماء المصلّى عليه بعـد أربعين الميّت لإراحة الروح من عناء الانفصال وإطلاقها بسلام، عند تفريق المُلبُس، وشرب المُغات وأكْـل جسـد يسـوع وشُرْب دمه، عنـد توقيع عقود البيوعات والإيجارت، بعد جمع القطن، في كيل القمـح، عند ذبح الوزّة، وِعشار الجاموسة، في لعب الطاولـة والدمينـو وعشرة البصرة، وعنـدما يـأتي حكيم المركـز - في الشديـد القوي - أو ضـابط النقطة، على السواء. حضوره في كل مناسبة وبدون منـاسبة، بعينيـه المسـدودتين وتلمّظ شفتيـه الدهنيّتـين، في تعليقاتـه البذيئـة وحكايـاتـه القبيحـة مباشرة اللفظ بـالعربي الصريـح، شيء يحس الجميع بـراحة إليه، بمتعة فيه، حتى، كأنها محرّمة قليلاً ولكنها مسموح بها ومتـواضَع عليهـا لأنها أساسيـة، كالمتعـة التي تفاجئْ يـديك وجسمـك عندمـا تقبض عـلى استدارة امـرأتك، المليئـة، مقبّبة، كـالعجين الخمـران، وتغوص في الليل.

الطرّانة كلّها وكليلها تتكلم بمتعة دائماً وحس من الفضيحة أحياناً عن أن المعلم جورجي يشاهد ـ بجرمه المهول وعصاه الضاربة ـ كيف لا يُشاهَد؟ ـ وهو يدخل وحده، دون ورع، بيت الست جنينه، وهي وحدها، دون ورع، في أنصاف الليالي ـ يعني بعد مغيب الشمس على الحقيقة ـ وكيف أنه يشاهده الفلاحون الذاهبون للغيط في نداوة الصبح البدري، والعيال السارحون بالمواشي، والنسوان حاملات الزلع والبلاليص في موكبهن المرح إلى مياه المسقى تحت جسر النيل، حيث اللوميّة جارية صافية ترد الروح، يشهدون أنه خرج من عندها، قبل طلعة الشمس، متجهاً يمّ الكنيسة، إلى غرفته الطينية التي بناها له أبونا أندراوس. الله يرحمك بقى يا عم ميساك يا بنهاوي، تموت بالداء الخبيث ـ اسم الصليب يحمينا ـ وتترك هذه المرأة متفجرة بالجسد متوقدة بالشهوة للحياة، وحدها من غير خلفة، لم يكن في طوعك أن تخلّف، لكنك تركت لها الستة فدْن والقيراطين في جنينة عمي توماس.

كان عمي سلوانس الصرّاف يقول دائماً يا جماعة فُضوها سيرة بَجى، مَنْ كان منكم بلا خطيئة . . .

فتقول ستي أماليا، بإصرارٍ وببساطة: ربنا يسامحني في يوم الجيامة بسْ الوليّة دي متفرجْشِ عن الفواحش. هو الفُجْر يِدّارى؟ جال تَلاته ما يستخبوْش العِشْج والحَبَل والركوب ع الجمل.

يردعها جدّي ساويرس، برفق، لكي تترك الحساب لربّ الحساب. الله وحده الذي يغفر الخطايا، بشفاعة ستنا مريم،

والقديسين. ابن الإنسان وورثته على الأرض لهم السلطان أيضاً. الإيمان يخلّص يا أم يونان.

ويقول أبا آرساني، صارم النظرة ومقدّد الخدّين، يامُ يونان المجدليّة التي كانت تعيش في الخطيئة سكبت على ساقيْ المسيح قارورة الطيب، ومسحتها بشعرها. غفر لها يسوع، بل كانت أول من ظهر له، بعد صعوده بالجسد.

فتجيبه دون شرّ، بل دون سوءٍ أصلاً: ياخْواتي! آه منكم يا رِجّاله..!

فهل كان في مقصودها أن يسوع كان، أيضاً، رجلاً؟

ذهبنا للكنيسة صباح الأحد التالي، نحضر القدّاس، ونتناول، ونرى بأعيننا الحائط المهدوم.

سرنا عبر طرق الطرّانة الضيقة المتلوية، تحت النخل العتيق مائل الجذوع، والجميز العتيق، والكافور مشروخ السيقان، وبيوت الطين العتيق.

كانت لندة ورحمة وخالتي روزة وخالتي سالومة يسبقننا بخطوات، وإن كانت انحناءات الحارات وحيطان الأحواش المفاجئة تحجبهنّ عنا لحظة، ثم تكشف عن حضورهن، على غير توقع، أمامنا مباشرة، كأنما بسحرٍ صباحيّ.

أجيء أنا وراءهن ، ومعي خالتي سارة وخالتي وديدة، وجدي ساويرس مهيباً، عصاه السميكة قويّة العَضَل تدق الأرض تثير تراباً

خفيفاً عند كل ضربة. ستي أماليا بقيت في البيت تعدّ غداء الأحد، طبيخ بالزَفَر، مخصوص.

فستان لندة المشجَّر الأصفر منقوشاً بزهور حمراء دقيقة منسدل عليها بانسياب. أدهشني وأثارني - على الصبح - أنّه كان ضيقاً، نوعاً ما، على ردفيها، ثم ينبسط إلى كورنيش تحتانيّ به كشكشة واسعة فوق القدمين مباشرة، وهي تسير بحيوية وتوفّز، وواضح أنها غير معتادة على المشي بحذائها الرجاليّ الغالي البُنيّ. كانت دائماً بالشبشب، وأحياناً حافية بجرأة ودون تورّع.

وكانت تتأخر عن الموكب النسائي السحري، قليلاً، وترميني بنظرة سريعة متواطئة. أو أتوهمها.

وعيال الفلاحين ينظرون إلينا بفضول طفوليّ، ونزوع للعفرتة يكبحه مجرد وجود جدي ساويرس، بقامته الطويلة الشامخة، لا ينظر لأحد.

كانت الحجارة الساقطة قد سدت الحَارَة الخلفية وراء الكنيسة، وقطعت السكة على السراية. وكان العيال يتسلقون الكومة العالية المضطربة وهم يتنادون بأصوات فرحة ومستثارة، وينزلون من الناحية الأخرى، تحت سور حوش الكنيسة، من الخارج.

كانت الفجوة الكبيرة التي تشق الحائط القِبلي شقين، قد شُدّت عليها صفحةٌ كبيرة من قماش الخيامية الذي تقام به سرادقات الأفراح والمآتم على السواء، جاء به أبونا أندراوس من كفر داود، منقوشاً بالأحمر والأزرق بتخطيطات الأرابيسك، في قلب كل وحدة من

التفـريعات يتكـرر «الله» بالخيط الأبيض المغبر قليـلاً، فتـائله كثيفـة وبارزة قليلاً، القماش مسنود إلى عوارض خشبية مائلة نوعاً ما، يخفي كومة الحجارة، ويتسلل من حواليـه نور النهـار الخارجي الـذي يضع إطـاراً غريبـاً ودنيويـاً حول حـوافّ القماش في عتمـة صحن الكنيسة الفسيح. هالات الشمـوع الكبيرة المفـردة تؤكـد نسيـج هذه العتمـة الأخـرويّ المفهاف. تنتـثر فيها تفـاريق ومجـاميـع الشمـوع الصغـيرة المتزاحمة، معلّقة في نجفات خشبية عريقة ومشقّقة بخطوط العراقة.

كنا نحن الرجال القليلين إلى يمين الكنيسة، أما النسـاء فقد غـطين رؤوسهن بالمناديل والطُرَح، وعـلى رغم الحرّ كـانت أكمامهن - كلهن - طويلة، وأثوابهنّ سـابغة، وكـانت ظلال أهـدابهن، في نور الشمـوع الرفيق، مفروشة على الخدود الناعمـة، وترقّق جفـاف عِظام العجـائز منهن.

يـاربّ أنت تعـرف ضعفي ونقصي وخـطايـايَ فبنعمتـك اسنـدني واسنـد كل الخـطاة بقوّتـك آزرني وشددني وكـل الخـطاة إن حـاربتُ وحـدي وانتصرت على الشيـطان وحـدي فقـد يصيبني عـوار العُجب والكِبر فأسقط في هـوّة النار التي لا قـرار لها وتغيّبني لجّـة اليـمّ المفتوح سربلْني يارب بثوب البرّ واكسني بإزار العفّـة يارب من فـرط مراحمـك أن تغطيني بنعمتك فأعرف ضيقـة نفـسي ونجاسـة قلبي وفساد طبيعتي وإن سقطتُ بلا نجدة فقد تدهمني صقور اليـأس الناهشـة ولا مفرّ لي فأعطني أن أثبت عينيّ بك إلى الأبد لـولا نعمتك لا أخـرج عن صغر نفسي ياربّ ارحمْ كيرياليسون كيرياليسون.

قلت كان يصلي له. لا. لما لي لعمي جورجي لنا كلنا.

قلت ليست صلاتي ليست تضرّعاتي. ملاذي كبرياءُ سقطاتي لا أعرف مدى أحقّيتها.

كانت لندة مشتعلة الخدين نارَ الصلاة.

كنت أعرف أنها تدعك وجهها الناعم بقماش التافتاه الحمراء حتى يتضرّج خدّاها وتعضّ على شفتيها بأسنانها وتكحل عينيها بمرود فضيّ رقيق الحافة من مكحلة منتفخة البطنِ فضّتها لامعة دائماً، وتساعدها خَضْرة، بتواطؤ نسويّ، على أن تختفّ تحت غديرتها تماماً فيبدو شعرها الوَحْف كأنه ينبثق فجأة على جلد وجهها الغضّ.

لكنني وأنا أخالسها النظر في الكنيسة كنت موقناً بأن هذا التضرّج ربانيّ، من وقدة الصلاة بالقبطية والعربية، ومن وقْع تراتيل المعلم جورجي بصوته العميق الذي يملأ صحن الكنيسة ويهزّ شعلات الشموع ويشرئبّ له الجلد والقلب معاً. وجهه الخشن المنقور بخروم الجدري العتيق كأنما قد صَفَا ونوّر.

رأيت - أم خيّل إليّ؟ - قطراتٍ من دمعها، بلّورية، رائقة، كاملة التدوير، تسقط ببطء على الخدّ المتوهّج الرخيم.

قبّة الكنيسة عالية بعيدة في العلوّ، خشبية وعارية وقاتمة، متقنة الدوران مع ذلك، قائمة من جانبيها على أعمدة رخامية رفيعة، اصفرّ رخامها - من ضوء الشموع أم من التاريخ؟ - تيجانها رومانية الشكل، وبين الخشب العتيق والرخام توافق وتنافر ريفيّ، يزيد من إيقاعه الفلاّحي دوران الشرفة الخشبية التي تطوف بصحن الكنيسة

وتنقطع عند الهيكل، خالية الآن ومظلمة، أحسست مع ذلك أنها معمورة، ترصدنا، يَقِظة ومتنبّهة لأحوالنا.

حجاب الهيكل أيضاً من الخشب البُنيّ الذي اسودّ الآن تقريباً وسقطت أطرافه متآكلة، متداخل التعاشيق، بهتت فيه تطعيمات العاج السمنيّ، وبعضها حلّ فيه محلّ العاج الضائع تجويفات قاتمة اللون، وأبونا أندراوس في ثياب القدّاس الذهبيّة قديمة التذهيب يأتينا صوته الأخن، يرتفع أغنّ مسترسلاً ويتدهور هامساً أبحّ بالقبطية، بمتعةٍ فيزيقية بحتة، وهو يخدم الحضور الإلهي في حَرَم الهيكل.

أما تراتيل عمّي جورجي فقد كان لها صدى غائر في رَحبَة الروح، وملء صحن الكنيسة. كان صوته الجوفيّ مع ذلك رنّاناً موسيقاه صافية. هو الصوت الذي نعرفه في بذاءاته واقتحاماته، لكنه مروَّق ومنقّى، وفيه ترجيع عذب وآمر في الوقت نفسه.

ثم دارت بي الأرض.

كان عمي جورجي مرفوعاً، معلّقاً، ملصوقاً بجمود دون حراك إلى قبّة الكنيسة.

في جانبٍ من القبّة، هناك في العلوّ، ثابتاً بلا حسٍ ولا نأمة، بجثته الضخمة، بجلبابه الملفوف بوشاحِ كبيرِ الشمّاسين لكن لونه لم يعد أحمر قانياً بل هو رماديّ كالح.

لم أصدق عينيّ. لا أصدق. وأعرف بيقينٍ كامل أن ما أراه هو وحده الحقّ. أراه، هو نفسه، معنا، تحت، يقود الشمامسة الصغار، يضرب على المثلث النحاسيّ وعلى الصنوج ذات الصدى، يرتل بذلك

الصوت المليء بالجسدانية والقدسية معاً، في جلبابه الملفوف بالوشاح مونع الاحمرار.

كبير المرنّمين الإلهيّين قائد المِئين رئيس الملائكة صاحب السيف الناريّ البتار. رآه جورجي الذي لم يكن يرى.

أراه الآن في هيئته الأرضية.

ألم يره أحد غيري؟

أم أننا كلنا رأيناه، معنا في صحن الكنيسة، ولم نر غيره؟

بينما جورجي مرفوع.

الخاطي الزاني ليس له إذاً مكان في المقادس المكرَّسة للربّ صارِم المحبة.

كنت أختنق في تراب الطرّانة، سكران بحرّها، ونشواتها.

شدّ ما أحتاج إلى إرادة قوية، بل جبارة، وساخرة أيضاً.

هي التي تستطيع أن تنجيني من موت الأصباح الخاوية من ساعات احتضارٍ متصل بين أحلام شبقيّة متلاشية. خيالات تنزّ حميدة حنينة لندة خضرة رحمة السراري والجواري سواحر ألف ليلة والحُور العين القيان وحوريات المروج كالغلمان تجسُّدات نصف ناضجة وتوهُّمات حارّة هُولات مضطجعة مثالية حادّة الأسنان عرائس البحر وجنّيات النيل المنهومات كأنما عليّ أن ألمّ أنقاض هذه الكائنات لا ترميم لها أريد أن أصنع لنفسي إلهاتٍ جديدات أبكاراً، نوايا نصف مطبوخة نويات ضجر امتدادات قاحلة مستنقعات ملحة أُفسح لها ساحة

صدري تتمدد فوق سطحها الآسن طحالبُ غير شائقة ثمر الروح المضطرب ليس من الروح لن يأتي اليوم الذي يعود فيه الغريب إلى حِماه لن يعود إلى الوطن لن يأتيه وطن أين أرضه على فخذيْ مَرْاته في تربة إلاهته ليس له أرض المحبة هي أولى ثمار الروح.

يا للأوهام ـ والأفهام ـ قليلة الذكاء وشائعة حتى الفهاهة ونصول الفِتَل.

المحبة بَذْل يفوق كل عقل وكل مفهوم. ها ها!

كان، أول مرة رأيته، قد مدّ لي يده، بحكم العادة، لكي أبوسها.

أرى هذا الصبيَّ صغيراً ونحيلاً وفي الثالثة عشرة يشدّ على يد الكاهن بقوة دون أن ينحني عليها بقبلة التبجيل التقليدية، وهو ينظر في عينيه مباشرة. نظر إليه أبونا بدهشة، قليلاً، وقال: هو أنت بَجَى ابن بِتّ ساويرس؟ اسم الصليب وشارة الصليب، حارسك لا يغفل ولا ينام. وضحك بطيبة قلب وسماحةٍ وامتلاء صدر، وأحببته بعد ذلك كثيراً ولكنني لم أُقبّل يده قط.

كان يحبّ أن يأتي يلعب الكوتشينة ـ بَصْرَة، لا يغيّرها ـ أو الطاولة أو الدومينو مع جدي ساويرس أو مع ستي أماليا التي كانت تتقن الدومينو إتقاناً كاملاً، أو حتى مع خالتي سارة الصغيرة. أما خالتي وديدة فلم تكن تحب اللعب. وكان يطلع دائماً ـ يا ربّي ـ مغلوباً، ولكن سعيداً رخيّ البال. كان يخلع عِمّته الزرقاء المدوّرة، يضعها فوق المخدّة المفروشة على المصطبة، أمام الباب الكبير، ويلعب

بحماسة، ولا مانع أن يغشّ أحياناً في اللعب غشاً خائباً ومكشوفاً كأنه يفضح نفسه بنفسه وعندما يضبطه أحد يضحك ملء صدره. وكان يحب أكْل ستي أماليا عامْله إيه النهاردي ع الغَدَا يامّ يونان؟ لا بَجَى ملوخيّتك شهْد مصفّي، تِسْلَم الأيادي، ويدوم العزّ.

وكان جورجي العريف يأتي أحياناً ويشارك في اللعب بحذق، أصابعه مدرّبة ومبصرة. معوجّة قليلاً في اكتظاظها باللحم، تتحسّس أقراص الدومينو بسرعة، بين الإبهام والسبابة، وتعرف الرقم من التجويفات الدائريّة الصغيرة في وجه القرص، ومهما كانت براعة المعلّم جورجي ودربته المشهود بها في كلّ بيت، كان آبا أرسانيوس، ابن عمّ جدّي ساويرس وأبو فانوس، دائماً يكسبه. ويعابثه في آخر اللعب هو انت عايز تكسب كلّ حاجة يا جورجي يا خويا، فيضحك العريف ضحكته الجشّاء ويلتقط، بين شفتيه السوداوين اللامعتين ولسانه، حركة تلمُّظ، في تذكُّر لذاذةِ متعاتٍ أخرى، ومكاسب لا علاقة لها بالحساب، ومايزال يضحك ويهتزّ كرشه المدوّر في القفطان الصيفيّ الحرير، اللهمّ اجعله خِيْر يا وْلاد.

كان أبونا أندراوس يأتي، بعد الظُهْريّات، في جُبّته السوداء الحريريّة - لم أكن أعرف الطرّانة إلاّ في الصيف - فوق جلابية ناصعة البياض، وياقتها مقفلة ومُنَشّاة ولكن رقيقة، حتى في عزّ الحر.

لم أر زوجته قط، كان بيتهم الصغير قِبْلي البلد، يَمّ الكنيسة لَزْق. ولم تأتنا قط في زيارة، سمعت من الكبار أنها لا تخرج من البيت، وعرفت بعد ذلك بسنين طويلة أنها خرجت منه أخيراً إلى بوبيللو، وأن أبونا أندراوس لم يلبث أن لحق بها.

لم يحضر إلا القليلون أكليل عمي جورجي على الست حنينة معوَّض في الكنيسة التي بدت يومها واسعة وفسيحة وخالية، ومع أننا كنا هناك إلا أن ستّات الطرّانة لم يأتين، كأنما كلهن متواطئات، وكان أبونا أندراوس متعجلاً وسريع الإيقاع في أكليل عرّيفه وكبير شمّاسيه، كأنه يريد فقط أن يخلص بسرعة من مسألةٍ محرجة قليلاً، مع أن يسوع هو رب المغفرة، ولا يردّ أبداً توبة من يطرق بابه، وخرج عمي جورجي وأخوه باسيلي ـ محمولاً على كتفيْ أولاد الحلال، يهتز جسمه بلا حَوْل ـ من الغرفة الطين في حوش الكنيسة إلى البيت البَحري في آخر أطراف البلدة، جنْب الساقية القديمة، الذي بناه ميساك بنهاوي. ربنا يقدّس روحه بقى.

في آخر هذه الصيفية كانت خالتي روزة وخالتي سالومة ـ مع لندة ورحمة وخضرة ـ تزورهم في هذا البيت البحري. وذهبت معهم.

سلّمت عليّ الست حنينة معوّض بيد بيضاء متهاوية لا عصب فيها، كالملبن فيها هبوة من عطر الصندل السوداني. كانت مضطجعة نصف راقدة نصف جالسة على كنبة اسطنبولي في غرفة داخلية حارة، حتى وهي مفتوحة الباب والنافذة.

جسمها الممتلئ يفضّ وينز من الجلابية الفلاّحي الحرير، سوداء منقوشة بزهور حمراء كبيرة تربط بينها فروع خضراء متواشجة، خيوط أغصان تهبّ بها، وتخبو، رياحُ الجسد الدفينة، في تنفّسها الدفيء يصعد، ويهبط، بصدرها الذي ملأ سُفْرَة الفستان فتكوّر خلفها واستدار في جِرمٍ مكوّر ومنبعج ومثير في ضخامته. وكانت عيناها

المكحولتان بخط كثيف شديد الزرقة كأنه أسود حالك، تلمعان، بياض المقلتين المتفختين قليلاً ناصع ومضيء.

سألت أبونا أندراوس ماذا ستصنع بالكتب المقدسة والصورة الدينية الممزقة التي سقطت عليها أنقاض الجدار القِبلي للكنيسة، والأيقونات التي دُمّرت، فقال طبعاً سيحرقها، ويطرح الرماد المتخلف عنها في ماء النيل الجاري، أو يدفنه في الأرض المكرّسة في بوبيللو، حتى لا تدوسها الأقدام، حتى لا تتدنس.

قال: دي حَاجَات مُجدّسة يابني، من حقّها علينا الاحترام الكلّي. كيف نسيبها تتهان ولاّ تتنجس؟ دا حتى إهانتها يبجى شرّ، شر مستطير مين يعرف عواجبه إيه علينا إحنا، فرداً فرداً، وعَ الْبلد كلها؟ دي حرومات يابني حرومات.

وسألته طيب ماذا سيصنع في الحائط القبلي المهدوم؟ متى سيصلحه ويعيد بناءه؟ هل يتكلف الكثير؟ فقال إن الحكاية ليست حكاية تكاليف، وإنما حكاية الخطّ الهمايوني. سألته ماذا؟ قال يابني دي حكاية طويلة. إذا حدث أيّ خللٍ ـ قال ـ أو تَهَدُّمٍ في كنيسة فلا بد من أمر ملكي يصدر من السراي ويوقعه جلالة الملك وينشر في الجريدة الرسمية ولا يعمل به إلا من تاريخ نشره ـ قال ـ هذا شيء من زمان بعيد، من ١٨٥٦ يعني من مائة سنة تقريباً قل تسعين أقل من تسعين شويّة، وفكرت أن أبونا أندراوس على الرغم من كل شيء كاهن جيد وأنه ذاكر دروسه، قال إن اسمه الفَرمان العالي الموشّح بالخطّ الهمايوني، وأنّه نَصّ على أنّه يلزم أن يُقدّم طلب ببناء الكنائس، أو ترميمها، إلى الباب العالي. وأن السرايَ الملكية هي

الآن الباب العالي. حتى بعد الاحتلال البريطاني وإلغاء الخلافة العثمانية وانتهاء سلطنة مصر وبعد الاستقلال و ٢٦ فبراير وسعد زغلول والدستور والنحاس باشا ومكرم عبيد وإعلان الحرب، قال إنه كتب بالفعل لمطران البحيرة وإن المطران سيجري اللازم، لا بدّ من المطران، هو ـ أبونا أندراوس ـ لا يستطيع شيئاً.

ولما تركنا الطرّانة بعد ثلاث سنين كان الحائط القِبلي مايزال مهدوماً.

بعد الثورة والنكسة والعبور والانفتاح والصحوة وعلى مشارف نهاية القرن العشرين مازال الهمايوني سارياً. أمازال الحائط القِبلي مهدوماً؟

أبونا أندراوس لم يعدم حيلة. ترك قماش الخيامية مشدوداً، وبنى حائطاً مرتجلاً من الطين اللبِن، ليلاً، سدّ به الفجوة المفتوحة على نور النهار وعلى ضوء السماء، بناه خلسة وفي خفية عن السلطات. يعني السلطات في المركز وفي مصر، أما العمدة، وشيخ البلد، وكل الناس فكانوا يعرفون، وسكتوا.

الشيخ حامد الدسوقي، الله يمسّيه بالخير مانْت عارفُه، عوده منصوب ونظرته نظرة الصقر، قال للغفير عويس أبو المعاطي: الله يخيّبك يا شيخ، وهو واقف قدامه زِنْهار: عجايب ياولاد، يعني كانت تايْهة وجَيتْها. وفزّ فيه لجْمه: ياواد اتلطّ كده، وفُضّها سِيرة، هو داء فيكم، ولا يعني داء؟ حُطّ ياواد في عينيك حَصْوة ملح واسكتْ سكْت..!

أما عمدتنا الطيب المطاوع البطين الذي يحب الراحة والدعة فكأنه لم يسمع ولم ير. ولم يتكلم.

أما أحجار كومة الهدم فقد تُركت في مكانها. سوّى العيال ـ والكبار ـ بمجرد مشيهم على الأنقاض طريقاً ضيقاً فوقها يعبرون منه السكة السدّ. ورأيت حميدة البَرْصَا، مرّة، تمسك بالحِجارة، بجذاذات أصابعها المتآكلة، تغطيها بطرف الطرحة، تتشبُّث بأطرافها، وهي تتسلق رخام الهَدَد الذي أصبح ناعماً من وطء الأقدام، ثم تنزلق، كلها، وهي نازلة. وخيل إليَّ أنني سمعت أنينها، مواءها، شكاتَها المكتومة.

رامية الرمح من عينيك اللتين لا تغيبان في السكّة الملتوية التي فيها حَجَرة واحدة وبقايا قطة ماتت من أيام طوال خصيبة ومحرومة من الإثمار أبداً مبحرة إلى الشمال على سطوح المياه الساجية هل أنتِ السمكة أم الصيّاد هل أنتِ الجنية المختبئة أم شَيَّالة الحطب والأَسِيَّة هائمة وعارية تحت ثوبك الواحد الممزّق المرقّع الذي أسقطه حرّ الخَمَاسين جسدكِ القائم من موته رشقته الرمال الدقيقة وكسته بالنُّقَر وفاكهة الوهاد وحجارة الروابي مثل ترنيمة قبطية قديمة بَجْعتي السوداء المقتولة بيدي حوريّة الحَكَايا والحواديث تحت مصباح الكوز مقطوع الحافّة فتيلته مغموسة في الزيت السخن نْيمفيّة النيل معشوقة موسيقى السطوع هل يمنحك النور أبداً كفّارته هل يحمل عنك ثقل خطيئتك التي لا إثم فيها بل هي الطُهر والبُرء معاً ترقصين رقصة دراويش الذكرْ رقصة فراشات الغيط رقصة الأوزّة المذبوحة تحت النخلة في حوش ستّي أماليا ترقصين دون صوت على إيقاعات الفيضان وهي تهدر وتدمدم.

رائحة الماء في بِرْكة الغَسَق التي تملأ الجرن فيها عطن خفيف وخصوبة كامنة تترقرق على سطحها مويجات الحنين. الغربان تنعق فجأة آتية في سربٍ متلاحق الضربات من ناحية شجر السنط والجميّز على جسر النيل المترب الخالي الآن.

عندما نزلت من التاكسي البيچو بالنَفَر كان الجسر الوطيء الآن أسود الإسفلت، تتقاطر عليه سيارات المرسيدس والڤولڤو ونصر، ولوريّات البضاعة محمّلة بالطوب الأحمر وشوالات الإسمنت وكرتونات المُبيدات؛ لم أجد للسراية القديمة أثراً. جُعلت محلها بيوت خرسانية ذات طوابق ثلاثة ولم يطاوعني قلبي أن أدخل الكنيسة، بدت حيطانها رثة نشعت المياه عليها وتركت عليها خطوطاً متعرجة قاتمة اللون؛ لم أذهب إلى بوبيللو؛ خالتي وديدة، فلاحة عجوزاً كلها ترحيب باللهجة الفلاحي وبالعبارات الريفية الجاهزة لكل مناسبة، صنعت لي غداء من البيض المقلي والجبنة القريش، جئت على سهوة دون إخطار، ونظر إليّ عمّي فانوس بعينين يزرّهما ويضيّقهما، باهتتين الآن من الشيخوخة، ويقول لي هوّدا يصح ياأستاذ؟ مش تجول كنا طلعنا نجابلك ع المحطة. جيت بالتاكسي؟ يا خبر على كلّ حال أنا زعلان منك كان لازم تجول لكن اهي لُجمة، بصلة المحِب إيه؟ خروف... يا أهلاً وسهلاً، ولم يأكل معي، كانوا قد تغدوا من الصبح، والله زمان والله زمان يا أستاذ، سعدية تجوزت وعايشة مع ابن عمها، ابن برسوم، فاكْرُه، في كفر الدوّار. يا أُنسية تعالي سلّمي على ابن خالتك، الولاد، ماانت عارف، واحد في الجيش واتنين في بلاد برّه، ربّنا يحرسهم ويرجعهم بالسلامة.

لم أر دخان الأفران ولا الكوانين يصعد في الهواء ينقّيه الشجر، واشتكى لي عمّي فانوس وقال إنّ الفِلاحة مضروبة وأنّها مهنة منقرضة، يوميّة الفلّاح الشاطر الآن بالشيء الفلاني، وسمعت وشيش التلفزيون والفيديو وظَلَّ معي حتى قبيل الفجر. أعمدة الكهرباء الطويلة الجديدة ظلت أيضاً مشتعلة المصابيح طول الليل حتى الضحى العالي ثاني يوم تُلقي دوائر ضوئها فوق حلقات منعقدة قاعدة القرفصاء على الأرض من الشبان والرجّالة الراجعين من العراق أو ليبيا أو الكويت الصاحين من نوم العوافي يفركون عيونهم الوخمة رؤوسهم حليقة ليس فيها إلا خيالات أفلام العواطف المتسايلة الخام وأشباح ضربات الكاراتيه والكاوْبُوي وتقلصات الأجسام الأنثوية والرجولية البلاستيكية المصنوعة تتخبّط وتنزلق في اصطدامات البورنو المصقولة وانسياباتها الخالية من أي شَبَقٍ بل من أية بذاءة حقيقية لفرط إتقانها ولمعانها ولم أر النسوان ينزلن النيل للمسقى أو الغسيل؛ عندنا الآن مواسير المياه الجارية؛ ولا يذبحن الزَفَر عندنا؛ الآن فراخ الجمعية واللحم المجمَّد؛ والمخبز الآلي يفتح كل يوم ساعتين ثلاثة. أما من فاته السَفَر وحط عليه الغُلْب فمُنْزَوٍ في خربات البيوت القديمة المتداعية وفي قلبه دم أسود.

لكن الغِربان مازالت تأتي إليَّ بخبزِ أشواقٍ غير متخمِّر قلت الغربان رسل نوح بلا عودة عيال المسيح الشموع قائمة متقدة تحت رفرفة أجنحتها السوداء تحت القبة الشاهقة تقاوم صغرها وهشاشة اشتعالها ونحول جسومها هادئة الطيران قلبها فتيلة تعرف أنها ذاهبة للاحتراق لا محالة، ولا تهتمّ، ليس لها فخر في ذاتها وإن كانت

كبرياؤها لا تنطفئ ترفع نورها باستماتة إلى سماء معتمة على عتبات الحصن الذي يقطنه المحبوب السيد الإله غير مذكّر وغير مؤنث في شرقيّة قدسِ الأقداس حصني خاوٍ الآن قد انهدم سوره وغادرته الحبيبة ـ التي قالت إنها حبيبة ـ ذوْب الشموع الآن مهدور.

أمعتم، لا نور لي في ذاتي؟
أنتِ احتياج للقلب
لا رضى له ولا إرضاء
احتياج
لا ينتهي.

٦ ـ الأيقونة

استطاع أبونا أندراوس أن يستخرج أيقونة قديمة من بين أنقاض حائط الكنيسة القِبْلي المهدوم، قال.

لم تطاوعه يداه أن يرمي بها في قلب النار التي أوقدها بنفسه، في حوش الكنيسة الترابي، من حطب القطن النظيف المسوّى وفروع شجرة النبق العريضة التي تظلل الكنيسة وتمتد فوق سور السراية، قطعها له صبيان القرية، وتركوها تجفّ وتصلب ويتحول ورقها النضر إلى يُبس له خشخشة وحفيف يحكّ العصب، قال لي حرصت بنفسي أن أتأكد، لا يكون في هذه النار قُرْص جلة ولا ورقة جرنال ولا شيء دنس.

ألقى في النار الصور الورق الملوّنة القديمة بإطاراتها المكسورة باهتة الوَقْع، ونسخاً من الأناجيل لم تعد تُقرأ بعد أن تهشمت صفحاتها من سقوط الحجارة وعمود الرخام الثقيل وخشب الخزانة القديمة المطعّمة بالعاج ـ خسارة! ـ لم يبقَ منها إلّا شظايا وفتات؛ لكنّه استنقذ كتب الترانيم الموشومة بصورة البطريرك كيرلس الخامس الكبير أبي الإصلاح، ونسخة ثمينة من السِنْكسار، والأيقونة.

قال، تعالَ للكنيسة غداً الساعة أربعة، بعد القدّاس.

فاضل فيها أجزاء سليمة تقريباً، الأجزاء الأخرى راحت تعالَ شُفها، خذ ما يصلح لك منها إذا أحببت. ناقصة صحيح لكن فيها ما يفيد.

أخذت منها بضع ملازم مفكوكة من تاريخ الأمة القبطية وكنيستها تأليف السيدة أ. ل. بتشر الإنجليزية، في الصفحة الأولى قرأت أن ثمن جميع المجلدات أربعون قرشاً صاغاً طُبِع على نفقة صاحب جريدة مصر سنة ١٩٠٠ افرنكية الموافقة سنة ١٦١٦؛ وبضع صفحات من «رتبة الاكليل الجليل حسب ترتيب الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المرقسية»... على نفقه القمص فيلوثاؤس المقاري مطبعة القديس مكاريوس بمصر القديمة؛ ونصف كتاب «اللؤلؤة البهية في التراتيل الروحية والمدائح المتداولة في كنائس الكرازة المرقسية» الطبعة الثامنة سنة ١٦٣٧ للشهداء موافقة ٧٤١٣ للخليقة و ١٩١٣ للتجسّد ميلادية شرقية على حساب الأقباط والأحباش و ١٩٢١ ميلادية غربية و ١٣٣٩ للهجرية؛ من أجل هذه الصفحة وحدها أسعدني أن آخذ نصف الكتاب الباقي بعد أن مزقته انهيارات الأحجار.

تركتُ أبونا أندراوس يلّم بحرص رماد موقدته، في طبق جديد من الفخار خشن السطح مسامه مازالت مفتوحة ونيّئة اللون.

سوف تجرفها المياه الجارية.

عمي جورجي عريف الكنيسة كان واقفاً على الباب، لا يدخل.

عندما عرف وقع خطوي قال لي مساء الخير يا سِيدْنا لَفَنْدي. على مِهلك. اوع تندبّ زيّ عمك جورجي خلكّ دايماً على مهلك.

قلت في سرّي: نعمة الاندفاع دون رويّة.

كان خيالي قد اشتعل بزياراته الخفية المعلنة في آن للست جِنينة.

عازف القيثار الأعمى الذي يتخذ مكانه على شمال الهيكل.

اللصّ الشهال.

خلع طربوشه عن شعر رأسه الجعْد الخشن القويّ، طوّقَ عنقه بعقدٍ من الريحان الطازه والعِتْر البلدي.

يضرب بالمثلث النحاس والصنوج قرقعة الموسيقى وترنان الجلجلة في الحَرَم القدسيّ ترنيم القرد العليم تعشير البقرة حنحور تحت النبقة العظيمة الثور الفحل يثب مرة ويسقط عنها ثم مرّة أخرى التفّ الصبية والرجال الثور ممسوك بحبل ممدود مرخيّ ضُربت تحت قرنيه عصابة من قماش ملّون خشن فيه البشنين الذي شحبت أوراقه الناعمة وقامت زهرته الشرسة شبق اليدين وحدهما عينان ليس إلا ضربة الجسم الجسيم الحاد المندلع يحيط بعجينة أنثوية مُرَحّبة تفيض عن ملء القبضتين تغوص تحت الساقين المهاجتين المرأة الهائلة الأنحاء الهارب المتهك تتهل تهاليله بأوتار مجده اللانهائية متوترة مقطوعة تأخذ إلى حضنها العاجزين والمعطوبين والمعلولين لا عن شفقةٍ فليس عندها شفقة بل ضراوة الشَبَق ولهفة الاستغواء والإرضاء بل الإشباع وشهيق الامتلاء وكأنني سمعت في عتمة صنع الحب ـ أُشارك فيها ـ أنين الحب وزحير الحب أُووه حاسِبْ إوِعَ ياراجل والقرار السحيق يابِذْعك يامَرَة ياجبايرك كِفاياك لَوَعْ ياسِتّي يتلمس لها مجرى الحب في جسم الهُولة المعطاء إذ اندلعت بها نار الشهوة والتحقيق ويسقطان في الجب.

وكأنما قيل:

لا تدع قلبك يذبل

لَا تتبع إلا وصايا شهوتك
ضع تيجان النيلوفر على رأسك
طوِّقْ بأزهار البشنين عنقَ أختك
قبل أن تصل ـ لامحالة ـ إلى شاطىء الصمت.

في العتمة التي سقطتْ على الصحن الخاوي الفسيح، بعد الظهر الغائم المشوب دخلتُ.

كان صحن الكنيسة موحشاً.

لا تكاد تنيره الشموع القليلة وهي تشتعل بصمت تحت الأعمدة الرخامية العاجية اللون. خطر لي أنها أُخذت من معبد بوبيللو ربما من أحقاب بعيدة.

رائحة اشتعال الشمع، حس الرهبة في هذا الفراغ المفاجىء الذي يبدو لي بدائياً. خشبياً، يسانده رخام قديم.

وكأنني في الصمت المحيق أسمع همهمة مكتومة لا أتبين مصدرها، وكأنه بكاء مدفون يصدر عن تربة مسدودة، نهنهة رجولية مهزومة لا أمل فيها، تُنتزع من روح لا تجد عزاء ولا راحة، أو هكذا ظننت.

ليه بس ياربّ، ليه؟ داني عمري ما جُلت لأه لبشارتك يارب المجد. عمري ماودّرْت اللوميّة في البحر الكبير ولا في الرَيّاح والترع والمساجي. عمري ما حُشْت الحليب من فُمّ الرضيع اللّبّاني سَوَا عِجْل ولا ولد أو حتى بتّ من صُلب راجل وبطن مَرَة، عمري ما وجفْت اللوميّة الجاريه عمري ماصدّيت حدْ عن نار الكانون عن

وَجيد الفرن ليل ولا نهار على حدٍ سوا، عمري مازعَيت في حدّ نصراني ولاّ مسلم على حدٍ سَوَا، عمري ماطفيت شمعة مِنْجادة يارب، عمري ماحشّيت زرعة مرعرعة بالغصب من أرض جار ولاّ خصيم على حدٍ سَوَا، عمري ماعُنت الشر في جَلْبي يارب طَبْ ليه بجى؟ ليه؟

ليه تحشّ جَلْبى؟ ليه؟

رأيت الأيقونة التي قال أبونا أندراوس إنه إخرجها من بين أحجار الهدد، قال إن زجاجها قد سقط عنها، كله، مرة واحدة، كأن يداً قوية باترة نزعته بحدوده الواضحة القاطعة، قال.

رأيت وجه المسيح، قاتماً، عيناه مغمضتان، تجاعيدُ عَبْر العصور غائرة في صفحةِ الأيقونة الخشبية المعتمة، تتخايل على سطحها الزيتيّ المسودّ أشعةُ الشموع الصغيرة مهتزة نيرانها تحتها، التفّ إكليل الشوك غامض المعالم برأسه المعذّب بأثقال لا قِبلَ بها.

كان يسوع يبكي بكاء جافاً قاحلاً لارِيّ له. دون دموع، دون صوت تقريباً.

رفع رأسه إلى أعلى. وجهه في الأيقونة المهشّمة ينظر إلى وجهه الأخر بين يديه جاثياً على بلاط الكنيسة العاري، لفّ رأسه بكوفية ترابية، داكنة شائكة الملمس، جلابيته ساقطة على الكتفين العظميّتين، هيكله تحت القماش العتيق مشدود، حتى في جثوّه منصوب كأنه مازال مصلوباً ليس فيه انخزال ولا تهدُّل، حتى في هذا النشيج الذي يصعد ببطء، دون تفجُّر، عن طبقةٍ خفية تحت

الأرض، من مضض الشقوة وإيجاعها، يسوع في عذابه الأرضيّ، ليس في مجده، دموعه تسقط من الأيقونة، قطرة قطرة، على بلاط الكنيسة.

رأيت يده الممدودة الموشومة بالصليب الأخضر المورق، يده المثقوبة بآثار المسامير الكبار، تمتد بحنوٍّ ومهابة يضعها على الرأس المرفوع إليه.

كان الوجه المظلم مقدَّداً جافاً متقبِّضاً بعذاباتٍ لن يعرفها أحد أبداً.

فلّاح الطرّانة القراري، القبطيّ الذي نسيه العالم، مضروباً، من هضّ الأيام بلا هوادة. ليست الموازاة بل الانصهار. الرأس ملفوف باللِبْدة وفوقها الكوفيّة القاتمة، تنزل منه أخاديد الكدح وهموم القلب شقوقاً سوداء. الأيقونة المستنقذة من بين الأنقاض.

في داخلي أَكُتُّ وأفورُ من الغضب
ليس من الولاء. ليس من التقديس.

أتستمر هذه الأيقونة مدفونة، نابضة بالألم، مشققة، خفيضة، ولكنها لا تُقْهر؟ أم تنحسر، تغيض، لا يبقى إلا نسيج الخشب الأسود، منكوراً: هل يتقدس من تمتد إليه اليد المسحوقة العظام، تقطر بالدم، قطراتٍ مدورة، كبيرة، منفصلة، لها رنّة مكتومة على البلاط العاري، قطرة وراء قطرة؟

هل يمتلئ حياة، وبركة، أم يضربه القحط والصمم؟

هل نسمع معه الكلمة المُحْيية؟ ما هي؟ أم يرين علينا العمى أمام

بشارته المرسومة بالتِمْبرا من يدٍ تعرف كيف تعزق التربة بالفأس أكثر مما تعرف كيف تمزج صَفَار البيض بنشوةِ القلب السكران؟

ليس الوجه فقط.

بل الجسم الضاوي العنيد كله، متكرراً بلا انتهاء على هذه الأرض التي تتكرر فيها البشارات، واحدة إثر الأخرى، مُحيية، بلا نهاية، وبلا تحقق.

تراتيل المارب وصدْح الناي وإنشاد الصنوج وترداد الذِكْر وخمر الدراويش وسقسقة المنحوتات المفهافة وخشخشة علب السافو والرابسو والصوابين وصخب إعلانات التلفزيون جارحة وبذيئة ومتذبذبة الكهربات وكراسي التخت حول هزات متلاحقة بطن راقصة تحفّها مواسير مصابيح النايلون وأنابيب الفوسفور والفلورسنت الرفيعة حمراء وزرقاء منعكسة على مياه جامدة في برك الغطْس المعقّمة بالكلور حجارة العصور الحديثة أيضاً تسقط في لغة غير متماسكة ومفضوحة الشفرات ضربات الخشب وصرخات فتيات مصعوقات بالثمل وقرع الطبل وترجيع الكروان بلا توقف في دفق الضوء البدريّ شقه ساطع وشقه دامس كل الثيولوجيات كل الأيديولوجيات صيحات بيغاء ثاقبة وغضارة زروع خشنة صبّارات هائلة ممدودة الأذرع أخطبوطات شائلة متلهفة للاحتواء والإماتة في حضن عشق لا عورة فيه ثقب السرّة في قلب بطن ناعمة عجينيّة اللون والملمس سَمَكة سابحة عين ثاقبة ذهبية مسفوحة بلا غمض سلالم حديدية صدئة نضبت كهرباؤها تنزل منها إلى سرّة محطة الرمل تحت الأرض وروائح الطماطم والبامية والفلفل الأخضر الوارم خِصيّ

مصنوعةً عطِنةً قليلاً نفْث اللحم الأشلاء المثلوجة تدينك بلا طعن من خطاطيف مثلثة الأسنان تغوص في لحم البحر تنبثق على جانبيها أزهار حمراء صغيرة ناضرة ورقيقة هشة عليها ندى الدم وقطرات الدمع المدورة على قُبّتيْ الثديين الصغيرتين وقُبّة البطن الكبيرة وجُوه الأيقونات وجوه مساجين طره وأبو زعبل وأقباء المباحث وسراديب كاركالا والجُبُّ المعتم تحت أرضية فاس دمشق طلبطلة القلعة صنعاء القدس يفوحُ بنتن الجسم المعلق اليدين والرجلين بكلّابات الحديد بصنان البول وحرافة البعْر البشريّ المتصلب المتراكم يسقط عليه الخُرْء الجديد لا تنفكّ الأصفاد إلا لفتحةِ القبر بلا نُصُب ولا اسم ولا شواهد فاتحة الكتاب من قلوب رحيمة وأبانا الذي في السماوات مُتَمْتَمةً جِرْصاً ألّا يسمعها الكُردينالات الحُمر وألف ألف وجه مضروب من غور الأزمان إلى لانهايات الأفق متراحمة بنفس المقاس سوداء فيها خطوط رمادية وعيون مفتوحة مسفوكة بلا نطق ولا شهادة الطرق الإسفلت الواسعة نظيفة السواد تمرق عليها المرسيدس والفولفو ونصر فيات تخفّ بها هفّة الهواء المسحوب سريع الانطفاء ألف ألف ألف وجه متطابق سقطت عنها كل الأمجاد وكل أكاليل الشوك غبيط السباخ الكَفُوري معكوم عَكْماً مُحْكَماً على جانبيْ الحمار الأملح ضارب اللون إلى شُهْبةٍ مرقّطةٍ آتياً من عند أبوللو العريق مستوفِزاً على الذل والكدّ والعنت بالشَبَق الذي لا يكلّ نحو كلّ أتانٍ قارّةٍ في الغيط أو مارّةٍ على الطريق.

طِراد الأخيلة، الجري وراء الأوهام.

تنبه جدي ساويرس فجأة أن حُقّ الدخان قد فرغ، فأرسلني آتيه

بحُقِ جديدٍ من عمي شنودة البقال، كما كان يفعل لما كنا نسكن بيت شارع ١٢ في غيط العنب، بالليل أيضاً. كنّا بعد أذان العشاء، وكان أبونا أندراوس وعمي جورجي وعمي سلوانس كلهم روّحوا. قال لي الحَقْ لحَسَنْ يقفل الدكانة، وكنت أعرف ظلمة أزقّة الطرّانة بالليل، كُحْل، وكان لقلبي وجيف واضطراب قلت ياواد اجمد عيب ولكن الليل حالك غطيس، القمر غائب وحتى السماء بدت مسدودة وثقوب النجوم الدقيقة غير فعّالة، حيطان البيوت واطئة سوداء مهدّدة، سدّ كلها، ليس فيها كوّة نور.

أتحسس الأرض بقدمي في الحارة الضيقة المتلوية على نفسها أحاذر أن أندبّ في روث لينّ أو أخبط كومة تراب صلبة، أمد يديّ أمامي، وإلى جانبيّ، أستمد من الحيطان المصمتة سنداً. يجابهني فجأة جدار يقفل عليّ السكّة، فأدور جنبه، متلمساً. الطريق لا يخلص، لا ينتهي.

أحسست بجانبي أنفاساً حارة.

عرفتُها.

حضوراً مجسماً، لهفة سُخنة، وكأنني رأيتها في الظلمة المطبقة.

حميدة البرّصا.

هي. هي. ليس عندي أدنى شك.

لكنها ماتت، اختفت. انقضتْ.

ألم تمُتْ؟

رآها المعلم شنودة نفسه، وحلَفَ. رآها طافية على مياه النيل،

منتفخة، طَرْحتها السوداء نصف غارقة في الماء، ومشى بها التيار خارج البلد.

بجانبي.
أنينها الخفيض المليء، خاضعاً ومتوجعاً، متطلباً، مثيراً.
تعرج قليلاً، مازالت، لكن بشرتها ملساء، مصقولة.

وشفتاها على شفتيّ، طريّتين، ناعمتين، رضابهما حلو قليلاً. أصابعها المكتنزة نوعاً ما ممتلئة باللحم الغضّ تمرّ على وجهي، برقّة وحنوّ، وهي تقبّلني مازالت، جسدي كله قشعريرة واحدة، وأنا أحتضنها إلى صدري المشعوف.

قالت لي - هل قالت؟ - بصوتٍ خافتٍ جداً واضحٍ مع ذلك وبه نغمة قليلة من السيطرة، وبلّوريّ الجرْس في خفوته الشديد، كأنه همس حميم: ياضنايَ، ياخويا.

قال لي عمي شنودة: ياخبرا خير ياسيدنا لَفْندي؟ فيه حاجة؟ دانت وشكّ كركُم وعَرَجَك مَرجَك، تعالَ، تعالَ يابْني، كلّ خير؟ طيب. ما فيش حاجه؟ بالكليّة؟ طيب، خُجّ الدخان لجدك ساويرس؟ حاضر يا سِيدي. عَ النوته؟ عَ العين والراس. أمرك وأمر آبا ساويرس يا سِيدي. سلّم لي عليه جَوي وجُلْ له يخشخش جيبه، جايٍّ له في الطاولة مانيش عاتّجه.

قلت لنفسي مَنْ قال إنه وحده في وحشة الظلمة بينما هو يحمل عبء المحبة لا يحس له وزناً، فهو الآن في النور.

قلت لنفسي يا ليت.

قلت لأبونا أندراوس لماذا لم تسمح لامرأته أن تدخل الكنيسة تصلّي معه؟ كان حزيناً جداً، ووحيداً جداً.

لم يكن له اسم.

قال لأنها كانت ولدت بنته تلك التي ماتت منها، بعد أن ولدتْها بسبعة أيام.

قلت الحدأة التي تنقضُّ كلَّ مرة على البرج القديم، تفترس، مرة بعد مرة، بنتَ المركب المضيئة التي تخوض الليل.

قال لأنها لم تتطهّر من دم نفاسها، والكتاب يقول: «إلى المقدس لا تجيءُ حتى تُكمل أيام تطهيرها. إنْ ولدتْ أنثى فلتكن نجسة أسبوعين وستة وستين يوماً، تقيم في دم التطهير، لا تدخل إلا بعدها، ثمانين يوماً وليلة». بعدها فقط ألقي على رأسها صلاةَ التحليل «نسأل ونطلب منك يا محب البشر لكي تتطلع إلى أَمَتك حتى يتجدد روح قدسك في أحشائها. حالِّلها هذه التي جاءت تشتهي أن تدخل إلى موضع قدسك» حتى أمنا مريم العذراء، وهي التي حبلت من غير دنس الخطيئة، ولدت المسيح من غير لوثة من بابٍ لم يُفَضّ، حتى هي البتول، لم تدخل الهيكل إلا بعد أربعين يوماً، حتى تستحق شركة الأسرار المقدسة.

سألتُ: لماذا أربعين يوماً فقط؟ لأنه يسوع؟

قال بغضب: لا.. لأن يسوع كان ذَكَراً، الأنثى بعد ثمانين يوماً، والذكر أربعين فقط. عقاب لجنس المرأة، ألم تأكل قبل آدم من التفاحة؟ أغوته بالخطيئة الأصلية. ألم يقل لها الرب بالوجع تلدين إلى رَجُلك تنقاد أشواقك وهو يسُود عليك.

مَنْ جمع الريح في حفنتيه؟ مَن صرَّ المياه في ثوب؟

الكـلّ يُنسي ويمضي. لماذا طِراد الأحلام والجـرْي خلف الأخيلة؟ لماذا، طيب، أُوقِدُ شمعاً سوف يخبو؟ وأوقده بقلبي؟ أو كما قال.

لماذا ـ طيب ـ أحاول أن أغنيّ في وجه الريح، لا صوت لي، ولمـاذا كتبتُ على الرمل في الجزيرة، جنْبَ زَرْعة البطيخ الذي لم يستو بعـد؟ قلت الحسن غش، قلت الجمال باطل، ولم أصدّق ولا لحـظة واحدة. أما دموع المظلومين فتجـري مع الأنهار، دون أدنى أهميـة. أما كـأس الفرح فتتطاير زَبَداً أشقـر في الشمس. والأبراج والصروح تـرابٌ إلى تراب وقلوب الأنبياء مدفونة تحت حماقـات العالم. لمـاذا خراب النفس ولماذا الموت؟ قـالوا مـدينة متهـدمة بـلا أسوار الـرجل الـذي ليس له سلطان عـلى روحـه. روحي هي السلطان. جسـدي هـو السـلطان. وحبي وشهـوتي ولهفتي للمستحيـل خـطوط عـلى رمـل الشطّ، الحب المستحيـل العـدل المستحيــل. لكني لا أني ـ لا أني ـ أرسـم الخطّ تلو الخطّ. لا أني أتوق للشفاهِ التي كـسِلْكةٍ من القرمز والعيون التي كالحمام. الجمال وليمتي وأنا منهوم. جراح المحبة أمينة، صحيح، ولكن لا شفاء لها، لا ترمّ. وارحمتا للذين يتقلبون على الفراش، هل الرحمة ثورةُ الحكيم أم عبث وخور؟ أتسمع الأنين؟ ماذا يهمّ؟ أما سئمتِ من فيض الروح، من البوح العقيم؟

أصــوات النحيب تضرب أســوار الــزمن، وتحجب الشمس عن الخَلق، أشعار الرثاء فوق سماط الحزن الـذي تُقدم عليـه ألف زبديّـة من العدس الأسود والعـدس المصفّى والمُلوحات والمخلّلات والألبـان

الطازجة وعسل النحل، والخبز والفطير المصنوع من الحلبة والشعير ارمدّ لونه في البكاء والإنشاد وطلب الغفران من الإثم العظيم بذبح الوز والبط والفراخ والتوسعة على الغلابة والعيال والدخول في خيمة الخمر والحنين إلى رؤية الباب وسكب السكّر المذوّب ورشّ السكّر المذرور ورشق النُقل وغرْس الجوز واللوز وفرْش الفول السوداني المقشّر اللذيذ على البليلة العاشوراء الذئب يرفع رأسه إلى القمر البدر ويعوي إلى إياح تحوتي رسول الآلهة وحامل اللوح المحفوظ يوم المعرفة يوم التقى آدم وحواء ورأيا أنهما عاريان يوم خرج نوح من فلكه الكبير بعد رسالة الغربان يوم استشهد إمام العاشقين.

عندما خرجت من المعتقلات بعد ذلك فيما يبدو لي بأحقاب طويلة عرفت أن جدي ساويرس قد مات في الطرّانة ودفنوه في بوبيللو، لم أكن قد رأيته منذ سنوات، كدت أنسى وجهه العريق الذي لوّحته وصوّحته شموس أيام لا عداد لها وهو يرقب بصبرٍ سنارة الصيد على الملاّحة في اسكندرية وعلى الريّاح البحيري في الطرّانة.

أيام مجده كانت قد ولّت من زمن وعاد للطرّانة مكسوراً كما ينكسر الرجال.

فهل كسرته أيضاً زيجة خالتي سارة - لم أحضرها ولم أكد أعرف بها - من عاملٍ في فابريكة الغزل في كرموز، اسمه جرجس رزق - سمعت أنه كان صاحب كيف ولما اعترضت خالتي سارة على قعدات الحشيش في غرفتهم الواحدة في غبريال، ضربها مرةً بالقلّة، وفتح رأسها، وراحت المستشفى الميري وعملت له المحضر والذي منه،

وغضبت منه إلى بيت أخيها الصغير خال سوريال وراح يصالحها ويستغفرها ويبكي بالدموع وعادت إليه وضربها مرة أخرى وأخرى، كلما طيّرت من رأسه الشويّتين بالنكد الذي أصبحت تجيده، وكان لا شك يحبها جداً، بطريقته، لذلك كان يضربها ويصيبها كل مرة إصابة جسيمة وتدخّلتْ الكنيسة وأخذت عليه تعهداً على يد القسيس ولكنه ظل يضربها ويغاضبها ويصالحها حتى مات مبكراً بعد أن خلّف منها ثلاث بنات وولداً واحداً.

وبعد موت جرجس رزق سافرت خالتي سارة إلى أسيوط بعد أن كانت عرفت سِكّة الإرساليات البروتستنتيّة والكنائس الإنجيلية وكأنما نفضت يدها من الأرثوذكس جميعاً، استدعاها وأغواها البروتستانت وأدخلوا أولادها مدارسهم وأحسنوا إليها فعرفت خدمة الله وحفظت الكتاب ورطانة الدعوة والعزاء في الرب وإذا بها واعظة مبشرة تجوب البلد من بور سعيد إلى أسوان تسافر وليس في يدها إلا الكتاب، وحقيبة يد فيها فستان أسود آخر وغيار واحد. لم تعد تلبس إلا الأسود ولا زينة لها إلا عقد جلدي في آخره صليب خشبي كبير ليس زينة بقدر ما هو استعلان، وكان المسيح يكلمها ويدعوها للسفر إلى دمياط، أو قوص، أو منوف وهي لا تعرف أحداً فيها فتسافر على الفور، بالقطار أو الأتوبيس أو التاكسي بالنَفَر وتسأل عن المسيحيين وتدخل بيوتهم وتعظهم وتكلمهم بالكتاب وتبيت في بيت أحدهم ولا تتورع عن أن تؤنب ربّ البيت أو أحدَ أهله إذا دخّن سيجارة أو فتح التلفزيون. تحيا حياة الرسل وتعمل أعمالهم.

ثم بدأ المسيح يدعوها أن تذهب إلى بيروت أو بغداد أو عمان فلا

تتردد لحظة تُدبِّر ثمن الطائرة وتذهب ليس معها إلا حقيبة يدها تلك والكتاب. قلت لها مرّة، فيما بعد: لكنْ خالتي سارة هل يأتيك في الحلم ويقول لك؟

قالت لا، وأنا صاحية، يكلمني كما تكلمني أنت الآن، أعرف صوته. المجد لله، الشيطان يجرّبني أيضاً، ويكلمني بصوت يسوع، لكني أعرفه على الفور، وأخذله دون تفكير.

وفي غمار لجج حياتها التي خاضتها بسلامٍ روحيٍّ على اصطخاب أمواجها ماتت بناتها الثلاث بعد أن كبرن، وتزوجتْ اثنتان منهن وتركا أحفادها عند البروتستانت، وهاجر ابنها الأصغر، روماني، واستقر به الرحيل في البرازيل، وكان صغير الجسم وكله حيوية وعينان مليئتان بالخيال، وكتب لي بطاقتين بريديتين، ثلاثة، وزارني منذ قريب وحكى له حكايات عن مزارع وهاسِيندات شاسعة يقطعها على صهوات خيول مطهمة وعن ڤانديتات دموية بينه وبين عائلات إقطاعيّة عريقة يُضرب فيها بالرصاص، وتُحضّر السموم وتُسكَب في الكؤوس وتُسخَّر الجنّ وتُستحضر الأرواح الشريرة؛ وهو يهزم كل المؤامرات؛ يقولها بلهجة من يروي وقائع يومية عابرة بالصوت نفسه الذي يقول به إنه اشترى أناناس من السوبر ماركت في ريو دي جانيرو بما يساوي خمسة قروش أو أقل وإنه ركب تاكسي إلى ضيعة الرجل الذي كانت بنته تحبه - هو روماني - وتتحدى أهلها وأهل خطيبها من أجله، وتحبط كل الشياطين التي تحيق به في نومه، وكان مقنعاً جداً وبسيطاً جداً وهو يحكي لي ذلك كله لأنه كان مقتنعاً به ويعرف كثيراً من حِيَل السحر الأسود. لكن ذلك كله كان من عهد

قريب، وكان جدي ساويرس الذي لم يره روماني قط قد مات قبل أن يموت جرجس رزق زوج ابنته التي كان يؤثرها، فهل انكسر قلبه لأنه رفض زواجها من فانوس الرجل الوحيد الذي كان قد أحبها؟ لكنه ظل - حتى لحظة موته - قائم العود ورافع العينين لم يخفضهما لأحد قط - قال لي عمي فانوس. وفي غمرة اضطراباتي وأنا أبحث عن لقمة العيش وأقف مسحوراً أمام أشواق الحب وإطباق اليأس، لم أكد أعير خبر موته اهتماماً.

الآن أعود فأرى رأي العين أيقونةَ يوسف النجار، أم هو القديس مرقس أم بطرك قديم، استنقذها أبونا أندراوس، من الهدّ، أم حملها ملاكان طائران يُحلّقان في أصقاع جسمي، من بين الحجارة المنهارة المتراكمة، وقد اسودّت معالم الوجه العجوز الذي مازالت روحي تستضيءُ بقتامته في قلب إطارها البيضاوي قديم الخشب ضرب فيه السوس ونخرب فيه القِدَم، مشقّق تعرّجت فيه خطوط دقيقة غائرة. على الأرض، بجانب الفجوة المفتوحة في الحائط القِبْلي، يسقط عليها نور جارح من نهار مقيم ليس له مساء. شقوق الجسم العاري المطحون بعذاباته غير المهمّة.

قالت لي أمي إنه بعد موته، وأنا في معتقل الطور، راحت للطرانة، يوم النصّ، في منتصف الصوم الكبير يعني قالت لي، لتطلع التُرَب.

عندما وصلوا إلى بوبيللو، وبدأت البنت الفلاحة التي تشتغل في بيت ستي أماليا توزع الرحمة والنور، قراقيش ويلح إبريمي، على عيال

الفلاحين وعميان الطرّانة، نصارى ومسلمين، تسللت بينهم بتّ بَرْصا، باستكانةٍ وصمت، فأعطتها البتّ الفلاحة نصيباً من البتّاو السخن من خبيز الفَجرْ وكبشة تمر أكثر من الآخرين قالت لي أمي هل تذكر حميدة البَرْصا؟

كان جدي ساويرس واقفاً. معه عصاه المعقوفة اليد المصنوعة من خشب الجوز اللامع، على رأس تُربته المبنية من الطوب الأحمر المطليّ بالأبيض، ولها قبة صغيرة، قالت أمي، وكان هادىء الوجه ينظر إليهم بنوع من الحنوّ الجاد. هبّت إليه ستي أماليا، ملهوفة، لعلها كانت تريد أن تضمّه إليها للمرة الأخيرة، ربما، قالت أمي إنهم كلهم سمعوه يقول بصوت واضح، له رنين: مكانك يامّ يونان. ماتهوّيش يميّ. لسّه الأوان يا أماليا لسّه الأوان.

ثم ذهب.

الأيقونة الواحدة المتكررة. إنجيل مَرْئيٌّ، آلامه كِسَفٌ يرين عليها الظلام وينجاب ثم يطبق من جديد. نورها مطلق أرفضه.

شقوق الخشب العاري، شقوق الجسم المسحوق غائر بالتعامة. سَمْتُ السياحةَ في الأرض وفي المساء. إلام أوْبتي؟

أسياحةٌ متصلة في أصقاع الحلم والحنين، في أغوار الداخل ووهاده ونجاده الصلدة؟

أم تثوخ أقدامي في غمار قلبي غير الواضحة؟

الأيقونة في الصمت تهتز تتخايل لي فوق شمعة واحدة. وجهه العجوز فيه بقعة سوداء من حَرْقٍ قديم، ومخدّد بالتجاعيد. ابيضّ

الآن ونوّر بالمحبة. ستي اليصابات أمّ يوحنا ستي أماليا أم يونان طالما وجدتُ في صدرها الذابل حناناً خاصاً لم أجده في صدر امرأة أخرى.

هل ينسى هذا الطفل الصبي الكهل ممزق الجسم والروح، حتى الآن، رغيفَ البتّاو الصغير والمدوّر الخارج لتوّه من الفرن، فوح رائحته النفاذة الشهية من دقيق الذرة والحِلبة، مرشوش بحبة البَرَكة الدقيقة السوداء، وهي تفرش له وجه الرغيف المضرّج الطريّ بطبقةٍ من الزبد طازجة وكاملة تسيح وتمتزج بالخبز الذي يلمع الآن ومايزال يستطعم مذاقه ونكهته حتى الآن. هل ينسى حضنها الضيق الذي لم يجد قط أكثر منه دفئاً ولا نعومة، دموعة التي لم يملك أن يحبسها، وهي فقط التي تَربُت بيدها الحازمة الحانية على رأسه، برفق، بصمت. هل ينسى دعواتها يجعلْ لك في كل خطوة سلامة ويحبّب فيك خَلْقَه يا بن بنتي، يسوع يباركْك، العدرا تحرسك في كل سكة. وهل ينسى كيف كانت تحكم بصرامةِ المحبة وسطوتها بيتَ غيط العنب الذي يعجّ بأخواله الثلاثة يونان وناثان وسوريال وزوجتيْ خاله إستر ومارية، وخالتيه وديدة وسارة، قبل زواجهما، وأمه التي استقلت بجانبٍ من البيت مع أبيه ذي الكِبْر ولين القلب معاً، وأخواته البنات، تسيّر هذا البيت بحكمة ونفاذ، الكَلمة كلمتها والشورة شورتها. وهل ينسى كيف انتهت حياتها في شقة خالته حنونة في العصافرة. شلّت الآن ساقُها ويدُها ويبس جسمُها الصغير، تزحف بيدٍ ورِجْلٍ من على البلاط لا تقدر أن تُنهضْ نفسها. وعمّ مقار العبد التنتون، زوج خالتي حنونة، هو الذي ينظف جسمها الضاوي وعظامها الهشّة من فضلاتها التي لا تملك الآن أن تتحكم

فيها. كيف نظرتْ إليـه، وهي مكوّمـة على الأرض مـازال في أنقاض جسمها مع ذلك شموخ العزّ القديم، وقد جاء يراها ـ كما عرف فيـما بعد ـ لآخر مرة. حدقت إليه بعينيها الغائرتين الغائمتين. لم تعرفـه في الأوّل. ظلت تحـدّ النظر إليـه كما يفعـل العجائـز، بتركيـز الرغبـة في المعرفة، دون وصول. ثم أشرق وجهها الجـافّ المغضن مرة واحـدة، وهمست إليه: يسوع يباركك في كل سكّة يا بن بنتي. هذا كل شيء. فقط. ثم انصرفتْ عنـه كأنها نسيتـه، وزحفت ببطء تسحب جسمها إلى ركن في الغرفة الضيقة هو مأواها، في الأخير، فوق هذه الأرض. أين النخلة الســامقـة في حـوش بيت الـطرّانـة الـذي يمـوج بـالأنس والحياة.

كان الولد برسوم أخو عمي فـانوس، قـد قال لي إنـه سمع من أبيـه كيف أن روزة وسـالومـة، مقـدتـين الآن ومعقـدتـين كعيدان حـطب القطن، كانتا أيام شبابهما في بهاء البدر وجمال الغزلان قلت مستحيـل قال والله هـذا ما قـالوا وانـه كانت هنـاك حكايـة كبيرة من زمـان عن آبا وهبه، أخي جدي ساويرس. قيـل أن آبا وهبـه هام بهـما معاً حُبـاً، لم يقـدر على أن يقـرّ على أيتهـما، ولا حتى أن يعـرف أيتهـما روزة وأيتهـما سالومة، وقيل إنه في الآخر كان يكلمّ نفسه ثم أخذ يضرب نفسه ثم يحدف الناس والبهائم بالحجارة، والطوب، ويهتف أنا مين؟ طَبْ أنـا مين ياوْلاد؟ قلت أين راح الجـمـال، والبهاء، وهـل يغيض ماء الحيـاة وينشف العـود، هكذا. قـال إن البنت التي كانت تخبـز لهم أيامهـا، وتملأ لهم الزلَـع من النيل، وتسرح بـالبهـائم عـلى الجسر، وتكسـح الزريبة كانت، كما قالوا، مَـرَة طويلة وسيرْحـة، وحلوة حلاوة يـاواد!

قال إنهم عندما يحكون عنها، ذَكَرَ خَضْرة التي كانت تشتغل عند خالتي روزة وخالتي سالومة، الخالق الناطق كما يحكون، قال إنها اختفت مرة واحدة، مثل خَضْرة، وإن آبا وهبه بعدما ظل يخبط رأسه في الأرض، راكعاً، يهذي ويقول: أنا الحجّ عليّ أنا.. أنا اللي عملتها ما فيه حد غِيري أنا، قال إن الكلام انتشر ثم انكتم عن أن اثنين من رِجّالة العِيلة خرجا بالليل من بيت آبا وهبه وجدي ساويرس - كانا عزبين عندئذ - وراحا ناحية بوبيللو. قال إن هناك تربة مسدودة بالطوب الأحمر والإسمنت الإنجليزي ماركة پورتلاند، لم تُفتح قط، ولا يعرف أحد مَنْ فيها. قال دول أهلنا ياواد زمانْ، كانوا بيعملوا عمايل، بلاوي متِلْتِلَة، ولا كثينْ حدّ شامم رِيحَة خالص.

كنت أُودِع الطرّانة في سرّي.

ظُهرْ يومٍ كان جوُّه خريفياً، سماؤه فيها سحاب أبيض خفيف غائم ومشعّ.

النيل، قبل الدِميرة، في مائه خُضرةٌ غنية مليئة، طحالب داكنة تطفو شواشيها معلقة في المياه السارية ببطء، زيتيّة مهتزّة، تلعب بها دوّامات صغيرة وتتشعب بها فروع دقيقة متموجة.

تحت أحجار السراية الرمادية الضخمة التي ترتفع من حافة النيل فجأة، تضربها مياهه الراكدة وتترك في منتصف حيطانها خطوطاً قاتمة لزجة الشكل، تسقط عليها أغصان ملتفة كثيفة من أشجار الجميز والتوت والنبق والمنجه، كان خروف أبيض، أعجف، صغير، صوفه مبلول مهْتدل تغسله لمّة من أولاد الفلاحين خلعوا قمصانهم المغبرة

القصيرة ولم يبقوا إلا على لباسات عَبَك متهدّلة ومبلّلة، ملتصقة بأفخاذهم السوداء الناحلة وأعضائهم الصغيرة المترجرجة، صدورهم العارية ملساء، مدوّرة القفص، مخسوفة العظام، لكن وجوههم متوفّزة بالحيوية، والشقاوة، تهضّمتْ من الجوع المستمر غير المدرك قسماتُهم السمراء الوسيمة، يتصايحون ويشتمون الأمهات والآباء بالفصيح وبمرح ومَهْيَصة لا شائبة فيها.

على السور ألحِفَة قطن وبطّانيات صوف ناصلة وأغطية مرقّعة وفيها بُقَع واضحة المصدر، وعلى سقوف البيوت الطينية المتضامّة، تحت جناح السراية، أكوام ورُصص من الجِلّة والحَطَب، حيطانها المبنية من الطوب النيء مدهونة بطلاء أخضر فسدقيّ باهت ومقشّر يبدو تحته الطين اللبِن الخشن كأنه عضويّ، حيّ.

جانبٌ من قفص خشبي مكسور على الأرض.

عشّة الفراخ المعمولة من ألواح خشب رفيعة وأعواد الجريد، تقف فوقها بطةٌ بيضاء مربوطة.

النور الشفاف شائع السطوع، ظلمةٌ مطبقة.

٧ ـ فرج العرباوي

لم يكن بيني وبين عمّي فرح قرابة.

ولكن كل الناس كانت تقول له: عمّي فرح.

كان أعرابياً يجوب ذلك الجانب الذي ألممنا به من الصحراء الغربية بالقرب من الطريق الصحراوي وعلى جانبيه، وكان يحفظ فاتحة الكتاب، ويصلّي الفرض بفرضه.

طويل القامة، قائم العود. ناحل جداً ولكنه صلب لا مكسر له.

ليس عليه إلا قميص باهت البياض ينزل إلى ما تحت الركبتين بقليل، فإذا جلس على الرمل، بانت ركبتاه سوداوين، مدوّرتين، بصابونتين كبيرتين جداً عظامهما بارزة ومتحركة، وبانت لمحة من بضاعته المتدلية، ضخمة سوداء ومازالت فيها فتوة فيما يبدو، وعلى كتفيه لفاعة من القماش العَبَك الباهت نفسه، يلفّها على رأسه ويعتمرها عمامة، يفردها وينصبها على عصاه ذات العُقَد فإذا هي خيمته وظلّته يضع رأسه فقط تحتها تحميه من وقدة الظهر وينام رجلاه في الشمس. موطنه هذا الحرّ هذا التوحّد التام.

كيف أمكن أن يبقى هذا الاعرابي العجوز الذي لم أعرف عنه شيئاً في روحي حياً أكثر من نصف قرن من الزمان؟

أحببته، أنا الصبي في الثالثة عشرة، ربما، ولذلك عرفته.

هذا الحب أبقاه.

كان يأتي من بعيد، على انحراف عن الطريق الصحراوي

الإسفلت، طريق المعاهدة كنا نسميه. يخرج من وراء الرمل، بخطوته المتوثبة شيئاً ما، واسعة الإيقاع، كأنه يأتي من لا مكان. قدماه الحافيتان المفلطحتان تدبّان على الرمل المتلهب كأنه جمل. باطن القدمين غليظ ناشف يمكن أن يدخله المسمار الصغير بسهولة، من غير أن يحس به حتى.

كان يُطبِّب للعمال الذين يشتغلون معنا، بأعشابه الصحراوية وأبازيره التي يصرّها بحرص في مخلاته الغويطة. يشفي، ثاني يوم، على طول، الحروق من أثر الزفت الساخن السايح، يوقف نقحها على الفور؛ جروح المسامير الغائرة في القدمين تلتئم؛ وعنده مراهم ومعاجين عملها وحده لعلاج البواسير، أو البهاق. للمغص أو الإمساك أو الإسهال عنده الأعشاب تنقع وتغلى وتبيّت في ماء الشعير؛ وأذكر مما كان عنده الكزبرة الناشفة وورق الأتل والخولجان وبزور البصل وعنب ديبه ولسان عصفر والعلّيق والحنظل والعنصل والنعناع البري والمرّ الأحمر والمستكة والسواك ونوّار الخيل وأوراق أو لباب الصبّار بأنواعها وشتى أشكالها.

لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يعمل الحجاب ولا يعقد الرَصَد.

كان يسلِّم عليَّ وابتسامة عريضة تفتح وجهه الغَمِق وتنوّره. يده كانت في يدي خشبة حيّة مغطّاة بلحاءٍ مشقّق. ومع ذلك فهي مطواعٌ وحسّاسة قادرة على نقل رسالة حدبٍ وحبٍّ غريب.

يجلس على ركبتيه، دون أن يقع على الرمل، ثابتاً دون أن يتعب أو يهتزّ، أمام الخيمة الكبيرة التي أنام فيها أنا وخالي ناثان، ونضع

فيهـا المؤونة وكـلّ شيء ـ مقرّ قيـادة الترحيلة يعني ـ عـلى مقربـة من عرض الطريق الصحراوي، جلسة مستريحة مطمئنة، وإن كـانت بينه وبين الأرض مسافـة شبر أو نحـوه، يلفُّ آخر مـا عنده من دخـان في ورقة بافرة رقيقة شفَّافة تقريباً مشوبة بالبياض الخفيفٍ، يصنـع لفافـة رقيقة جدًّاً يلصق طـرفها بـطرف لسانـه، ويطلب مني عـود كبـريت، ويدهشني ـ كعادته ـ بأن يحكّه في كعب قدمه، وهو جـالس القرفصـاء مستنـد الآن عـلى قـدم واحـدة، لا يلمس الأرض، ودون أن يفقـد توازنه الحرج لحظة واحدة ـ فيما يبدو لي ـ يشعل رأس الكبريت بشطَّة واحـدة في الجلد النـاشف الصلب، ويبتسم عن نـاجـذيـه الكبـيرين الأصفرين ابتسامة طفليّة نوعاً ما ويعرف أنه يبهرني بلعبة غير مألوفة.

يفكّ عقدة المخلاة الكبيرة المعلَّقة على كتفه، ببطء، ويستخرج من إحدى الصرر الكثيرة حفنـات من التمر النـاشف، متواضـعٍ عليها، فأعطيه حُقّ الدخان أبو غزالة بورقه الأخضر الـداكن الطريّ، وفـوقه مشط ورق البافرة، من الرفّ الخشبي الذي يحمل بضاعة المؤونة، في باطن الخيمة.

في أوّل صيف ١٩٣٩ قال لي خالي لماذا لا تأتي معي في الـترحيلة؟ تتفسّح وتتفرّج وتكسب لك قرشين بالمـرّة؟ وكتب لأبي في اسكندريـة فقال له: بها وأكرِم على شرط أن تأخذ بالك منه، الخال والد. قـالت ستّي أمـاليا: إوعَ عليـه يا نـاتان دا بْن الـدلّوعـة دا أمانـة في عينيـك يابْني، فقال لها خالي: يامّه دا راجل.

أمّا لندة فقد سهرت قليلاً عندنـا ـ يعني في بيت جدّي سـاويرس ـ لغاية أذان العشـاء، وعندمـا روّحت ليلتها سلّمت عليهـا باليـد، ولم

تكن تلك عادتي بل أكتفي بـ «مساء الخير» أو «سعيدة» فتردّ بصوت متقطر بالحلاوة والمشاكسة المستكنّة، بلهجتها الفلاّحي: «يِسْعد مِساك يا خويَ» ليلتها ضغطتُ على يدها قليلاً، أمسكتها أكثر من المعتاد ربّما ثانية واحدة، ونظرت إليّ على غير عادتها نظرة ثقيلة صامتة، متواطئة، فيها اعتراف.

أمّا رحمة فلم تكن قد انتظرت، ولم أغفر لها ذلك قط، لعلّني لم أنسه حتىّ الآن. وأسأل نفسي ألم يكن في هذا اعتراف أعمق؟

خالتي وديدة وخالتي سارة وستّي أماليا كنّ صاحيات، من النجمة، عندما استيقظت من نوم قلق متقطّع، ودسّت خالتي وديدة في جيبي حبّات كراملّة ملفوفة في ورق «زبدة» وهي تقبّلني، فتذكّرت أيّام شارع ١٢ في غيط العنب، وقبّلتني خالتي سارة على فمي قبلة صريحة، وأخذتني ستّي أماليا، في حضنها الجاف الضيّق الذي يفوح برائحة دخان الفرن وحليب الجاموسة، ما أحنّ هذا الحضن وما أطيب ضمّته، وقالت بخفوت كأنها تصلّي في كلّ خطوة سلامة ببركة يسوع وخيّل إليّ أنّني سمعتها تهمس «يا حبيبي». لم أصدّق ما سمعت لأنّها لم تناديني قط من قبلها ولا بعدها بلفظ الحبّ ـ لا هي ولا أمّي ـ كأنّ المناداة به عيب أو ضعف لا يغتفر، عندنا نحن القَبَط الذين على قدّ حالنا. لم أسمعه من امرأة بعد ذلك قط إلاّ ونحن على رأس سلالم عريضة قليلة في مدينتنا الأولى التي تقع في لا مكان، ولا زمن فيها، وسحاب الصبح الشفّاف موسيقيّ ومنمنم، عندما قالت لي: «أنا تحت أمرك يا حبيبي». قالتها في لغتي، لغتها.

أمّا في الظهر فقد كانت خالتي روزة وخالتي سالومة قد جاءتا

للبيت، وقالتا لي بصوت واحد تقريباً: رايح وادي النطرون بكره مع خالك. جاتْ لك على الطِبْطَاب يا بن بتّ أماليا، مع السلامة. وربّتتا على كتفي بأيدٍ حشبيّة.

قلت كان الانتقال بضعة عشر كيلومتراً مايزال سفراً، واغترابا.

قبل طلوع قرن الشمس كنت على سطح لوري النقل، واقفاً مع نحو عشرين رجلاً من أهل الطرّانة والخماسة والعزبة، ومنهم عوض عوضين وأخوه حجازي عوضين زوج خضرة التي ودّعتها - في سرّي - وداعاً «رومانسيّاً» على غرار شعر إبراهيم ناجي، هذه الكعبة كنّا طائفيها.. ثمّ رجعت على كلٍّ حال إلى كعبتي، بعد انتهاء الترحيلة، في أواخر الصيف.

أمّا خالي ناثان فقد كان مع السوّاق في الكابينة. وعلى المقعد وأرض الكابينة بضاعة المؤونة الأسبوعيّة للعمّال.

اللوري يشقّ الصحراء، رمالاً قاحلة ناعمة حيناً تعلو وتهبط وصخريّة حيناً، لا علامة ولا أثر، بين الخطاطبة شرقاً، والطرانة، وبين الرست هاوس أو شماله قليلاً، من ناحية الغرب، والمدقّ الصحراوي تتوه معالمه أحياناً، تنزلق العجلات على رمل مذرور سفّته الريح عليه، حتى تجد طريقها مرّة أخرى على المدقّ المدكوك من مرّ العجلات عليه.

ليس من دليل في نور الفجر الشائع المنسكب عل مهل، وعندما أنظر خلفي يبهرني، ويُغشي عينيّ، قرن الشمس الذي ينبثق ببطء من سطح الرمل، شظيّة ذهبيّة محمرّة، دائريّة تتّسع دائرتها بالتدريج،

حتىً يفلت من حافة الأفق قرص ملتهب كامل الاستدارة.

في فجر يوم الغِطاس كانت أمّي تـوقظنـا حتىً نرى رأس يـوحنـا المعمدان مقطوعاً بسيف هيرودوت، يـدور في طبق الشمس المشتعل، بين يديْ سالومي.

أحسست أنّي وسط أهلي وناسي.

رائحة الرؤوس الحليقة القويّة، وشعر الجسم الحليق، تختلط ببقايا نفـح الصابـون النابلسي من حُمـوم أمس، نفثات مـا بقي من رائحـة النسوان وما انصبّ فيهنّ بالليل تختلط برائحة الحِلْبة وطحين الذرة في البتّـاو الذي سرعـان ما يجفّ ويصبـح عصيّـاً عـلى الكسر مـا لم يُبـلّ بغمـوس المِشّ المترجـرج الآن ـ أشمّه واستـطعم نكهتـه ـ في القـدور السـوداء مدوّرة البـطون، مغطّاة بجـواليص الطين اليـابسـة الملفـوفـة بخِرَق جلاليب النسوان القديمـة الملصّمة، مـدفوسـة بعنايـة ومكر في شـوالات الـزوّادة التي وقف الجـدعـان يحيـطونها بـرُكَبهم في اللوري يحمونها من هزّاته، وهبدات الطريق.

نزلنا، أرجلنا ملخلخة، بعد أن سرنا باللوري في الطريق المسفلت حديثاً بضعة كيلومترات بعد الرست هـاوس، ووصلنا للشقّـة التي كان على الترحيلة أن توسّعها وتمهّدها وتدعمها بالزلط والـرمل ثمّ تفـرشها بالزفت والأسفلت.

نصبنـا الخيمـة الكبـيرة عـلى عمق نحـو خمسـين متـراً من حـافّـة الطريق، كان منار الرست هاوس يبدو لي بعيداً ولكنّه أنيس.

وُضِعتْ لي طاولة خشب من طوايل الفرّانين، فُرِشت عليها بطانيّة

مزدوجة، مطويّة طيَّتين. ولخالي ناثان مثلها تماماً. وكان فيه ترابيزة مرتجلة معمولة من صندوق شاي مقلوب، ورفّ واحد خشب - نصف طاولة فرن منصوب على رصّتين طوب أحمر - وعليه تموين الترحيلة الأسبوعي: علب الدخان أبو غزالة، وسجاير الكوتاريللي المعدن في علبها البيضاء المقوّاة التي تفتح لأعلى، كصناديق الورق المبطّنة، وسجاير الفيل الفَرْط، بالواحدة، في صفيحة مدوَّرة، وأكياس الشاي الصغيرة الملصوقة بالكاد، تسرسب من ناحية اللصق حبيبات الشاي مذرورة مفرفطة سوداء لها رائحة، في تلك الأيّام لم يكن فيها ورق ملوخيّة مصبوغ ولا فول سوداني مصحون ومحروق. والسكر المكنة جنبه في علب ورق مستطيلة، مرصوصة في نصف صفيحة مقطوعة وموضوعة بدورها في قعر برميل حديديّ مضلّع مقطوع مملوء بالماء، احتياطاً ودرءاً من النمل الذي كنت أجد طليعته المغامرة، كل صباح، غارقة في الماء.

فقط. هذا كلّ شيء.

في داخل الخيمة برميل حديديّ، ملآن بالماء النظيف الرقراق، للشرب. لي ولخالي ناثان فقط. الكوز مربوط بدوبارة متينة في ثقب بالجدار الصفيح المستدير تحت حافّته العلويّة، والبرميل مغطّى بخشبة مربّعة، ماؤه بارد سلسال.

أمّا البراميل الأخرى، خارج الخيمة، فللعمّال، أربعة، خمسة براميل.

ولكن هناك - دائماً - برميل ثالث. من داخل الخيمة، بجانب بابها

أي فتحتها القماشيّة التي تُرفع بحبال صغيرة بالنهار ثمّ ترخى وتثبّت بخوابير قويّة في الرمل أثناء الليل، وهو مخصّص لماء الغسيل، والحموم.

كانت شغلتي أن أكتب ـ على ورق مسطّر وتحته كربونة أحرص عليها كلّ الحرص، لم يكن هناك غيرها ـ يوميّة كلّ عامل على حدة، أضربها، الأجرة في عدد أيّام الشغل، وأجمع المجموع آخر الجمعة ثمّ أكتب استجرارة الشاي والسكّر والدخان على ورقة أخرى، من غير كربونة، ماذا أخذ على الحساب، بكم، وفي الآخر أطرح، وأسلّم لكلٍّ واحد القِرشين المستحقّين له. واقفين في طابور غير منتظم يدخل الخيمة واحد فقط، ولا يدخل التالي إلاّ بعد خروجه من الفتحة نصف المدلاة، نصف المرفوعة، وخالي ناثان يراجع بعدي، ويسلّمني القروش والملاليم الحمراء اللامعة، كانت اليوميّة ثلاثة تعريفة، والريّس خمسة تعريفة بزّيها، فإذا خسفنا منها استجرارة الشاي والسكّر والدخان يطلع للواحد آخر الجمعة حتّة أم قرشين وثلاثة أربعة ملاليم، أو يمكن ثلاثة أربعة صاغ للبخيل الجِلْدة الذي يشرب دخانه أو شايه بالسُحت، ويقبل على نفسه الجُرسة والمَهْزءة.

كلّها نعمة من عند ربّنا، يبوس الواحد يده عليها، وشّ وضهر.

أنا بقى كنت أطلع آخر الجمعة بحتّة بخمسة، بحالها. حوّشت، وفي آخر الصيف اشتريت جمهوريّة أفلاطون ترجمة الأستاذ حنّا خبّاز بخمسة وعشرين قرشاً، والحضارة المصريّة لغوستاف لوبون ترجمة الأستاذ صادق رستم بثمانية قروش. وكمان أدّيت لأمّي، ولستّي أماليا

قرشين كده، كلّ واحدة اشترت لي حاجات، شبشب، شرابات، علبة بريانتين، كده يعني.

في ليالي الحرّ كنّا ننام برّه الخيمة، على طاولة الفرّانين، واتغطّى بملاية - زيّ الفُلّ طبعاً. ستّي أماليا كانت تغيّر الملايات مرتين كل أسبوع - والتفّ أحياناً بالبطانية على وشّ الفجر، من لسعة برد خفيف. ومازلت حتّى الآن لا أعرف ألذّ ولا أحلى من هذه النومة في جفاف الصحراء، وصمتها الكامل، ونقاء الدنيا، ونَس العمّال النائمين على مبعدة قليلاً ملفلفين في خِرقهم وأحرمتهم وممدّدين على الرمل مباشرة، أو على طوايل الخشب.

وكنت أستغرب قليلاً أن ينام اثنان منهم، في جِرام واحد ملفوف بإحكام عليهما معاً. وفي نصف الليل، أراهما، كأنّني في منام، يهتزّان، يتقلّبان، ويصدر عن كتلة الجسم الواحدة المتلاصقة أنين مكتوم، وتأوّهات وجعٍ صُلب.

وكنت استحمّ كلّ أسبوع مرّة، مرّتين، عندما يأتي اللوري بالتموين، وبراميل الماء الجديدة، ينزلها العمّال بحرص والمياه تنتثر وتطشّهم وتنكبّ منهم قليلاً.

أسقط باب الخيمة القماش على الأرض وأثبّته بالخوابير من الداخل. ويشيع ضوء محمرّ قليلاً من وهج الشمس على القماش الخارجي ونوع من الحرّ الحميم المشعّ.

ومع انصباب الماء الجديد المنعش من الكوز، يزيح رغوات الصابون المدغدِغة، كنت أستمتع بجسمي، ووحدتي، في حلم

شبقيّ متكرّر، امرأة أعرفها معرفة الندّ والصِنْو والمثيلِ، أتلمّس حناياها وخفاياها، غريبة مع ذلك غربة نهائيّة، وأجنبيّة عني، نعومتها واستدارتها وغنجها، تشعلني وتشطّ بي لكنّي لا أعرفها، ومهما عرفت منها فيما بعد فلعلّني مازلت لا أعرفها. امرأة وهمي وحبّي، امرأتي، امرأة غربتي، لصيقة بي، ومنفصلة تماماً.

كنت أحياناً أقضي ساعات في تجوال حُرّ في الصحراء، أقفل الخيمة بعد أن يأخذ كل واحد ما يريده في يومه، وأهيم وحدي في الرمل. ومع ذلك لا أجعل قمم أعمدة التلغراف تغيب عن عينيّ قط، هذه علامات طريقي إلى الأمان، لا أني أتحقّق من أنّها هناك، كلّ لحظة فيما يخيّل إليّ، فكم قرأت عن مواجع وفواجع التوهان في الصحراء، وارتعبت منها، ولكني لا يمكن أن أقاوم سحر الوحشة والصمت في عمق الرمال، وقد غابت الخيمة والعمّال، ووابور الزلط ورائحة الزفت المصهور وأكوام الأسفلت السوداء ملساء الجسم والزلط ونشارة الحجر الأبيض المدكوك. وقد غرقتُ في خيالاتي وتهويماتي، ورجعت إلى صحبة عمر بن أبي ربيعة والمجنون، وجميل بثينة، وامرئ القيس، عشيقاتهم ومحبوباتهم ونسوتهم الأعرابيّات مدوّرات البطن محزومات بعصابات حمراء عريضة على استدارة الأجسام البضّة، مخزومات الأنف بحلَقَ ذهبي مشرشر الحواف، موشومات الذقن بخطّين متوازيين، واللمى الأزرق الداكن على الشفة السفلى المليئة الواعدة بلذّةٍ لحيمة ومُصفّاة معاً.

وجدت تلّة عالية قليلاً، واسعة، يغطّيها حصى متعدّد الألوان والأشكال والأحجام، ناعم الجسوم: مخروطيّة ونقيّة ومموّجة محبّبة

ومصقولة مدوَّرة ومستطيلة كثيفة ومشطوفة نحيلة خطوط بيضاء رقيقة كالشعيرات تلتفّ حول استدارة رماديّة تجنح إلى السواد وحدود قاطعة مرهفة البُنيّ اللامع يعطي حافتها المنعّمة خفوتاً يناقض لسعة حدّتها الأبيض الساطع ترقّطه نقاط رقيقة كأنّها تومض تحت الحصاة الشفّافة والخطوط الغائرة الصغيرة تشقّق الوجوه المنحوتة المتحلّلة وقلت كان البحر هنا منذ ألف ألف عام مازال البحر هنا وسيظلّ ألف ألف عام جمعت منه ما استطعت من كنوز ضاعت مع الزمن. ألم تضِع كلّ الكنوز؟ بما فيها كنز الحبّ؟ ألم تضِع؟ الضحكات السريعة الحلوة الخافتة، متتابعة، من فم جميل وأنيق، النظرات الموجزة العذبة، نافذة النصل، متتابعة، من عينين ساجيَتين تماماً، حرّيّة لا حدود لها داخل الروح، طيور زرقاء الجناحين ترفرف باتّساع، هل ضاعت؟

لكلّ نورٍ ظلّه. طبعاً. أفي هذا كلام؟

نقيّة، كانت، نقيّة هي، مظلمة ومتلوّية أيضاً، شَغوفٌ حيناً ونفورٌ عزوفٌ أحياناً، كالطفل في ائتمانها وفي مكرها المكشوف، ومجرِّبة محنكَّة الجسد بل جرأتها ومعرفتها مخيفة، جَسورٌ مشاكسة، وديعة متقبّلة خاضعة خَنوعٌ، متقلّبة وحولها شكوكي، وفي يدها روحي، ومصيري، أهذا سرّها؟ هل ضاعت؟ أين مضت؟

عثرت على موْغِلٍ منّي في تلّة الحصى على رأس غزال، هيكل بِرئ تماماً من كل لحم، من لوثات الحياة، عظْم أبيض صافٍ وصلب، عيناه محجران مجوّفان مفتوحان على ظلام الجمجمة الداخليّ، ليس فيه إلّا الفكّ العلوي بأسنان مازالت سليمة، سقط الفكّ السفلي

وانفصل ولم أجده قط، رأس فقط، أين ذهب البدن، وهيكله؟ ظللت أحتفظ بالرأس، أُحرّزه وأكنِزه من بين أرصدة نفسي الشحيحة، حتى اعتقلتُ في ١٩٤٨. ولمّا خرجت لم اكتشف فقدانه إلّا بعد سنين طويلة. هل كان فعلاً رأس غزال؟ كان عمّي فرح قَلّبه بين يديه السوداوين طويلتيْ الأصابع، وقال غزال يا ولدي. غزال صغير، لباني، يا وِلْداه!

وعثرتُ أيضاً على مبعدة من الطريق قليلاً على قطعة حريريّة ممزّقة مخرّمة بدنتيللاّ رقيقة صوّحت الصحراء وقسوة العراء لونها البنفسجي فأضحى باهتاً جداً شاحب الحمرة جدّاً، متموّج الذبول.

كانت مجرّد مزقة نصفها مدفون في الرمل، في وهدة طريّة واسعة، مهد مسوّى طارت له أوهامي الشبقيّة واستطارت بجسمي شطحتُها. دعيني أحلم أيّتها الغريبة العابرة ساعةً في البرّيّة، لا أعرفك، ولن أعرفك أبداً، أيّتها الوهم الماثل، بعينيك القاسيتين المحبّتينْ. دعيني إذن أغمض عينيّ على ربوتيْ صدرك الدافئتينْ وأشتطّ، جسداً مثقلاً بالأطياف، سكران بالرؤى. لا تنظري إليّ. لو سمحتِ، لأنّني أرى في عينيك هاتين أغواراً يضطرم فيها ظلامُ نفسي. أتون من نار سوداء. بريق صارم ومتألّق وله طعنة. لا أقوى، بل لا أريد أن أرى ما في عينيك. ومض انعكاس الشمس واصطخاب دوّامات الهاوية. فلا تنظري إليّ، من فضلك. لا تعرفيني فأنا أعرفك، سيّدتي، وَهْمي. نزيف دمعي قد أفرغ من كل دمه، خلاص. رائحتك الداخليّة عبر أهواء الرمل وعصف شهواتي مثل رائحة العسل الأبيض وشهده الشمعيّ قد غاض منه النِكْتار المُحيي. زهرة الحنّة بين

فخذيك بضّة سريعة إلى البلل بـالندى نـاعمة الشعـيرات مثل أزهـار دقن الباشا، صفراء. وكأنّها ندف القطن المنتفشة ولكن عبقها له حَمْوة ولذعة شـديدة الحـلاوة خبل الحـومان والاضـطراب جيئة وذهـوباً في نطاق العينين المحيقتين إطارهما قابض وجسمك جوهرة نصفها مدفون في الرمل نهداك صلبان متلاقيان متضامّان يضغطان عليّ حوريّـة نيليّة مراوِغة أم سمكة ذهبيّة زلجة تنزلق من بين أصابعي المشعوفة بـاللهفة وتثب إلى مياه الصحراء تشقّ لجتّهـا الصاعـدة الهابـطة في نور مـا بعد المغيب القـاحل، امـرأة وَهْمي هاربـة منّي أبـداً وهي في حضني، لا، لاتهمسي إليّ، في صوتك إبهام ولَبْس لن ينفتح لي.

حادّة وحارّة ونـاعمة ولهـا شوك الصبّـار المحتشد تـرفرف فيّ طـائر ذبيح يتهدَّج بحنانٍ بعيد وبمـا لا أفهم ولا أعرف، فحيـح تحت سفح رازح الوطأة فَوْح الاحتراق.

اصمتي إذن، لـو سمحتِ، لا أريـد أن أسمعـك ولا أن أعـرف ـ حتّى ـ مَنْ أنت، ولمـاذا كلّ هـذا الجمال، وكـلّ هذا الابتعـاد، قسـوة النأي تعويذةٌ ساطية تجذب روح المسحور الفَرِح بالتهلكة طواعية كُرة الكـون شعرك الـوحِيّ صلابـة العينين إلهيـة صوتـك لا نظير لقيمتـه تقولين بكلّ شجوك وشهوتك وشوقك وشقـوتك كيف يمكن أن أقـول إنّـك لست وحدك فلماذا أنـا وحدي لمـاذا كلّما ازداد لهجي بـك ازداد خَرَسي وكلّما شدوتُ وتفجّرتُ أطبق عليّ العيّ لماذا أنا سجين لا لا لا أريد أن أقول ذلـك لماذا أقـول إذن فقط أنا اشتقت حـاولت أن أرى أسمـع أعـرف أُفيق من وطء القلق سئمت التجـوال والشرود في غيْر وادٍ متعب أنا على وهدة الرمل والحصى.

طيِّب يا أخي، ثمّ ماذا؟

حفيف حليكَ الفضيّة على جيدك الحريري لا يبارحني ولا يغريني بتقلبيها قسوة الماس الصلب في أصابعك لا تجتذب يدي أتلمّسها وقد مسّني الإلّـه وبي لَمَمٌ من تباريح الشوق دعيني لا تحرميني حتى الحلم هل ضُرِب عليّ الحرمان حتى من الحلم؟ نهداك النابضان تحتي جناحا وثنٍ غضّ ومنقضٍ ضقتُ بذلك كله لا يستقيم لي شيء منه حطام سحب بخور منهَك حجارةُ صبوةٍ منقوضة ومخرَّبة. «كيف تستقرّ الروح وقد دعاها» لا آنس إلى شيء والسأم يحيل كلّ شيء كل شيء صمتاً يبعث بدوره على سأم جديد والدورة لا بدء لها ولا نهاية طبعاً وماذا بعد لا شيء لا شيء ويمضي الزمن لماذا لا ينقضي هو أيضاً لماذا لماذا فما من يدٍ تمسح هذه الشقوة لا يا شيخ طَبْ طَظّ يا سيدي في هذه الشقوة. طُظّ فِش.

أنا هويته وانتهيت.
مادمت أنا بهجره أرتضيت.
ولا في المنام.

كان خالي ناثان يلاحظ العمّال ويشرف على شؤونهم، يوجّههم، يحثّهم، ينبح حِسّه مرّة، يكلّمهم ويعلّمهم بالمداوة مرّة، وكان الشغل يتقدّم.

وكان المهندس الإنجليزيّ يقيم في الرست هاوس، ويأتي كلّ يوم على غير ميعاد، في عربة جيپ، من ناحية الرمل، وينزل يعاين ويراجع ويفتّش، أحياناً يغضب ويثور يسكت ويقول: أفارِم.. أفارِم

عليك ناثان بالعربي المكسور، ويقول اسم خالي بالنطق الإنجليزي يخطف مَدّ الألف الثانية خطفاً.

انتقى عمّي فرح العرباوي حجراً مسطّحاً مسوًى، ونظّفه بيده وقال لي أن أحتفظ له بهذا الحجر في خيمتي وحياة الرسول، وأقام الكانون من حجر صلب ترك في وسطه فجوة أشعل فيها ـ بعود كبريت حكّه في كعب قدمه ـ قطعاً من خشب شجيرات الصحراء الجافّة، وورق «الأهرام» القديمة، وظلّ يرعى النار يغذّيها بالعشب الصحراوي الناشف الذي كان قد جمع منه حرشات طقطقت في النار وفاحت منها رائحة عطريّة حرّيفة وجارحة ودخان أبيض، حتّى سخن وجه الحجر، قال لي أن آتيه ـ بحياة الرسول ـ بكوز من الماء في البرميل الذي في الظلّ، وراء الخيمة، فقمت وتركته لحظة، ولمّا عدت أخذ حفنتين من دقيق كان يربط عليه في صرّة طريّة في جوف مخلاته، وعرفت من رائحته ولونه أنه طحين الذرة والحلبة والشعير معاً، ومزج الدقيق بقليل من الماء، ولم يعجن بل دحاه برفق ومَعْلَمة على الحجر الساخن المسطح وربّت عليه بأصابع حاذقة، بسطه ورقّقه، حتى استوى رغيفاً مدوّراً له عبق نفّاذ، احمرّ وجهه السفلي وسمعت له دقدقة، والرغيف يهبّ من على سطح الحجر، بخار خفيف يطير تحته وحوله، طَسّ عمي فرح العرباوي حبّات من التمر الجاف بحفنة ماء من قبضته وعزم عليّ وألحّ فأكلت كسرة رقيقة وتمرتين وكان مذاق اللقمة غريباً متحدّياً للّسان والأسنان تَحَدّي اللذّة والمفاجأة. وتفتّح وجه عمّي فرح بابتسامته درداء الفم التي تفيض عليه سماحة وطيبة تكاد تكون طفليّة.

وفي آخر النهار عندما راجعت رصيد المؤونة اكتشفت فقدان علبة دخان أبو غزالة، ورجعت أعدّ العلب وأحصي الفلوس وأعيد العدّ والإحصاء. وعرفت أين ذهبت العلبة، سدّدت حسابها من أجرتي آخر الجمعة، وعندما جاء عمّي فرح، بعد أيام طوال قال لي أنا اللي لافيت حُجّ الدخان يا ولدي، ما أنا عارف. أنا عامل حسابي أنك أنت حتحفظ العهد. ما هو الجِرْش شاحِح اليومين دول، إيش حُجّ دخّان؟

لم تكن السرقة هي التي أحفظتني وكسرت قلبي بل ما رأيت فيه خيانة. وقلت لنفسي لو طلبه مني ما رددته لماذا لم يثق فيّ؟ لماذا ـ هو ـ لم يحفظ العهد؟ ليست السرقة، بل الخديعة. طهرانيّة مني، وسذاجة، يا ترى؟

طبعاً.

قلت لماذا يكذبون عليّ؟ لماذا يخدعونني؟ قلت لماذا، طيّب، أنخدع؟ لماذا أصدّقهم أنا؟ وأنسى؟ شيء ما قد انكسر.

قلت: لا يا شيخ؟ كلّ ده من جراير علبة دخان؟

بالطبع لا.

أكلّهم إذن، كلّهم؟

لماذا يكذبون، يخدعونني، ويحكون لي ـ بعد ذلك ـ حكايات؟ حرصاً على مشاعري، وخشيةً عليّ؟ أم شفقة ورثاء؟ أم مجرّد استهانة واستخفاف؟

ولماذا أنخدع؟

ما من حاجة بي لهذا أو ذاك. ولا لأحد. ما أمضّ احتياجي لهذا الذي أسمّيه الصدق. هذا الذي أسمّيه الحبّ. وما من فاصل، في وهمي، بينهما.

بشمتْ بالكذب المدّمر نفسي، تُخِمت بنتن الخراب والتخريب.

الفتك بالآلاف، عشرات الآلاف من الأطفال جوعاً ومن نهك الأمراض في وسط الأنقاض المنقضّة من ضربات صواريخ الشبح المتلصّص كذب الطغيان وفصاحة الخيبة المتذرّعة بأقنعة مفضوحة من ركام إلهام بالٍ وسيطيّ الكذب العبّي المتستّر خلف شعارات منتهَكة أكاذيب المهيب الركن حفظه الله أكاذيب الأمير الشيخ رعاه الله الأكاذيب مشعِلة الحرائق ملوِّثة البحار والأنهار ضاربة بالسواد على الأرض والسماء أكاذيب الحكّام والكُتّاب والصحف والإذاعات والتليفزيونات أكاذيب الأعداء والأصدقاء على السواء أكاذيب الحبّ أكاذيب اللامبالاة أكاذيب السرير أكاذيب المنصّات في كلّ مكان أصحاب السموّ والفخامة والمعالي والجلالة والسعادة الصفوة والحرافيش الملوك والصعاليك على السواء على السواء أكاذيب الأغاني أكاذيب الكتب أكاذيب زيف الفن أكاذيب الشعر أكذب الشعر أكذبه أقبحه أسخفه انتهاك متصل لكل أوطاننا في الروح وعلى الأرض وما وراءها. أريد الانطلاق، الانطلاق، الجري بوُسْع الرجلينْ في صحراء الصدق المحترقة المتطهِّرة من كل لوثة. بعيداً عن كل الأكاذيب التحليق بوسع الجناحين في براح السماء الفسيح صائحاً بكلّ قوّة الفرح بالحرّيّة آآآآآآآه ـ آآه ه! وليس أمامي إلّا مواجهة

الهوُلات والتحديق في عينيها دون أن أستحيل حجراً، ما جئت لأقول سلاماً بل لعنة الأحشاء، حَطِّم الهياكل دَحْر وحوش القهر.

ظللت أنتظر ظهور عمّي فرح العرباوي. الشيء الوحيد ـ تقريباً ـ الذي حزّ في قلبي عندما رحلنا عن الموقع أنّي لم أر ـ ولن أرى ـ فرح العرباوي أبداً بعد ذلك. مازلت أراه وأسمع لهجته البدويّة الخشنة التي لم أكد أفهم كل كلماتها بصوته الأجشّ الصادر من غور صدره الأعجف القويّ.

رجعنا إلى الطرانة في أوّل سبتمبر. وصلنا بالليل، وكانت وعوعة الكلاب تردّ على عواء الذئب على حفافي البلد. وكنت مرعوباً دقّ قلبي قد توقّف.

لَجَب المخلوقات الصاحية الشرسة كلّها يتزاحم في صدري يتضارب ويتلاقح ترداد مواء العِرْسة وجهها وجه قرد ضحكته تتردّد مع صلصلة الحلي التي سرقها من خزانة خالتي روزة وخالتي سالومة فيها ترنان جلجلة أجراس صغيرة صرير انسياب السلمندر الذي له صدر قُمْري يصاعد سجعُه ورأس ديك له زُقاء بينما يجرّ ذيله الطويل بحرافيشه لها خشخشة يابسة هامُ الشجر الليليّ المتكاثف أسمع للأغصان الأثيثة ترانيمَ بلغةٍ لا أعرف منها نأمةً وفَهْمُها يدخل قلبي بينما فحيح التنّين المجنّح يختلط بصهيل فرسٍ له رأسُ أسد يزمجر وجسمُ ظبيٍ وحوافرُ ثور يتراوح زئيره مع الجئير عميقِ الغور بُغامُ الغزال الذي يسبح بجسم سمكةٍ زعانفها أجنحة خفّاش جلديّة مبتلّة لها طبطبة لِمتبينٍ وقعها المنتظم في الرّياح الدقّاق نَخيرُ الجنّيّ الزنديق

مختبئاً في دغل الحلْفا والحَنَا وراء الطاحونة يخبط حدّها بقضيبه الوحيد يبقر به أبضاع النسوان الخواطي صهيل البطريق الذي له حوافر الخيول الصافنة على شطّ الجرن المترقرق بالطين الرخراخ قرقرة السقنقور وهو يشقّ ثبج الليل والنيل بقبقة الماء الذي ينفرِق شقّين إذ يمخرهما قضيباه المتوازيان المنبثقان من بطنٍ هي درع سلحفاة زُمَار الأتان المستكنّة في الزريبة رفرفة جناحيها اللذين يضربان بلا جدوى عقيمينْ كأجنحة النعام شخْب حليب الكبْش الذي له ضروع الجاموسة متلاحقةً منتصبةً كثيرة ينصبّ منها اللبنُ السخن الأبيض ويخرخرُ في الطاجن الفخّار الذي لا يمتلئ قط طول الليل نقيق الضفادع في قرار المساقي لها مناقير اللقالق تنقر بها لحم القراميط الزلقة على القيعان خُوار بقر الوحش المرقّط القابع في ماء الجرن فاتحاً فكّ فرس النهر المنهوم يلتهم حبّات البطيخ الضخام الحبلى بحلاوة اللحم النضيج قانية الاحمرار كرير الثعبان العظيم إذ يزحف في الحقول بمائة قدمٍ مدبّبة صغيرة يحكّ التربة القاحلة ويحرثها للتخصيب حتّى الصباح خُوات العُقاب الساقطة على زروع البرسيم على الريّاح لها فم حوت بأنياب لا عداد لها تسفّ حبوب الذرة وتكشطها من على كيزانها وتشفط صغار السمك من الماء ضُبَاح الثعلب الضخم القارّ في زروع القطن يدق الأرض بخرطومه القوي المفتول يدوس بخفّيْ الجمل على النّوار بُعار الماعز الذي له فكّ تمساح له سيف حادّ ممدود سمعت صوت شَقّه شجرةَ النبق العريقة أمام البيت.

كان عمّي فرح العرباوي قد قال لي يا ولدي اسمع المنام وسِرْ على هداه، فهل عرفت كيف أصغي لما في أحلامي أتبع خطاه؟

بعد عَوْدي للطرانة قرأت يوم ٤ سبتمبر ١٩٣٩ إعلاناً في «الأهرام»، بعد أخبار إعلان الحرب التي عرفناها باسم العالميّة الثانية، أنّه عند صموئيل في مطعم وبيرة كارلتون بشارع ألفي بك تليفون ٤١٨٠٠، غداء حسب الطلب ٩ قروش وعشاء حسب الرغبة ١٢ قرشاً وأسعار خصوصية للمشتركين وعندما عرفت شارع الألفي بعد الثورة كنا نتغدّى في مطعم البلغاري أو الأرمني، أنا وأحمد شوكت وندفع ـ كلّ واحد لنفسه ـ سبعة قروش ونصف في الغدوة طبيخ ولحمة وحلو، وكان قد أخذ الدكتوراه من جامعة طاغور في الهند، والتحق بالخارجية واشتغل بعد ذلك بسنين في مفاوضات معقّدة مع اسرائيل أيّام السادات، ثم سفيراً لنا في السودان. كان أيامها يسكن غرفة مفروشة في الفلكي. ولّما لقيته مرة بالصدفة، بعد ذلك بسنين، أقلبت عليه بحماسة الإعزاز القديم وغرارة الشباب البائد لم تثلمها السنوات الطوال. وقابلني «أهلاً» بارداً محايداً، ربما لأنّني هتفت به بحرارة عالية «شوكت!» ولم أقل مثلاً «أحمد بيه!» كنت معه في شارع الألفي عندما سمعت جمال عبد الناصر في راديوهات القاهرة يعلن تأميم القناة، بصوته العميق الذي لا ينسى «بِشم الشعب» تعانقنا في الشارع ليلتها، وتصالحنا ربّما لأوّل مرّة مع الزعيم، وذهبنا نشرب بيرة في كارلتون. وكان صموئيل قد اختفى.

كانت السيّارات الپاكار والفورد والشيفروليه والأوستن والرينو تخطف بي إذ تمرق على جانب الطريق القريب الأصلي وتتجنب نصف الطريق الآخر، الموسّع، المستصلَح، بوجهه الذائب من الزفت والأسفلت الجديد المفروش على طبقة الزلط والحصى المدكوك المسوّى،

وكنت ألوّح لها أحياناً بالتحيّة المجانيّة لمجرّد الاستئناس وبعدها بسنة فقط كنت ألوّح بيدي. أيضاً للوريات الجيش الإنجليزي المفتوحة وعليها كبّود التاربولين المشمّع المشدود على قوائمه الحديديّة، يغطّي حشود الصبية العساكر الإنجليز الذاهبين إلى رهانٍ مع الموت غالباً ما ينتهي بالخسارة، أجري مع اللوري قليلاً، وخلفه، على جسر النيل الترابي أمام الطرانة، وأنا أشوّر بذراعي وأهتف داون وذّا نازي داون وِذّ هتلر والعيال العساكر ينظرون إليّ باستغراب قليل ولامبالاة وتخوُّف، هذا الولد بجلّابيته وشبشبه الذي يجري ويشوّح ويصيح بما لا يسمعونه غالباً في هدير الموتور القوي وخبطه المنتظم. لا شكّ يتساءلون في توجّس قليل. ألوّح لهم هم أنفسهم وقد انتهت الحرب، غاضباً ثائراً في محطّة الرمل وهم في الچيپ المفتوح وعلى أذرعهم التومي جَنْ في وضع الاستعداد إيفاكيواشَنْ داون وذإمبريالزم وليس الإنجليز من هواة التقاليع كالأمريكيين لكنهم لم يكونوا يُحجمون عن إتيان أعجب التقاليع التي تضارع أغرب البدع الأمريكيّة فقد أقيم أخيراً - سَنَتَها - سباق في السباحة ببحيرة سربانتاين في هايد پارك وكان الشرط الأوّل في السباق ألا يشترك فيه إلّا كلّ من ارتدى ملابسه كاملة التوب هات الأسود المنتصب والقبّعة الباولر المدوّرة والصديري المزرّر بالكامل والجزمة الإنجليزي الثقيلة والبدلة الصوف فهل يجرؤ المجمع اللغوي أن يعمل على تنقيح أسماء بلاد وقرى مثل نِضْبابا تادرس وكوم زَمْران ومِنْية الحيط وكفر العتة وكنيسة شبراطو وسيّد الأقليتي إن لم يعمل على محوها تماماً قلت ليته لا يجرؤ أبداً وقطعان الخراف الإنجليزيّة الملظلظة تسير بانتظام وراء

راعيها في المروج الشاسعة الخضراء قانعة راضية مكتفية بذاتها قطعان الأسرى الطليان تسير بلا انتهاء على الطريق المدكوك في الصحراء الغربيّة انتهى رهانهم، هم، وأسلموا أيديهم إلى خواء الرمل الذي لا حدود له الأسير الشهير الذي يخرج من خندقه يهوي على حذاء اليانكي يقبّله والدبّابات والمدرّعات تسحق الآلاف تدفنهم أحياالصبر خنادقهم ومعاقلهم تحت الأرض الأسرى والمشرّدون والقتلى بالملايين - أو بالآحاد الذين يعدّل الواحد الفرد منهم دائماً أيّة أرقام مهما كانت فلكيّة - في كمبوديا الخمير الحمر وفي أوجادين في جبال كردستان وسفوح كشمير في المكسيك وشيلي وسهول السلفادور في كاتنجا وفي زيلع وهرر ومصوّع في روديسيا وفي الكونغو البلجيكية في البوسنة والهرسك في كرواتيا وفي ناجورنوكارا باخ في سويتو وفي القدس في أحراش أنجولا ومعتقلات المِيّة المِيّة والأنصار (١) والأنصار (٢) والأنصار إلى ما لا نهاية في النقب وفي صور وصيدا في نيوكاسل ونيويورك في أرض الحرب والضرب وخراب الروح الذي لا ينتهي تاريخُه المتقطّر أبداً بالدم المسفوح سدى.

البحّار الفرنسي في أسطول ديجول، قميصه التحتاني مخطط وجاكتته زرقاء وعلى رأسه الأشقراني بيريه له شوشة مدورة حمراء يقبّل البنت الأجريجية على شفتيها قبلة مستميتة ومستهترة معاً على محطة سبورتنج الصغيرة وهو يركب الترام عائداً إلى سفينته الراسية عند رأس التين أو عندنا في الدخيلة التي مازالت برية ومستوحشة قليلاً ولويزة بنت المعلم شنودة البقال عودها رعرع، وصدرها نَبَق، وهي تنحني وتنظر إليّ بنظرةٍ مسترّقة وعارفة تُكوِّم قوالح الذرة وسط الدكان

المعتم نهداها الصلبان لا يكادان يهتزان في انحناءتها والواد برسوم يقول لي إن جتتها حامية وإنها حتسوي الهوايل ياواد، الزنابير الحمراء تحوم وتئز وتنقض، بطونها أسطوانية كثيفة مخططة وطنينها شرير يبعث القشعريرة في جلدي حضرة الأخ الحزين أبو أمين ألهمك الله الصبر حضرت والدتي من دمنهور وهي في شدة المرض والأسى والحزن وأخبرتني بوفاة أعز ما عندنا غَنَّنْ فكان خبر أسود مشئوم نزل عليَّ كالصاعقة فهزني وحشّ وسطي وحدث عندي إسهال مستمر حتى فقدت كل حركة ولم أدر بنفسي إلا هذه الساعة فكتبت لك هذا وعيني تبكي ويدي ترتعش أسأل الله أن يلهمكم ووالدته وإيانا الصبر الحزين ناشان في ١٩٤٣/٨/٨ وكنت أنا أحمله على كتفي وذراعي وأنا أرجع به من عيادة الدكتور إلى بيت شارع ابن زهر أعبر به خط تراموای راغب باشا وأتفادى عربات الكارّو والسيارات القليلة في عز الظهر وهو يتعلق بعنقي في استماتة يستنجد وكأنه يعرف من الآن أن لا نجدة له خف وزنه وسقطت أجزاء من شعره تركت بقعاً في الرأس جرداء عارية مصبوغة الآن باليود والمعجون نفّاذ الرائحة، ولم يتركه التيفود وكان يصرخ تلك الصرخات التي لا تعرف العقل وتنطلق من الجسم نفسه الذي يعرف أنه يموت ويرفض أن يموت ولم أكن أملك له شيئاً لا أنا ولا أحد ولا أعرف الآن كيف مات ولا أين دفن هل أنساني الألم وإن كنت أعرف أن أبي أباه قد انكسر بعده، ولم يُقِم عوده حتى لحق به لم تمرّ عليه السنة.

أما أعشاب الحَلْفا الخشبية النابتة وراء الطاحونة فقد رويت دمَ الذبيحة واستحالت نساءً شبقات متراقصات في هبّات الخماسين

الترابية لهن نداء لا يقاوَم جسومهن خضراء وغضّة جذوع الشجر على الصفّين الحور العِين المخادعات سوداوات الإهاب لامعات البشرة تنبثق فسائل العشب الأخضر تحت آباطهن ومن بين أفخاذهن عساليج منشعبة عن أذرعهن وسيقانهن جارحات الحفافي قُبْلتهن وغيابة القبر سمّ منقوع وعسل حاد الشباة معاً ويتخايلن في نور القمر الأخير.

في نور القمر الساطع المنصبّ بلا رحمة في ليل أغسطس على صفحة وادي النطرون الأعشاب معدنية الصقال أجداث جمد الثلج الأبيض عليها وأنفاسها ثقيلة وسخنة.

ألم يكن خالي ناثان معنا؟ أعرف فقط أنه جاء على وشّ الفجر بعد أن كنت قد نمت في بيت الفَرَح، في الوادي، هل كان بيت العريس؟

وأعرف أننا ظللنا نقطع مسافات على المدقات الصلبة وبين كثبان الرمال الناعمة المنهارة، تحت وطأة القمر الساحقة، حتى كلّت قدماي، عمي فرح أمامنا بخطواته الواسعة المتوثبة يسري في الصحراء كما يسري الواحد داخل بيته، ولا نكاد نلحق به، ولكننا لا نصل بعد، والحكايات وأخبار الناس رايحة جايّة في الجماعة الصغيرة ريّس العمال وقريب العريس وقد دعا خمسة ستة من زملائه، فقط، كان منهم حجازي عوضين زوج خضرة، أخو عوض، وقد أخذ البرد يتسلل إليّ، وخلع عمي فرح تلفيعته من على كتفيه ولفّ ظهري. وكانت لها رائحة حلوة من دخان أبو غزالة ونفح أعشاب صحراوية، وفي وسط الرمال لمحت ما يشبه الأنقاض القليلة من الحجارة القديمة

ولافتات مكتوب عليها بالعربية والفرنسية استطعت في نور القمر أن أقرأ فيها أسماء أديرة دارسة، مغروسة في الرمل بين الأطلال وبخط أصغر أتبينه بالكاد: «مصلحة الآثار المصرية». قلت ياه.. كم من الأديرة كانت معمورة بالإيمان والتقوى ضُربت أشباح سبعين ألف راهبٍ وكم من مئات القلالي والصوامع والمغاور والمعتكفات هل سمعتُ ترداد إيقاع الترانيم المملّ الرتيب النغمة بالقبطية الفرعونية المهجورة وغير المندثرة؟ وهل خايلتني نفثات البخور والشمع أم هي ضوْع العشب الصحراوي في القمر؟

كانت ساقاي تخوران بي في الرمل الناعم وفي تعب المسيرة الطويلة، منذ كم نمشي؟ ثلاث ساعات؟ سمعت عمي فرح يقول بصوته الأبح:

«الهوكربة ع اليمين هاسّا»

ولم أر شيئاً ولم أفهم ولم أعنَ بأن أسأل وخايلتني أسوار من الظلال دهماء السواد في نصوع القمر.

أحسسنا الأرض تتحدر من تحتنا، والرمل يصلب ويشتد تحت أقدامنا وعمي فرح يشوّر لنا على بقعة لامعة بالملح الفضيّ في قبضة القمر، تذكرت بوبيللو، وحننت لستي أماليا ولغرفة النوم الضيقة الحارّة في بيت الطرّانة.

أكلت فَتّة الضاني والرُزّ بجمع يدي، تشرّ بالسمن، كنت جائعاً ميّتاً من الجوع، وأنا أتفرج على الغازية ترقص في البدلة الشفافة المذهّبة، حزامها الأحمر العريض يلف الردفين الممتلئتين، ويدور تحت استدارة البطن الأسمر المكشوف يؤكد غموضه ودعوته ويبرز وثَارة

الربوة المخروطية تحت البطن، وكانت ممتلئة الأنحاء واضحة بضاضتها وتهتز في إيقاع طبل فجٍ وأولي، وقْعُ نبض الدم في ذكورةٍ فتية جديدة متوترة بالشبع من اللحمة الضاني ومن الغُلمة إلى اللحم الأنثوي نصف الممنوع، ومع وشوشة الصاجات في أصابعها تخشخش حُليّها بالتساوق مع الترتر الأصفر في بدلة الرقص ومع صلصلة العقد الذهبيّ ذي السبع اللفّات قلتُ قشرة بلا شك وإلا ما استطاعت أن تحمله على نحرها الذهبي والأساور الحَنش الغليظة والخلخال السميك المفتوح ذو الرأسين المربّعين، وكان المزمار والطبل ودخان المعسل والحشيش يملآن عليّ دمي بضربات اليأس المبكر والشبق المبكر في الصبا في عز ليلة النشوة.

أحسست فجأة خالي ناثان ينحني عليّ ويوقظني، وقال لنفسه: كيف تركتك تنام هنا على هذه الفَرْشة؟

أما أنا فكنت قد نمت ملء جفوني، كان ذلك الفراش عندي أريح من سريري في البيت، حتى.

كان الكليم خشناً ومبقعاً، كما رأيت الآن في نور الكلوب الذي بدأ يخفت ويرتفع بوشيش متقطع، وتلفيعة عمّي فرح تغطي الحرام الصوفي المخطط الذي وضعوه على مخدّة صلبة جافة إذ أسقطتني عليها سطوة النوم دون أن أتوقعها.

رأيت عمّي فرح نائماً أيضاً، على الرمل في الحوش الذي أخذ يخلو الآن وتخفت أصوات الفرح فيه، يسقفه سعف النخل الجاف القديم وعوارض معمولة من خشب الجمّيز، رأيت من خلالها نجوم الفجر الباقية القليلة تلمع في سماءٍ صفاءُ زرقتها المنيرة لا نهاية لشفافيته.

(٨) سارة ووديدة

تزوج عمّي فانوس خالتي وديدة.

مع أنه كان يموت حباً في خالتي سارة، أختها الصغرى.

النظرة الوامقة في عينيه لا أنساها، حتى النهاية، مع زواجه بأختها.

وفاؤه لها وفاءً مطلقاً. ومع أنه خلّف منها ثلاثة أولاد، وأربع بنات يظل يرمق سارة بالنظرة العاشقة نفسها. حتى يموت.

وجهه الأبيض المرهف العظام، مربّعاً قليلاً ومرفهاً، ابن عزّ كان. عيناه بهما الحول الخفيف من أثر رمد قديم، سوادهما عميق، غطيس. يلمع دائماً بالرقة. هكذا عرفته. شعره المسرح الناعم محلوق بعناية دائماً، تحت الطاقية النظيفة المكوية، تحت الطربوش في المناسبات، جلابيته البلدي الصوف الغالية في الشتاء، بوبلين أبيض في الصيف، لا تعلق بها شائبة صيفاً وشتاء.

فهمت من ستي أماليا، في كلام مهموس لخالتي روزه وخالتي سالومة، لم يكن مقصوداً أن أسمعه، أن عمّي فانوس فاتحَ جدي ساويرس بما كان يعرفه جدي، وما كنا نعرفه، إنه يريد خالتي سارة.

وأن جدّي ساويرس قال له بدون غضب، بل بفهم تقريباً لما كان يعذّب قلبه، ماكناً جميعاً نتوقعه، وكان عمّي فانوس أول من يتوقعه. إن سارة هي الصغيرة ـ كما نعرف كلنا ـ هل يرضى أن تعنّس الكبيرة. وعلى العموم، قال، أختها تحت أمرك في أي وقت، من أحقّ بها من ابن عمّها يداري لحم بنت عمّه؟

وافق عمّي فانوس دون لحظة تردد.

هل كان في صميم نفسه قد أعدّ نفسه لهذا المآل؟

هل كان في صميم نفسه يخشى على حبه أن يزول ـ شأن الحب عادة.

هل كان حقاً يريد أن يهزم هذ الحب بنفسه، حتى يبقى أبداً؟

بقي حياً. الحب.

هل قتلتُ هوى نفسي، وعشتُ بلا نفسٍ؟ أم أنّ في قتل نفسٍ حياتها؟

ياه.. يا عمّي فانوس. كيف استطعت أن تضحّي حياتك كلّها، لتكسبها.

كيف استطعت أن تدفن آلام الحب الذي لا يطاق؟ وأين ذهبت هذه التمزيقات التي شرّحتْ نفسك شرائح وفِلَذا، دمها مكتوم دائماً، لا يباح به؟

ولا يُباح؟

مراقٌ بلا توقف في الداخل، دون أن تراه عين؟ هل راحت هدراً، هذه الآلام والتمزيقات، دون أي معنى؟

كما لو أن من الضروري أن يكون للألم معنى، أي معنى.

يا لوعتي، يا ضنايَ.

أما من نهاية ـ لهذه الولولة وندب سوء الحال؟

أين ذهبت هـذه الآلام التي لا تُحتمل، آلام الـطفـل آلام الصبي آلام الكهل؟

لا قيمة لها.

ليس للألم مكافأة.

عيني رأت بنتْ سمرا والندى نازلْ والشعر بالليل ع الخـدّ الجميل نـازلْ طَلبت منها الـوصال قـالت لي جدع ارجـع لتموت قتيـل المحبة والنـدى نـازل وانعقـدت ليالي الاستعـداد للفـرح الـذي لم أشهـده، عرفت به فقط من رسالة خالي ناثان لأبي. قال إن الأكليـل تمّ ببركـة الـربّ في كنيسة الـطرانة مسـاء السبت الماضي وازدان الـزفاف بـأهل الطرانة، المسلمون منهم أكثر من النصـارى، وحتى عائلة داود فتحـوا السراية مخصوص، وأرسوا ابنهم أنيس الذي يدرس الطبّ في مدرسة القصر العيني العليا في مصر، للتهنئة والتبريك.

عرفنا في آخـر العام التـالي أن أنيس ضرب نفسه بـالرصـاص على رقّـاصة كـانْ جابهـا من مصر، ولكن أباه الكهـل، أخذهـا لنفسـه. وعندما دوّى في العزبة النائمة طَلْقٌ نار من البيت الذي كـان يقيم فيه أنيس أفنـدي ـ وكان قـد طرده أبـوه، فلجأ إلى هـذا المأوى الـذي كان يُعد لعمال التراحيل ـ ظنّ القرويون وهـم يتقلبون في نومهم الثقيـل أن أحد الخفر يطلق بندقيته للإرهاب، أو من الملل.

كانت رحمة تغنّي لخـالتي وديدة أغنيـات الفرح الفـلّاحي، بصوت خفيض ورفيع ينقطع منها أحياناً، يجعلْ سنينـك ع العريس بهَـدَاوه،

وخَضْرة تضرب الطبلة، بعد أن تحمي جلدها المشدود على نار مصباح «الشيخ علي» المهتزّة بإيقاع طروب ورتيب، في حوش المندرة المفروش بالحصير والكِليم، ونحن نستند إلى المخدّات الصلبة المدكوكة بالقطن، أمام الباب العريض، وتحت أغصان شجرة النبق ـ الجميز؟ ـ الفينانة المتدلّية من الفسحة البراح أمام بيت جدّي ساويرس.

تنظر إليّ لنده ـ متربعة في جلستها على الشتلة ـ بهاتين العينين المكوّرتين قليلاً الجاحظتين قليلاً.

ياه.. !

أول مرّة أُدرك الآن، وأنا في مساء العمر، أن هاتين العينين تلاحقاني عبر الزمن، هما هما، دون تغيّر، فيهما تلك النظرة نفسها متعدّدة المعاني متراكبة الطبقات، فَهْمٌ وسؤال، غرابة وإغواء، شيءٌ من استهانة، ربما، وشيء من امتنان ربما، تحريضٌ أيضاً، واستخفاف، استفزاز لا ريب فيه واستنجاد أيضاً، بيأس. وحبٌ أيضاً؟ ما معنى الحب؟ مَرّةً عينان عسليتان قبطيتان جداً، يعني في لون العسل وعذوبته وماء الفيضان، ومرّة صفراوان خضراوان، ومرة بئران عميقتان بسوادٍ خالص. ولكن دائماً واسعتان نجلاوان. دائماً قاتلتان وأموت فيهما حباً، هما هما، هاتان العينان.

تخطف لندة طرحة خضرة.

التي ينكشف شعرها الوثير المسّد الغنيّ، فتضحك بخجل وأنثوية مفضوحة. وتحزّم لندة نفسها، وترقص على الواحدة، بجسم منساب

أملود، مطواع ومثير، في فستانها الذي أراه فجأة ملتصقاً ببطنها وردفيها ونهديها، كلها عذريّة ومنعشة، في القماش داكن الصفرة المنثور بزهور حمراء رقيقة جداً، طويل، مكشكش، واسع قليلاً كأنه بالكاد مكشوف عن كاحليها وقدميها الحافيتين اللتين رأيتها تدعكهما بالحجر الخفّاف، ثم تضعهما في طشت الماء المسخّن المروّق المذوّب فيه اللبان الذَكَر حتى ينعم الجلد ويطرى ويحمرّ، ويزول عنه تماماً أثر القَشَف. هاتان القدمان تتنقلان تحلّقان وتحطّان، بخفةِ طائرَيْن، على الحصير الأصفر اللامع النظيف، تخطوان على صفحة قلبي وتدغدغان ذكورتي الجديدة التي تنتصب وتبضّ، فأجهد أن أداريها بطيّات الجلابية البيضاء التي أخشى ابتلالها وجُرستي بها.

وحتى حميدة البرصا وقد انتبذت ركناً في الظل، تخفي وجهها بطرف طرحتها، تتمايل مع الأغنيات ودي بيضة ولابسة طقم أبيض ولاهاينْ عليَّ أفوتك ولا قادر أراضي خاطر أبوكِ يامّ النهود الطالعة بحلاوة الحَمام الأبيض ينبثق من حضنك ويرفرف بلا انتهاء في حقل متكاثف بالحَلْفا والهيش والصبّار الشائك ينشع فيه الملح حِلوه العروسة دا الكلام بهَدَاوه والمسك والعنبر طَلَّقْنَا هُو لِكْ بخورْ التَفْتْ ببطنِكِ العاري أذرعُ البخور، هفهافة وشفافة، أذرع أخطبوط تتموج بالكاد مرئية بالكاد محسوسة بالكاد وسقطتْ من على كتفيك الطرحة والشال، بحيّاتها المتلوية وشراشيبها التي تفح وتترقرق يا امّ الجدايل يابيضة وتصفّق البنات في المصطبة الهادئة على ضربات الطبلة يامّ الجدايل ونهودها رمّان جنايْن وشعورها نازلة خمايلْ وطيازها بطيخ جزايْر والحلواني تهانُفُ الضحك المكبوت من البنات وخضرة تكركر

بالقهقهة الصُرّاح، بالصوت الناعم الحيّاني الحلواني، تنسلّ من بين فخذيها الفانيتين اللتين تتهشمان فجأة بصوت قرقعةٍ جافة وتسقطان كِسَراً وكِسَفاً طعمهما في فمي حادٌ الحلاوة يجعلْ سنينك ع العريس بَهدَاوة.

حلمة الثديين بزّخشبيّ بارز يبظُ من عرق النبْق الخشن والخدّ صفيح معدنيّ مصقول أما الفرج فهو كوز مقطوع مفتوح التجويف بطنها مقوٌر منجور من شجر الجميز المخطط بفتائل من الشعر الرقيق المتموج متداغمة في لحم الخشب، أزيز النحل طنين محركات العربية الباكار هدير اللوري الثقيل يشق اللباب والعباب بصوت آليّ رتيب وبذيء أسلاك الوَجْد لامقطوعة ولا ممنوعة، يجعلْ سنينك على العريس بحلاوة.

أما العريس فقد حنى رأسه وابتسم، يصغي للأغاني والطبل ويرمق الرقص بنصف عين ويلعب بصرة بنصف عين مع جدي ساويرس، وجورجي العريف يتابع اللعبة بأذنيه، رميت إيه يافانوس ياخويا؟ طلع لك إيه يابا ساويرس؟ حاسب ياخويا على نفسك نباح الكلب فجأة تحت شجرة النبق الهائلة التي ترمي بفروعها علينا وتجعل الساحة أمام بيتنا مخوفة ومعتمة.

ومليت له الجُلّة من لبن البَجَر ولاعايزه الجُلة ولالبن البَجَر ماعايزه إلّا انت ياضيّ الجَمَر. . ماعايزه إلا انت ياضيّ الفانوس. . .

يافانوس يافانوس رأسك المقطوع يدور في حلقة الشمس البازغة من ماء النيل وسالومي ترقص لك في غلالاتها السّبْعِ المفهفهة جسمك المقطوع بسكنه روح القدس في كنيسة العذراء على رأس

ساحة الحُفاة ساحة العُراة ساحة المضروبين وأبونا اندراوس يقدس عليه يرش ماء من جرن المعمودية الرخاميّ الضخم الذي من ثقله غارت أرض الكنيسة تحته قليلاً وانشرخ خشبها العتيق.

دا كيد النسا كيدْ يتحزّموا بالخَنَش ويتعصّبوا بالعجَارِبْ..
كم أفتقد لسعة الشمس المحرقة وثمرة الخرشوف
واحطُك في شعري ياخويا واضْفَرْ عليك
أحطك في عيني ياولد واكحّلْ عليك
وبين بزازي ياخويا واتجمّطْ عليك
كم أفتقد ضربة الثعبان في قلب اللوتس
وبين فِخادي ياجَدَع واتحزّم عليكْ
وانْ جَتْني أمّك تدوّر عليك
لاحْلِف بالأمانة ماجا عندنا

صوت خضرة قد ثمل من الخمر قبل أن تشرب فما بالها عندما تتجرع الكأس مترعة بالنشوة. قامت الآن، تركت الطبلة لرحمة فتغير إيقاعها على الفور إلى قَطْرٍ رقيق متباعد الموسيقات وتمايلت وتمشت ورقصت ولعبت وجاءتني واهتز بطنها أمام ناظريّ بحركة تشارف على البوح ولاتقارفه، شخصتْ إليها الجماعة الصغيرة والتذّوا بمعاينة فنون رقصها وشؤونه. حدّق إليها فانونس كأنه مسحور قالت لهم بلسان مُبين فصيح هل هذا مليح؟ قالوا نعم يا سيدة الملاح كل ما تفعلين مليح ثم قالت وهذا الذي أعمله أحسن منه يا سيّادي وفتحت ذراعيها فإذا لها جناحان عريضان لهما ريش متكاثف وحريريّ وطويل وناعم الأهداب وطارت أمامنا وصارت على قمة شجرة النبق العتيقة

ثم قالت: فإذا جاء العاشق المسكين وطالت عليه أيام الفراق واشتهى القرب والعناق وعصفت به عصفاً زوبعة الأشواق فليجئني إلى جزائر واق الواق. ظللتُ أخوض البحار وأخترق الآفـاق وما من مرسى لي، رقصٌ، وليس ثمَّ تلاق.

رقص المرأة، وقوعها في فضيحة، بهذا جاء تعبير المنام. رقصة مَرْآتي لم تتم فصولاً أما رقص قلبي السجين فهو دليل الخلاص من أغلال العشق فهل يعرف أبداً كيف يرقص أم يبقى مغلّلاً بالأصفاد إلى أبد الآباد أي إيزيس خضرة رحمة رامة لندة لوريس نِعْمة في أيكنّ يتعينّ عشقي حوريّاتي السبْع المحلّقات في أصقاع سماء روحي التي بلا أفق محددٍ قطّ مفرودات الأجنحة هل وجدتِ ـ أنت الواحدة المتكثّرة ـ ذلك المفقودَ من بين أربعة عشر مُغْرَقة في أصقاع جسد كيمي هل بعثتِ الحياة في العظام وهي رميم؟ وإذ تعودين إليّ، تعودين باستمرار، باستمرار، وأنت تنهجين من رقصة الشوق والشبق غير التامة أبداً رقصة الدمار تحت موسيقى وحشية حمولات آلاف الأطنان تفجرات ماحقة الايقاع صرخات ١٧٠ ألف طفل ميتين من الكوليرا والجوع قرقرة ماء المجاري الملوثة باسم التحرير كم رقصة الكذب سهلة وفعالة تغور الأرض بعمائرها ويعود صمت الأطلال يا طلولاً لرامةٍ دارسات لادثورَ لكِ قطّ في روحِ العاشق المدنف تظل تطيح به غوائلُ الهوى بلا انتهاء ثقل الهدوء لايطاق.

جميصي دابْ يامّه ونهودي بايْنة مِنّه.

بكَره السُوج ياضيّ عِنيه واجيب لك أحسنْ مِنّه.

أنياب الألم المكتوم مازالت تنهش ومازلت لا أقدر أن أئنّ ولا أكتم الأنين عظامي قد تهدلت وانطوتْ خِرَق القماش القديم.

أيا شعرِكْ سَلَب جَمّال وأنا أبيع روحي
أيا وِراكِك عواميد رخام وأنا أبيع روحي
أيا بطنك عجين خمران ونهودك فحول رمّان

والسُرّة جَعْـــر الفنجـــان.. والسُرّة.. جَـعْــــر الفـنجـــان والسُرّة.. والسُرّة..

قامت المراكب تمخر الرياح والشراع معلّق مطوِيّ الجناح يهتز تحت العـاصفة بحـر النيل دفّـاق بخور العنـبر فؤوس تعزق الـتربـة وتقْلِب أيسوع منقلب الرأس عـلى ذراع أمه وقـد سقط من على الصليب بـلا قيـامة وعـلى وجهها تلك النـظرة المتأملة تتفحصني بحـزن، وبصـوت خفيض وحنون ـ كأنما تريـد أن تخفي عن نفسها ذلـك الحنان، كـأنها خجلة من نفسهـا ـ قـالت: يـاريت بسّ أعـرف إيـه الـلي بيـوجعـك ياحبيبي إيه اللي بيبعدك عني وعن كل حاجة؟

راقصات ماتيس في ساحة العُراة وبينهن المسخ الأليم منقاره مخلبي عينـاه كعيون الـسمـك وقضيبه سنّ مشحـوذة مدبّبـة الشَبَاة وجسمهـا مبذول أمام دفقة النور من شباك مفتوح عليه ستائر هفهافة كأنمـا هي أيضاً نور قالت: كأنني أصنع الحب على قارعة الطريق وجسمها نـائم كـالحريـر، نور من نـور، أرى جـذوع الأشجـار القـويـة تنـطلق من الأرض كأنها عِمدان تطير في بحور الشهوة إلى السماء وفروعها الأثيثـة الخضراء تُـظلِلّ مكابَـدة العشق ولَجج نشـواته يـداهـا تخفيـان رأسهـا الجميـل ينطوي وجههـا تحت الطرحـة المسدولـة على شعـرها المموّج

المهدول كالليـل الذي انقضى الآن لتـوه يقظة الفجـر محرقـة لا تنتهي حريقاً.

كانت خالتي وديدة وهي العروس المنتظرة تشارك في الغنـاء بتحفّظ وتحرُّز محسوب، لا تـريد أن يفضحهـا الفرح ولكنـه، الفرح، يـطفح من على وجهها ويفيض، كأنما على الرغم منها، وعيناها تلمعان، بينما خالتي سارة قد بلّت الشربات، تقـدمه للخـطيب والخطيبـة، كلاهمـا محبوب وكلاهما خائن، وللضيوف والمدعوات، تدور به على المصطبة، في كؤوس رفيعـة طـويلة رقيقـة الـزجـاج مسحـوبـة الخصر مـذهّبـة الحـوافّ، في ضـوء «الشيـخ عـلي» المصفـرّ المتـذبـذب بـظلالـه عـلى الحيطان.

كـان أبـونـا أنـدراوس قـد جـاء بعـد ظهـر السبت، ومعـه المعلم جورجي، والولـد بـرسـوم الذي لبس تـوشيحة الشـمّاس القانيـة على جـلابية نـاصعة البيـاض، بخّروا البيت كله، وتـرنم المعلم بـتراتيـل التمجيد والتسبيح والتبريك، يسانده برسوم.

فتح أبونا أندراوس دفتر الحكومة الكبير وكتب فيـه محضر الخطوبـة وسجـل الأسـماء. كـان في البيت عمي أرسـانيـوس ـ أبو العـريس ـ وعمي سلوانس وابنتاه لندة ورحمة، وابن خالتها أسعد أفندي، وكان فيه خالي ناثان، وخـالي يونـان الكبير الـذي جاء من اسكنـدرية عـلى الظُهرية، أوقف التاكسي الذي يشتغل عليه أمام البيت في الوسعايـة، تحت الجميزة.

وقفنا في المصطبة المكشوفة وراء أبونا أندراوس الذي بدأ بـاسم ربنا يسوع المسيح مخلّصاً نُتمم خطوبة الابنة المباركة وديدة بنت ساويـرس

وأماليا، على خطيبها الابن المبارك فانوس ابن أرسانيوس وفكتوريا، مصلين قائلين معاً: أبانا الذي . . .

عندما رفع رأسه وذراعه اليمنى يصلّي بصوت خفيض صلاة الرب سريعة ملهوجة لا يكاد يسمعها أحد سقط كُمّ جبّته السوداء الواسعة عن ذراعه، وبان وشم الصليب الأخضر المورق الكبير على رسغه اليمين وكنا نساوقه ونجاويه أيها السيد الحقيقيّ كلمة الله الأزلي الوحيد يامَنْ خَطَب النوع الإنساني للفرح الأبدي؛ ثم تمتمَ بسرعة وآليّةٍ تقريباً بتجسده المنيف المجيد؛ ارتفع صوته الأخنّ قليلاً نبتهل إليك ياوحيد الأب هاتفين اللهم أَفِضْ من سحاب رضوانك غيوث فضلك وامتنانك، ويسِّرْ بما احتفلنا لإنجازه في هذا المقام ومُر لمشروعنا هذا بحسن البداءة وحميد الختام؛ هبط صوته فجاء وراح ينساب مغمغماً لايُفهم حتى هبّ بالإنشاد فجأة ليكون خطبةً طاهرة شرعيّة ومقدمة لمصاهرة فاخرة مرعيّة من أجل لين الخطيبين بمصاقل التهنّي والحبور، هَبْهما محبةً سليمة متبادلة؛ هبط موج الدعاء ثانية وترقرق غير مستبين حتى صعد موجه خاتماً أنعِمْ عليهما بتمام السرور ومتِّعْهما في ميقات الحبور بمهرجان الإكليل آمين أبانا الذي . . وهو يرش الماء المصلّى عليه والمقطّر بقطرات من زيت الميرون المقدّس على رأس خالتي وديدة، على رأس عمي فانوس، على باب البيت وعلى العتبة الرخامية القديمة المنقوشة بحفر رسوم غائرة وكتابة بالخطّ الهيروغليفي أمّحت الآن من وقع وزحف الأقدام واحتكاك الباب الخشبي العريض.

فهل سمعتُ عمي فانوس عندئذ يهتف ملتاعاً وبصوت

مكتوم بوبيللو بوبيللو اسمك نجدتي إذ ألقي بنفسي إلى البحر اللُّجّيّ مشيّعاً بالصلوات والدعوات بالقبطي والعربي؟ هل قـذف بنفسه الآن من صخرته السمراء وديعة السطح يانعة فيها وحدها نجاته ومرساته؟ لم يعـد ممكناً الآن أن يصعـد إليها ثـانية، أبـداً. سقط بينـما تـراتيـل التبريك تصعد حواليه.

ثاني يوم الصبح جاءني ولد من أولاد حِميدة الزُّغراني، فـلّاح عزبـة «أبو داود» وفراش مكتب عمي فانوس على وجه التقريب ومعه الحـمار الأبيض الفاره الذي يركبه عمي فانوس في ذهابه وعودته من العزبة.

كان يمسك حساباتها ويتولى نظارتها ويشرف على زراعتها.

لقيت الولد ينهج وهو يقول إن الخواجا فانوس يريدني الآن.

كـان بين الـطرّانة والعـزبة حسبـة نُصّ ساعـة بالـركوبـة القـويـة النشطة.

ولكني كنت أتحين كل فرصة لركوب هذا الحمار الفخم والانـطلاق به، كان عالي الصهوة عـريض الصدر وحسن الـطهمة ولَمّاح الذكـاء أيضـاً، وما إن أمتـطي ظهـره حتى يحمحم كـالحصـان ولكن بصـوت أجش، أغلظ معـدناً، كنت أعـطيه حَشّـة برسيم أخضر ومـرعـرع، أحياناً، عَ المْغربيّة، بعد عودة عمي فـانوس إلى البيت، جـارنا الحِيط في الحِيط، وكان يتعرفني.

انطلقتُ على ظهر الحمار، دون تورّع، ألكز جـانبيه بقـوة وتتابُـع، ممسكاً بلجامه مسكة هينة ولكن حازمة، والحمار الأصيل يرمح بي على جسر النيل، رافعاً رأسـه بشموخ، والهـواء يئزّ في أذني، والـتراب قد

عفّر الواد خَلْف جِيدة الزُعراني الذي يجري، دون كلل، ورائي بمسافة غير قليلة. ويبتسم في تحدٍّ كلما نظرت إليه، وسوف يلحقنا بالتأكيد.

سلّم عليّ عمي فانوس بيدين محنيّتين، اللون الأصهب البُنّي الخفيف جداً يتوزع على الكفّ والأصابع توزيعاً رقيقاً بين البياض الذي تخلّف عن طيّ اليد والأصابع عند التحنية. لم أكن قد شهدت تحنية العريس.

وقال لي معلهش يابن خالي (لم أكن ابن خاله طبعاً، كان ابن أخي جدي ساويرس، على التقريب، أبوه كان ابن عم جدّي على الحقيقة، وكنت أقول له «عمي» على سبيل التأدّب) كنت عايزك تَضيَبْ لي الجِسبْتين دول (كان يلثغ قليلاً في الراء) وتبيضهم لي على نْضيف، لازم أخلّص دَفْتَيْ الأستاذ دلوجتي اهُوه، داود بيه مستعجل عليه.

استغرقت مني المهمّة ساعتين تقريباً، في المبنى المعمول من الطين اللبِن الذي كان الفلاحون يسمونه «المكتب» يهبّ عليه الهواء من النيل مباشرة. الطراوة وحدها كانت تسْوَى المشوار، وملَل الحسابات، ولكني أيضاً أخذت فيها جِنّة بخمسة، بحالها، لامعة وفضية وكبيرة، بعد أن تمنّعت قليلاً وعيني فيها، قال لي: داخْله في الحسابات يابن خالي، ولا على بالك، خمسة صاغ مش حتحشّ وسط داود بيه.

وتغديت معه، شوينا عشر بيضات على قوالح الذرة الجافة المتقدة، وجبنة قريش ورِجْلة جايّة طازة من الغيط، غسلناها بماء النيل من

الـزير وكـان طعمها حـريفاً وخشنـاً جداً، نيئـاً، على لسـاني، وحلّينا بجوافة زيّ العسل. قال لي معلهش يابن خالي، بصلة المحب إيه.. مانْتَ سِيد العايْفين.

بعد الغداء استرخينا في ظل حائط «المكتب» من الخارج، على فرشة من عيدان الذُرة وسألني عمّي فانوس، باستحياء، قليلاً، عن خـالتي سارة.

حكيت له، باستمتـاع، كيف ذهبتْ معي خالتي سـارة إلى روضة الكـرمة القبـطية الأرثـوذكسية، لأول مـرة، أول يوم، وكـانت الدنيـا ماطرة وموحلة، ولكن منصور أفندي ناظر الروضـة قابلني كـما يقابـل الـرجال، هـل كنت في الخـامسـة؟ ربمـا؟ وأحببت، من أول نـظرة، كعادتي، مس كاترين شمعية الوجه ملائكية النظرة، وعرفت أن أقول وراءها كانت مات ران مان على صور قطة وحصيرة وولد يجري ورجـل يلبس قبعـة هـات، وحكيت لــه أيضـاً كيف كنت أستيقظ مبكـراً، عَ النجمة، في بيت شارع ١٢ الذي أمام الطاحونة ومدرسـة البنات، وأتسلل في البيت النائم الهادئ المليء مع ذلك بأنفـاس حارّة، وأذهب إلى غـرفة خـالتي سارة وخـالتي وديدة، وأنـام بينهما، سـاعـة الصبـح البدري، في سريرهما، وأروح في النوم.

وكان يصغي إليّ بقلبه، كله، وكأنه نسي الخطوبة وقربان قلبه.

خجلت مع ذلك أن أقول له كيف كنت عنـدئذٍ أرقب، مسحـوراً، طقوس تحضير الحلاوة، وتلميع السيقان الأنثوية الأربعة، كيف تُعمل بالليمون والسكر وتوضـع في الطاسـة على وابـور الجاز، نـاره واطئة، وتُقلّب حتى تصبح عجينة طيعة ولدنة ومطاطية.

تماسكت العجينة الآن واشتد قوامها، وبُسِطت على البلاط النظيف اللامع، في الممر الضيق بين السريرين، أمام الشباك المفتوح، وأنا لابد تحت أقدام السرير. بردتْ العجينة الآن، ثم نزعت كل واحدة منها حتتها، وبدأت تشتغل عليها، تطريها قليلاً بتفلة صغيرة، رشيقة ومضمومة، من الفم المزموم، ثم تمددها بالتربيت السريع المتلاحق على السيقان المفرودة المكشوفة حتى أعلى الفخذين، ثم تُنزَع فجأة مرة واحدة وبقوة «فلوپ». . «فلوپ». . لون النسيج الأحمر، والأسود، في نهاية الساقين، محبوكاً بوثاقة، يتخايل، يشرق في نور الشباك ثم يعتم مع حركة البسط القبض التمديد البطيء للحلاوة والخلع المفاجئ الخاطف للعجينة وقد تعكر الآن لونها الطحيني قليلاً، وكانتا تضحكان من لسعة انتزاع الحلاوة من على اللحم القوي المتماسك الذي يحمرّ ويلمع ويبدو ندياً وشديد النعومة. تذكرت الصوت اللحمي الذي يتراوح، التصاقاً على السيقان وافتراقاً حاداً عنها، وهما تشهقان.

كانت عجينة الحِنّة البغدادي، ليلة أمس، تنطبق على يديْ خالتي وديدة وقدميها، ثم تُنزَع عنها بنفس الصوت تقريباً، ونفس الايقاع، تشاركها في الحِنّة، والفرحة، لذة ورحمة وخضرة، وبعد أن فرغن منها، كانت حميدة البرصا تعالج انطباق الحِنّة على يديها وقدميها، بنفسها، وحدها، ودون أن يساعدها أحد.

وأنا أدخل لأنام. في آخر السهرة، سمعت جدي ساويرس، من وراء الغرفة الثانية:

ـ أهُوه ياستي ربنا تاب على المعلّم جورجي، كَنّ في دار حِنينـة من يوم ماجّـوّز، هُوّة وأخـوه باسيـلي، باوِلْـداه، من نهار ما وقعت عليـه حيطة الكنيسة وهو ما بيحطّ منطق، طبّ، ساكت، ولا هو قادر حتى يجر رِجْليه أو يشيل إديه.

لازم يتشـال ويتحط زيّ الـطفـل يـاوِلْـداه. هيّ كـمان كنْتْ فـي البيت ماحد سامع لها حسّ.

قالت ستي أماليا:

ـ آه.. كَنّتْ والاّ مَنّتْ.. قال إن كانت الميّه تروب تبجى الجحبة تتوب. بكره نشوف.

ردّ جدّي ساويرس:

ـ يامّ يونان اتّقي الله في الوَلايا. دانْتِ عندك وَلايا برضو.

فقالت جدتي: سامحني يايسوع.

غضبتُ مـع ذلك من ستي أمـاليا، وثقـل قلبي. كنت أحب ست حنينة.

ودخلت الغرفة التي كنت أنـام فيها، مـع أخواتي البنـات، وخالتي سارة.

هي الأولى مـا بعد المصـطبة، تليهـا غـرفـة جـدي وجـدتي، وفي مقابلها، عَبْر الحوش، زريبة البهايم، ليس فيها إلا الجاموسة مـبروكة والوزّة نعيمة أيضاً وذراري البط الصغير والكبير يتدأدأ في النهار لغايـة الترعة، ويعود عند الغروب، ليس له اسم ولا قائد والفـراخ. وكنت أحبّ رائحة الزريبة وخصوبتها.

كنا ننام، كلنـا، على سريـر عريض عـالٍ مبني من الطوب النيء، تحتـه فتحة الفـرن مسدودة الآن ونحن في الصيف، تـوقـد في الشتـاء لتدفئ الغرفـة. وصعدت إلى مكاني المألوف بين خـالتي سارة وأخـواتي النائمات، على المرتبة الكثيفة الطرية من قطن الغيط المدكوك مباشرة، نور «الشيخ علي» لا تكاد ذبالته تبين من طاقته المحفورة مخصـوص في الحـائط تحت صورة العـذراء التي حفّ بها هبـاب خفيف من اشتعال النار الوطيئة في المصباح المعمول من كوز صفيح، ذبالته الآن مدخنـة محترقة عـلى سطح الجـاز القليل ولهـا رائحة نفّاذة خافتـة، في وخامـة الغرفة وثقل هوائها الذي يفوح مع الليل بأنفاس عطرة قليلاً من الحلبة المخـزونة ومن قفف الخـزين الأخرى: البتّـاو الصغير الجـاف وفـوقـه طُرّاحات خبز الذرة، الهش الرقيق واسع التدوير، الفـول، والعدس، والذرة، زِلَع الجبنة القديمـة، والمشّ بالشـطة الحرّاقة، مغطاة مكبـوسة بجواليص الطين والخِـرَق الجافّة، قُدُور الحـامض، والعسل الأسـود، الزبدة المرشوش على سطحها قليل من الملح، القدور سوداء، مـدوّرة البـطون، مصفوفـة على الأرض، تخـايلني بأوهـام الليل، وروائحهـا المختلطة والأشباح التي تتلبسها، مخايرة ولكن غـير مهدِّدة، وفي آخـر الغـرفة صنـدوق الهدوم الـذي أضع فيـه جنب ملابس خـالتيّ سـارة ووديـدة، وأختي عايـدة وهناء، مـلابسي القليلة: الجلابيـة الأخرى، غيارين تلاتـة، والبدلـة التي أروح بها المـدرسة وأسـافر بهـا، جاكتـة صوف إنجليزي والبنطلون الشورت البُنّي، مع حبّات النفتالين.

القلق واستثارة الرقص والغناء، وطقوس الصلاة، والجِنّة، لم تدع للنوم إليّ سبيلاً سهلاً، مع أنني كنت نعسـان جداً، أحسست خـالتي

سارة إلى جانبي في العتمة الليلية الملتبسة تتنفس بصعوبة، لم تكن نائمة، كنت أنا أيضاً غضبان لها. قلبي معها في محنتها التي دارتها بل كتمتها بشجاعة وبراعة طول اليوم وليلته، الآن ارتدّت عليها. لكني كنت أيضاً فرحاً لخالتي وديدة التي ذهبت تنام مع جدي وجدتي في الغرفة الكبيرة الثانية التي فيها صومعة الغلة الكبيرة العالية، مسدودة سداً محكماً، تُفتَح فيها ثغرة صغيرة لاستخراج ما يكفي للطحين، كل مرّة، وتُسد ثانية، بالطين المبلول القوي، على الفور، بعد أن تتسرسب الغلة.

بعد الغارات العنيفة التي تهدمت فيها البياصة وباب سِدْرة في اسكندرية - التي اشتقت إليها الآن - جاءت امرأة خالي إستر وأولادها، وأخذوا هذه الغرفة، وذهب جدّي وجدّتي وخالتي وديدة وخالتي سارة في بعض الليالي، ينامون على المصطبة، في الهواء الطلق.

كان خالي يونان يأتي كل يوم سبت يقضي ليلتين مع امرأته وأولاده، ويسافر صباح الاثنين وراء أكل عيشه.

قبل الفطار صباح الأحد، بدري، تفتح خالتي إستر الباب الذي ظل مقفلاً عليهم طول الليل، وتقذف بطشت مليء بالماء والصابون على أرض الحوش، أمام باب الغرفة، تصنع بِرْكة صغيرة سرعان ما تنشف، وتخرج على الفطار وجهها المدوّر يشع رضىً وجمالاً وبهجة، وقميص نومها الساتان الأزرق اللامع الذي يكشف عن أعلى ذراعيها ويفتح عميقاً عن صدرها المليء، تضع عليه الشال الأحمر الداكن الخفيف المخرّم، من باب التحشّم على الصبح في حضرة جدي

ساويرس، ولكن ثنيات قميص النوم تترك خطوطاً لا تمحى في القماش اللامع، تلفّ تحت البطن كامل الاستدارة.

وكنت بالليل، من الغرفة المجاورة وعبر الحائط الطيني، أسمع أصواتاً، تراودني في نصف حلم نصف يقظة، مكتومة كأنها أنين أو حمحمة. وكانت حكاية ستّ الحسن والجمال التي سحرتها الغولة بقرة حلوباً تئنّ بالليل وتطلب رَجُلها الذي يفكّ الرَّصَد ويفسد العمل، تعمر ليلتي وتملأ خيالاتي.

أنظر إلى سقف الغرفة البعيد المعتم تتراوح عليه الظلال والظلمة.

عوارض الخشب التي تسنده سوداء قاتمة السواد من الناحيتين، عندما تنزل تستقر على طرفيْ حائطيْ الغرفة: الحائط الخارجي للبيت كله الذي يلاصق بيت آبا أرساني، والحائط الآخر الذي يطل على الحوش، فيه شباك واحد ضيّق له ضلفة خشبية مسدودة واحدة، تُغلَق من الداخل بترباس حديد صغير مدوّر وصدئ صعب الحركة.

وكان الشباك موارباً الآن، الليلة حرّ، أرى منه شقاً من سماء الليل، ونجومها الكثيرة يقطعها سعف النخلة الواحدة السامقة التي قال جدي ساويرس إنه زرعها بنفسه وهو شاب فتيّ، من خمسين سنة أو أكثر يمكن، بعد هوجة عرابي بعشر سنين، يمكن.

همست لي خالتي سارة: لسه صاحي يابْني ياضناي؟ واحسست ذراعها تمتد إليّ تحتضنني، وكان بين ذراعيها أمان من القلق وهدهدة لاستثارتي، وتأكيد لي. كانت جلابيتي مرفوعة على رجلي وأنا أنزلق إلى أول النوم، نعومة ساقيها تعيدان إليّ نعومة العالم وطمأنينته. لويزة

بنت المعلم شنودة البقال أراها تعطيني حُقّ الدخان أبو غزالة لجدّي ساويرس، بعد أن كنت قد تهت في الليل أبحث عن الدُكان ولا أجده، ورعب التّيه والفقدان يوقف القلب ويخطف النَفَس، عندئذ وجدتها فجأة، في عينيها معابثة، وعمق الصبيّة الفلاّحة التي خرطها للتوّ خراط البنات، و. . تعرف. . صدرها صغير جداً مازال ولكنه قائم وصلب ومخروطيّ تحت فستانها الملوّن المشجر رقيق القماش هل تلبس شيئاً تحته؟ نهداها النابتان مقتحمان، وساقاها رفيعتان ولكن تبدوان مسحوبتين برشاقة من تحت الفستان، وهي تطلع على الكرسي الخشب الواطئ ذي الأرجل الثلاث السميكة الذي عمله خالي سوريال، وتمد ذراعها لتأتي لي بعلبة الدخان من رف علويّ، ضحكتها مبحوحة إذ ترفع رأسها تلقيه إلى الوراء قليلاً بحركة دلّ بناتي، فينزلق المنديل الأحمر المعقوص في مؤخرة الرأس، ويبين الشعر الأكرت البُنّي والضفيرتان المجموعتان معاً في لفّة مكوّمة غير محكمة، أعرف ـ أو يُهيأ لي ـ أنها عندما تفردهما تصلان إلى ما فوق ردفيها الململومين المضمومين أحدهما إلى الآخر، هما بقلّة لحمهما نفسه، مثيران.

الطرّانة في ١٩٤٣/١١/٢٢ حضرة الأخ المحترم أبو أمين لا عدمته أقدم لحضرتكم وللست سوسن وللأستاذ والآنسات العزيزات سلامي وأشواقي الكثيرة متمنياً دوام الصحة والرفاهية وبعد كنت بدمنهور من يوم الأربع وحضرت منها يوم السبت وتقابلت مع زوجتنا وديدة بمحطة ايتاي البارود وصلنا البلد سوياً بسلامة الله وبركة يسوع عرفتنا كريمتنا سعدية عن احتفالكم بها وإكرامكم لها حال وجودها بطرفكم

وأنها قضت طول مدة إقامتها بالاسكندرية عندكم وكانت مبسوطة جداً وإني واثق في شهامتكم فأنتم أهل لذلك وتجدني شاكر لأفضالكم الكثيرة ومحبتكم الخالصة وشعوركم الرقيق ولاغرو أنه عندما كان الأستاذ نجلكم طرفنا في الطرّانة وعزبة داود كان مثالاً يحتزا فذاك الشبل من ذاياك الأسد ونسأل المولى سبحانه وتعالى أنه لا يحرمنا من مودتكم من هنا وديدة وسعدية بنتنا والست أم يونان والأنسة سارة وقبلنا جميعاً عمي ساويرس وجميع العائلة بخير ويهديكم أزكى السلام نرجو الإفادة عن الحالة عندكم وعن استمرار الغارات من عدمه، وعن صحة الأستاذ ونجابته في دراسة الهندسة برعايتكم وذلك للاطمئنان أخيك المخلص فانوس ارسانيوس.

شهر واحد قبل أن يموت أبي في ديسمبر من تلك السنة.

سنتان، أو ثلاث؟، بعد أن تركت الطرّانة في آخر الصيف.

فحل الثور يخرجونه في مَيْعة الصبح من زريبة خالتي روزة وخالتي سالومة، وضعوا له إكليلاً من عباد الشمس الأصفر حول رقبته الغليظة. حجازي زوج خضرة القصير المدموك يجر سَلَبته بقوة، حتى إذا جاء تحت النبقة الضخمة كانت بقرة الشيخ علوان مربوطة في وتد خشبي متين مدقوق بمسامير غليظة في جذور النبقة، تتململ وتخور وتنوح، تطلب العِشار وكأنها خائفة منه في الوقت نفسه، عيال البلد اتلمّوا في حلقة واسعة، الرجال فَزّوا فيهم الآن فسّخ ياواد انت وهوه فسّخ يابن هنومة، شوف ياخويا الواد مِتنّح ازاي، الفحل هبّ فجأة ولكنه لم ينجح، سقط ودار بخطمه الذي يرشح بخيط متصل كثيف من السائل الأبيض، وهجم وهو يجأر بعنف، واستدار، ولكن السلبة

المفتولة في يد حجازي وأخيه عوضين وقد ثبّتا أقدامهما بالأرض بكل ما في منّتهما من أَيْدٍ وقوة، أبقت الفحل في حدود دائرة لا فكاك منها يخبط قرنيه بالأرض ويرفعهما، عاد وشبّ مرة أخرى واشتبك، تجمد لحظة في ذروة الالتصاق والولوج غير المرئيّ تقريباً، هبط صمت ملهوف على لمّة الرجال والعيال والنسوان اللاتي أخفين وجوههن وراء بيبان البيوت، يتهانفن بضحك مكتوم، ثم ارتفع التهليل مرة واحدة، بالتكبير والهيصة والضجيج، هيه.. هيه.. يه، الله أكبر أهو كده ياوَلَه.. فحل ابن فحل!

تململت وأنا نائم، رائحة روث جاموستنا، حارّة وخصيبة وبشرية تقريباً، تهبّ عليّ من النافذة نصف المفتوحة.

القرد العاقل الحكيم يقف منتصباً على قمة كوم بوبيللو شاهقة الارتفاع، وكأنه حاضر معي على الأرض، أراه قريباً جداً بكل جسامته، وابتسامته الحكيمة وعقوده الفيروز، يحدق إليّ بعينين فاهمتين وصارمتين، أعرفهما، هالة النور تدور حول رأسه، شعره مسرح ناعم بالبريّانتين، ينظر في مرآة مكسورة، أكاد أمدّ إليه يدي. متضرعاً شاكياً؟ أم ممتناً ومشارِكاً؟ حلقة الأشعة الباهرة تدور تلمع تومض تتقلب في دورانها حول الشعر الكثيف.

الشقافة السميكة خضراء الزجاج مرشوقة على سور السراية التي كأنها تنبثق من قلب بوبيللو أو تأوي في داخله، وكأن أشجارها الكثيرة قد اختلطت بحجارته، مهدِّدة، طاردة. تنفتح فجأة خلف الكنيسة فجوة أرى منها فناء فسيحاً ممتداً إلى بعيد داخل أكوام الأنقاض وتراب القرون، أخشى أن أخطو إليه، ولكني لا أستطيع أن

أحجز نفسي عن الدخول، القرد يمد فكيّه المطبقين إليّ، أحس نفث أنفاسه الحارة على وجهي، قريباً جداً، ويقترب، ويقترب...

انتفضت نفضة واحدة.

يقظني كانت صدمة حادة وسورتها عالية خاطفة، وقد انقذف لها جسمي كله للأمام. لم تحس بي خالتي سارة ولا أخواتي.

نزلت من على السرير ببطء وحرص، خرجت إلى نور السماء الليلية عميقة الزرقة، مثقوبة الجلد بإبرٍ مشعة لانهاية لها.

كان الحوش صامتاً، دفء الجاموسة، والفراخ الرابضة في الزريبة المقفلة يُشعّ عليّ، وأنا أذهب إلى الزير المرتكز على قاعدته الحديدية معوجة التدوير قليلاً، تحتها طشت نظيف صغير، يرشح إليه الماء النقيّ، نقطة نقطة، تاك تاك تاك، بلا صوت تقريباً وببطء شديد، عبر نَوى المشمش الذي يتخايل لي تحت الماء المصفّى خفيف الاهتزاز في قاع الزير، وأنا أدبّ الكوز، أشرب بنهم، عطشي أحس أنه لاريّ له، ولا يقين فيه، حتى.

٩ ـ ثمرة جافّة

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة، ظهراً.

مرّ الاكسبريس الطّوالي، يدقدق على الفلنكات من بعيد، وصفّر طويلاً، خَبْطُ العجلات على القضبان له أصداء منتظمة في أفق الحقول.

عندما قال لي المعلم جورجي هل ممكن يعني لو سمحت يا أستاذ، تمرّ على بيتنا؛ آتي له بالمسبحة الكهرمان التي نسيها تحت المخدة، ستّ حِنينة تعرف مكانها.

كان بيت الست حنينة ـ الذي يسكن فيه الآن معها زوجها الجديد جورجي، وباسيلي أخوه المشلول ـ في آخر البلد، وحده، بين جسر النيل العالي من ناحية، وغيط الست حنينة الذي يفتح عليه باب البيت مباشرة من الناحية الأخرى.

الساقية القديمة المهجورة تقع قبل البيت، بخطوات.

يعني كل الناس تعرف أنها مسكونة، وأنهم ـ كلامنا خفيف عليهم ـ يخرجون للمارّة في نصف الليل أو عزّ الظهر. العابر خَليّ البال يجد أمامه فجأة حماره الذي تركه يرعى أمام البيت أو في الحوش، واقفاً أمامه، بصمت واستكانة، من غير لجام ولا بردعة، كأنه ضل الطريق أو انتهى به التجوال إلى هذه البقعة، أمام الساقية بالضبط.

ويل له إذا ركب حماره، المألوف الذي يعرفه حق المعرفة. سيرتفع به الحمار فجأة، بسرعة خاطفة إلى أعلى، إلى أعلى، إلى أعلى، سيقانه

تطول تطول، رأسه يضارع شواشي النخيل، ينهق وكأنه يضحك ضحكة الضبع، ثم ينفضه ويلقيه في قاع الساقية، لا قيام له بعدها. ولا مهرب له من على ظهر الجنّي اللئيم إلا بأن يغرس الواحد مطواته باسم الأب والابن والروح القُدُس إله واحد آمين، باسم الله الرحيم الرحمن وبقوة آية الكرسي أو عدّية يسن، بين منكبي الجنّي - الحمار الشرير، وأنت تقرأ أبانا الذي، أو الفاتحة، وإلا وجدك المارّة، يعني وجدوا جثتك في بئر الساقية، ونحن جميعاً نعرف، ولكن الحادثة تُقيّد في محضر الحكومة قضاءً وقدراً. يعلل العمدة ذلك أمام معاون البوليس أو وكيل النيابة بالسقوط من جسر النيل العالي بالليل، على خشبة الساقية الصلبة التي نشف عنها الماء من زمن بعيد، يعني، يمكن، في الغالب والله أعلم.

عمي جورجي كان يعرف عني تهوّري الصبيانيّ - هل بقيتُ على هذا التهوّر، حتى الآن - وأنني لا أتورّع عن تحدي الجن والعفاريت في عزّ الظهر، ولا أخشى المرور على الساقية القديمة، أو التوغّل على الجسر الحجري الداخل في عرض النيل حيث تطلع عروس البحر، حورية الماء، بشعرها الأسود الغزير المنسدل على ظهرها العاري، ثدياها القائمان يومضان ناصعين من وراء خيوط الشعر الحرير الكثيف، تغوي الرجال، تخطفهم إلى العمق فتضمّهم إلى أزواجها اللانهائيين على طول الزمن، لا يُعثر لهم على جُثّة، إلى الأبد، أو تظهر الجثة عند الكوبري في إتياي البارود، أو على شاطئ إحدى الجزر النيلية، منتفخة شائهة أكل منها السمك. فنعرف أنه خاب معها، ولفظته.

كنا بالأمس جالسين تحت النبقة الكبيرة، حلقة واسعة من الرجال، جدي ساويرس، آبا أرساني، خالي ناثان وخالي يونان معاً، وعمي فانوس وأخوه الصغير برسوم، وأنا. كان معنا أيضاً حجازي زوج خضرة وعمّي ميلاد الذي يرعى زراعة جدي ساويرس.

خالي يونان يبدو نعسان مسترخياً، جاء من الاسكندرية مساء الجمعة متأخراً، وعلى وشّ الصبح سمعنا طَشّة الماء والصابون على أرض الحوش، واختفت امرأة خالي إستر التي أُحبها، ولم تخرج من غرفتها إلا على الضحى العالي. حضر الخطوبة، بالمرّة ووقّع على المحضر، وبارك للعروسين، وسوف يسافر غداً بعد الظهر إلى اسكندرية، يجري على قوته وقوت أولاده بالتاكسي الضخم القديم الذي يبدو لامعاً، رافع الخطم عالياً، كأنه لسَّا خارج من الفابريكة.

وكنا نجلس كيفما اتفق لنا، على الشِلَت الموضوعة فوق الكراسي الواطئة، من عمل خالي سوريال؛ على المخدة الصلبة مرمية فوق جذع شجرة عريض مقطوعٍ من زمان، راسخٍ في الأرض، سطحه مسودّ ولامع، من جلوس أجيالٍ عليه من عائلات الطرّانة؛ فوق حجارة كبيرة بيضاء؛ فوق قطعة رخام منعمة الحواف عليها أثارة رسوم غائرة زائلة، هل جاءت من بوبيللو؟ أو جالسين على الأرض مباشرة، هو فيه أخْيَر من جُودة الأرض؟ دا الخَلْج كلّتها كَلِيلة م التّراب وللتراب..

كان خالي يونان شامخاً في جلسته، كِبْر ونُبْلُ مَحْضَر معاً، وسوف تخرج امرأة خالي إستر لتودّعه، تسلّم عليه بيد طرية صغيرة ومكتنزة، وهي تغضّ رأسها وتنظر إليه من تحت لتحت نظرة خاصة، بعد ليلة

أمس، نظرة هل فيها تملُّكٌ وتَرَجٍ وامتنان ورضى وتحذير وانتظار معاً؟ وسوف تأخذه ستي أماليا إلى حضنها الجاف ـ الذي حنانه يسع الأرض ـ وتدعو له، كما تدعو لي؛ صحيح أن أعزّ الولد هو ولد الولد. ولكن في دعوتها له حرارة أعمق وهجاً، ربما، فقد خرج الآن إلى حوزة امرأة أخرى، تتمتم يحميك لشبابك ولولادك ومراتك ياخويا راضي عليك قلبي وبزّي وحجْري يابن بطني يايونان وأنا طاهرة وفاخرة ويسوع يقبل مني دُعاي بعدد شعر راسي وشعر بدني بادعيلك يايونان يابن أماليا تكسب وتربح والمسيح يرعاك في الرُوحة والجايّة ويجعل لك في كل خطوة سلامة وهي ترشم على رأسه علامة الصليب بسرعة وخفّة وكأنما بخفاء، كأنما تخجل من حبها لابنها البكر.

رفع ميلاد الإبريق الضخم المُسْوَدّ من الهباب، وهو يكتّ، ويغلي، من على النار المتراقصة في الهواء متصاعدةً بألسنتها مهتزة متراوحة القوة في الكانون المرتجل الذي صنعه في الوسعاية جنب جذع النبقة العريقة.

وصبّ الشاي، قاتماً، ثقيلاً، كُحْل، في كؤوس صغيرة مخنصرة الوسط رقيقة الزجاج، على صينية نحاس عريضة، جاءت بها خضرة من عند خالتي روزة وخالتي سالومة، ونزل السائل الكثيف في الكؤوس وهو يرغي رغوة صغيرة وله صوت وشيش مليء.

كان طعمه مُرّاً حاذقاً حريفاً جداً وعطراً له نكهة قابضة للّسان، شربته مرةً واحدة حتى أطيق لذعته.

عمي فانوس يرفع رأسه الحليق في طاقيته النظيفة المكوية، فجأة، إذ مرت من أمامنا خالتي سارة بسرعة ورشاقة، بخطىً خجِلة وجريئة معاً، ناحية بيت آبا أرساني، وفي عينيه تلك النظرة الوامقة التي تعرف منذ الآن حرمانها المضروب وتسلّم به ـ لكن لا تقبله ـ تخضع له وتعنو، لكن لا ترضى به.

سمعت لغط البنات وضحكهن المكتوم في خبايا البيت، كانت أختي عايدة وهناء الصغيرة جوّة أيضاً.

كان عمي سلوانس الصرّاف يحكي لنا عن حكاية حدثت في شبين الكوم عن سائق تاكس بالنفر، ممن يسافرون بين القرى والكفور، قتل شقيقته الصغرى ليستولي على مصاغها. قال إن الجيران سمعوها تتوسل وتصرخ، رأوها تسقط تبوس رِجْله، لكنه شدها إلى داخل البيت من شعرها وكتفيها، ظنوا أنها مسألة عرض وشرف، وأنه يغسل عاره، فلم يتدخل أحد. حطم رأسها بالمانفيللا، وباع المصاغ، وسافر اسكندرية، وأنفق المبلغ على رفيقته الراقصة، قال إن البوليس عرف اسم الراقصة، سعاد فهمي، تشتغل في فرقة ببا، بكازينو مونت كارلو في الشاطي.

نزل عليّ صمت وحزن. كانت صورة الراقصة في مجلة «الاثنين والدنيا» مثار أحلامي الشبقيّة، فكأنها خانتني.

ولما جاء الدور الثالث من الشاي، حلو عسل وخفيف كأنه شربات، أدركت فجأة أني لم أنتبه حتى للدور الثاني الذي أخذته من يد عمي ميلاد. دور وِسْطاني، نُصّ نُصّ في كل حاجة، في الثقل وفي التحلية على السواء.

كان آبا أرساني ينظر إلى حلقة الرجال بصرامة ومحبة، رقيق الجلد أيضاً يكاد يكون شفافاً، لكنه صلب العظام، وشم الصليب الأخضر المورق على جانب جبهته يكاد يبهت الآن، بعد كم سنة؟ وجلابيته البيضاء المكويّة تشع نظافة وصحواً وبهاءً، رفعها قليلاً عن تراب الأرض، قدماه الناحلتان في شبشب جلديّ مغطّى، الطاقية البيضاء المدورة قائمة الجدران، من نفس قماش الجلابية طبعاً، انزاحت قليلاً إلى الوراء ـ كان يبدو سعيداً وراضياً جداً، آبا أرساني عندئذ ـ ترى لماذا؟ ـ وبان شعره الخشن الجعد، أملح ورمادياً مازال عفياً، قصيراً ومجزوزاً يعطيك حساً بفتوة باقية.

قال فجأة، بين رشفة شاي مستمتعة وأخرى:

ـ ألاّ جُولِّي ياساويرس. هو انت ماعدتش بتزور وَهْبه والاّ إيه؟

أحسست مفاجأة السؤال على جدي ساويرس.

قال: يوه يارْساني. ماكنت عنده في مصر من كام شهر.

ـ إزيّه دلوجتي؟

ـ كويّس. زيّ ما هُوّه. حيكون ازيّه يعني؟

كنت أعرف ـ من غير تفاصيل كثيرة ـ أن آبا وهبة، أخا ساويرس، في السراية الصفرا، في العباسية، من سنين.

وذلك كان عندي مكاناً له رهبة، بل مخافة.

كنت أتصوره صرحاً منيفاً مطلياً بالأصفر الداكن، مغلقاً بإحكام وله أعمدة وأجنحة شامخة، وفيه ردهات فساح يتمشى فيها أناس لهم جلال وهيبة لا يتكلمون ولا يجيبون على السؤال، وفيه أيضاً حبوس

موصدة بالحديد المشبّك وأناس فيها مكبّلون بالأصفاد يتخبطون ويصرخون بلا مجيب.

وكانت حكاية آبا وهبة وكأنها شيء محرّم، فلا يأتي أحد بسيرته، وحتى الآن ـ وقد راحوا جميعاً، منهم مَنْ آب إلى بوبيللو، ومنهم من أوى إلى تُرب الشاطبي أو المنيا أو مارجرجس في مصر القديمة ـ لم أعرف قط ما حكاية آبا وهبة بالضبط، لماذا أُودِع العباسية؟ أكانت حكاية نزاع على أرض أو توزيع ميراث، أو حكاية عشق وقتل قديمة ومحظور الكلام فيها؟ هل ثَمّ عشيقة ووُرِي بليلٍ جسمُها المُهان ـ والمكرَّس معاً ـ الذي يحمل آية العشق، دون قداس الجناز، سُدَّت عليها تربة لا اسم عليها ولا صليب، في بوبيللو؟

قالت لي أمي، مرة، بعد ذلك بسنوات إنها زارته في السراية.

قالت إنه كان وديعاً وهادئاً ومشرق الوجه كأنه مازال فتىً في العشرين، أو كأنه بلا عمر ولا زمن، قالت، وإنه عرفها وسمّاها باسم طفولتها، ناداها: لبيبة دانت كبرتِ أهُوه، واتجوزتِ وخلفتِ يابتّ ساويرس؟ ربنا يخليهُمْ ليكِ. وسأل: إزاي أبوك أرساني؟ وأمك أماليا؟ قالت كان كالقديس.

وقال لها:

ـ بتبكي ليه دلوجتي؟ صعبت عليك نفسك. . دا العمر مافيهش غالي يالبيبة. جولي لهم في البلد مش عايز زيارات. كلهم معايا، لِيلْ نهار. وروّحي انت دلوجتي يابنتي، الله يباركِك.

ترقرقت عيناها بالدموع وهي تحكي.

مات أبا وهبة منسياً، بعد أن شارف الثمانين أو جاوزها، ولكنّه دُفن في بوبيللو، كما يليق.

تكفَّل بذلك كله عمّي فانوس.

بعد أن شربنا الدور الثالث من الشاي، تلفَّتَ آبا أرساني، عينه حادة وجارحة كالصقر مازال، ونادى على أختي عايدة، كان يؤثرها بإعزازه، يُفرِد لها مكاناً خاصاً جنبه في مجلسه، وفي قلبه، هل لأنها كانت صغيرة الوجه، سمراء جداً جعدة الشعر؟ وقال لها، تعالِي هنا يابنتي، يابنت الغالية.

كانت خجِلة أمام كل هؤلاء الرجال، ولكنْ شُجاعة غير متهيّبة.

قال: إجْرِي لنا شوية من ألف ليلة هو فين الكتاب يافانوس؟

قام ابنه ـ مطيعاً ـ وجاء بالكتاب من جوّه البيت.

قال: احنا وَجّفْنا فين البارحة يابنتي؟

قرأت لنا عايدة بصوت ناعم خافت لكنْ شديد الوضوح وواثق. ولأنني كنت أكاد أحفظ «ألف ليلة وليلة» عن ظهر قلب، كما يقال، عرفت أنها تجاوزت، دون خجل ودون تردد، تلك المقاطع التي تذكر الأشياء بأسمائها الصريحة، كأنّ ذلك من باب اللياقة فقط، كأنها لم تحس في تلك المقاطع بذاءة أو تجاوزاً، واستمرت في القراءة.

مازلت حتى الآن، بعد نصف قرن تماماً.. ياه.. أفتقد لثغتها الخفيفة وصوتها الخاص، ويهتز قلبي لفقدانها، الأخت، القرينة، أنا الأخرى التي لاعوض عنها، طبعاً، في أيّ أحد.

عـادت خالتي سـارة ومعها لنـدة ورحمة يمـرقن من أمام الـرجـال، عائداتٍ إلى بيت جدي ساويرس، خافضات الرؤوس يـرمقننا بـأعين بريئة المكر. واحمرّ وجه عمي فانـوس. كان سريعـاً إلى التضرُّج وظل حتى الآخـرِ وخاصـة عندمـا يشرب قليلاً تـرتسم على عـظمتيْ وجنتيه بقعةٌ محمرة ومُنعِشة تحت جلد وجهه الرقيق المشدود، تتسع حتى قرابة أنفه الأقنى الأشمّ.

وكانت رائحة الزَفَر، مشبعة وعذبة، تهبّ علينا مع دخان الكانون الكبير في حوش بيتنا، ستي أماليا تطبخ للعشا دكرين بط.

ليلة الأحد، بقى.

خالي يونـانٍ جاء، ومحتـاج يرمّ عَـظْمه، رائحـة دخان وقِيـد أعواد الذرة الجافّة وحطب القطن وورق الجرايد وخشب النبقة المكسّر الذي كنت قد خلعتُه ـ منذ أيام ـ بضربـات الفأس من عـلى أطراف فـروع الشجـرة العريقـة بينما ستي أمـاليا تهتف بي من تحت: يـاواد بزيـادة، حاسب ماتطلعش فوق. ولكني كنت منتشيـاً بسُكْر المغـامرة وجسمي يتـأرجح عـلى الأغصان العـالية، مهـتزة رقيقة تنـذر بـالانفصال كـل لحظة، ضربات فأسي تنزع أطرافها الـرقيقة الصـالحة للوقـود، رائحة نسـغ الخشب الحيّ ولحمه الغضـير، مع الهـواء الممتـلئ بـالخضرة من ورق الشجر متكاثفاً ومترقرقاً حواليّ، فيها حلاوة هيّنة، تزيد من خمـر استهاتتي.

كم سكـرت، أنا، قبـل المـذاق. بـل صرعتني خمـرك. فكيف بي غريقاً في سورة جسدك؟

سُكْري مركَبٌ طاحت به اللُجج.
لا مرسى لي.
حتى الآن.
حتى الآن.

كتب عمي فانوس لأبي رسالة عزاء رسمية قليلاً وحسب الأصول، بعد أن مات غَنَنّ - أخي إميل الصغير الذي لم أعرف لي أخاً غيره - بالتيفوئيد، بعد عذاب طويل. كانت أختي عايدة قد ماتت قبله بشهرين، بالمرض نفسه ونجوت أنا، وأختي هناء.

وجدت الرسالة على ورق أصفرّ من الزمن، به مربعات زرقاء باهتة، عزيزي أبو أمين، أقدم لحضرتكم وللست والأنجال سلامي وأطيب تحياتي. وبعد حضرت لطرفنا الست أم يونان أمس بسلامة الله ولكن صحتها منحرفة وعلمنا منها بوفاة نجلكم إميل فتكدرنا جداً يعلم الله ولكني واثق من أنك رجل عاقل وتعرف الله ومن يعرف المسيح يرتاح. نسأل للفقيد الرحمة ولكم الصبر والسلوان. وديدة زوجتنا تشاطركم الأحزان وتهديكم سلامها وتأسف لعدم حضورها نظراً لأن الست والدتنا موجودة بدمنهور من مدة شهر تقريباً. سارة عيونها مريضة وربما تحضر لطرفكم قريباً. من هنا الجميع بخير ويهدونكم أزكى السلام. أخوك فانوس أرسانيوس الطرّانة في ١٧/٨/١٩٤٣.

أربعة شهور فقط قبل أن يموت أبي.

قلت: الله يرحمك يا خالي ناثان. عندما كتبت رسالتك للعزاء لم

تلجـأ، أنت، إلى إكليشيهـات الصـبر والسلوان والسلام والتـماس الأعذار. بل أوجعك الفقد، وأوقعـك مريضـاً محشوش الـوسط. كم كنت ـ أنت ـ حارّ القلب.

قلت: أجئت تحاسب الناس بعد أن ماتوا، وشبعوا موتاً؟

قلت: نعم.

كنت قد شُغِلت عن ذلك كله.

في ١٤ مايو ١٩٤٨ كنت موقناً أنني سوف يُقبض عليّ، ليلتها.

وقرأت في الأهرام أنـه وجدت طفلة ضـالة في الشهـر السابـع من عمرها ملقاة في دار محكمة الوايلي الشرعية. وعثر البـوليس بطفـل في الثانية من عمره كان ضالاً بدائرة قسم الوايـلي، وبطفـل اسمه محمـد حسنين في الخامسـة من عمره بـدائرة مصر القـديمـة، وبـطفـل يبلغ الرابعة واسمه سيد محمدي بدائرة قسم شبرا.

أطفال ضالة.

وأن النيابة استأنفت الحكم الصادر من محكمة جنح الوايلي بـبراءة عبد الرحيم راغب المتهم باحراز قنبلة، وتحدد غداً لنظر الاستئناف.

عرفت من رحمة أن دلّالة طوّافة بالبلاد، أصلها دميـاطية، سمعتْ خبر خطوبـة عمي فانـوس وخالتي وديـدة، فجاءت، مخصـوص، من شبـين الكوم، ومعهـا جميع أصنـاف التطاريـح الدميـاطي المضمـونـة الصبغـة، والبراقـع، والـبرنجـات، والملسـات الإدكـاوي، والـطرح الكريب والكريشـة الحريـر، بالمتر وبالـوقّة، حسب طلب الـزبونـة،

وعندها أيضاً أصناف الحراير والملايات، المزوي والقطن، والجبردين برامة الدمياطي. وأن خالتي وديدة فاصلتها حتى أهلكتها ـ وهي الدلّالة بنت السوق.

واشترت منها، بالرُخص، ما يلزم للجهاز.

كان جلالة الملك جالساً، بكل تلك الفخامة الصبيانية التي تبرق وتضيء، وجهه الشاب لامع ونضير، في العربة الملكية التي أقلته إلى دار البرلمان يوم الافتتاح، مقفلة، بتطاريز ذهبية، وقد وقف خلف العربة اثنان من «الجروم» بالزيّ الخاص، واقفين على حيلهم على العارضة المعدة خلف جسم العربة المدوّر الموصد، علامة التاج المذهبة ملصقة بطرابيشهم الحمراء.

كان الطريق خالياً، موحشاً، تماماً.

حموة الظهر ساقطة عليّ بلا رحمة.

وأنا أمر جنب الساقية القديمة، على وشك أن أدخل بيت الست جِنينة، أطلب منها السِبْحة الكهرمان من تحت مخدة المعلم جورجي.

نادتني شجرة السنط، شعرها المنسدل على صدرها العريان أشقر يضرب إلى البياض، وبه زهور صفراء، جسمها أملود يتمايل، لدناً وغضاً وداعياً بقوة لا تُردّ. هي سهلة أمامي، متاحة، مفتوحة الساقين.

ـ تعال، حبيبي، لا تذهب إليها، تعالَ إليَّ أنا، بين ذراعيَّ أسقيك الشهد المصفّى. تعالَ. . تعاااالَ. . .

أنين ندائها يسري بالخدر في دمائي.

أجد نفسي دون أن أعي سائراً إليها، على حافة التردّي في حضنها.

وقفت فجأة في آخر لحظة.

وجدت نفسي على حرف بئر الساقية، يكاد يهوي بي.

ببطءٍ استرددت دمي من الأسْر، ومن وقدة نار الظهر.

وبعنفٍ اندفعت نحو باب ست حنينة.

كان الباب مردوداً، خبطت عليه برفق فانفتح من تلقائه.

العتمة الخفيفة الرحيمة اشتملتني، في ظل أشجار الحوش، الجميز والجوافة والنخل والنبق والمانجة.

عبرت آخر الحوش المظلل بتكعيبة عنب وارفة، مريحة، وعطرة برائحة سكّرية، متخمرة قليلاً جداً، هبْوة من بَضّ العصارة المحبوسة التي تهمّ أن تتفجّر من تحت جلدها الغضّ. دارت برأسي تلك الرائحة.

ووجدت نفسي على عتبة الغرفة الكبيرة الوحيدة وقد وقعت في قبضةٍ أشدّ أسراً وأكثف شمائل. في عتمةٍ من نوع خاص، مرئيّ، كأنها نور خافت جداً وغُمايل وشائع، رأيتها، مع عمي باسيلي. رأيته يزحف بمشقة، يجر جسمه بقوةٍ دَفْعِ خاصرتيه وكوعيه، على أرض الغرفة المتربة.

رأيتها ترفعه عن الأرض، ساقاه وذراعاه متدلية، لا حياة فيها، يرفع إليها رأسه المغضّن المشقّق المتطلّب، كأن نور العذاب يتوقد من

عينيه، في تلك العتمة النيّرة. وصوت مكتوم بين الأنين والحشرجة ينِدّ عن فمٍ فاغر. أهذا هنين بكاءٍ جافّ؟

كل قسمة في الجسم المشلول فم فاغر مفتوح تتقلّب فيه الشفتان، يتلوّى اللسان العييّ في كهف الفم. ولا صوت.

كل قسمة في الجسم المضروب عينٌ تموت رغبةً في النطق، في أن تقول شيئاً، أن تصرخ، تجأر. ولا صوت.

أيدٍ متقبّضة على لا شيء، متشنّجة الأصابع، ممدودة إلى أقصى الطاقة، العظْم متوتر، مشدود، يطعن الهواء ويغوص فيه بلا مقاومة، ولكن اليدين مرتخيتان، بلا قوة على إنفاذِ الإرادة، بلا صوت.

طلل الجسم الذي كان عفياً فتياً مازال يحتفظ بقناع القوة، من الخارج فقط. استُنفِدت منه كل مقدرة. لم تبق فيه إلّا حِجار منقضّة، دَفْعة إرادةٍ لا رادّ لها، ولا سبيل - أي سبيل - إلى تحقيقها.

إرادته أن ينطلق، ينطلق. لكنه أخرس. كل شيء فيه أخرس، ما أشد صرخته المدويّة، صامتة، يطبق عليها أنين وزحير مهدود، يطبق عليها الصمت.

رفعته حنينة من الأرض، وضعته على السرير، رأسه على المخدة الطويلة.

من وراء داير الدانتيللا - متناثرة عليه بقع دقيقة سوداء - رأيتها تطرح طرحتها على جنب، وتُنزل ثوبها الخارجيّ الأسود، وثوبها الداخليّ الملوّن، والقميص الساتان الأخضر الفزدقي، من على صدرها. تخلّص عنقها من التقويرة وتنزع ذراعيها من الأكمام بحركة

سريعة أدهشتني دقتها وإحكامها. تتكوم الأثواب على وسطها وتستقر فوق الردفين الهائلين.

كان الثديان العظيمان كرتينْ تملآن العالم، لكن جمالهما وصباهما يخطفان النَفَس، مشدودين، الحلمة منتصبة وطويلة.

تُلقِمه ثديها.

لم أر إلا عينيْ ذئب هصور، مكسور.

لم أكن أحس بنفسي، كأنني مُسْتَرق.

أقول لنفسي الآن: لم أكن متلصصاً على مشهدٍ شبقيّ. بل مأخوذ، كالعادة، برؤيا كأنها نبوءة.

انضمت الشفتان الضاويتان، ببطء، وتلمُّس، على الحلمة أولاً ثم انطبق الفم على الثدي الأبيض المتوتر، الهائل، الذي استقر الآن على الشارب الكثّ، على الوجه المضروب، خشن الجلد، مغمض العينين؛ شعر الوجه غير الحليق شائك.

لم يكن ثديها يدرّ الشهوة بل لبنَ الحنان، عزاء من فقدانٍ لا يُعوَّض.

لا عن شفقةٍ أو رثاء، بل عن توكيد لأنوثتها، ورجولته المحجوزة.

عن انتصارٍ للمرأة الأم العشيقة.

فِعْلُ الحب فعْلُها، ليس منه.

منها، هي وحدها، لكل المعطوبين، لكل الساقطين.

المعلولين والمسحوقين.

المبتسَرين والشائهين.

أذلك إذلالٌ لكل الرجال، انتقامٌ من كل الرجال، من أبيها الذي لم يعـرفه أحـد، زوجها الميّت، ورجّلهـا الأعمى المدفـوع إلى حضنها بقوة سيف المَلاك البتّار.

رسوخ صخرة المرأة الناعمة تسدّ كل الثغرات، وكل الثغور.

مرساة ثابتة في لُجج الموج الفاسد المضطرب.

هأنذا أسمع السرّ يناديك.

كم أنفقت من روحي عليكِ، فهل كسبتِ أنت شيئاً؟

أما أنا فقد كسبتُ بكِ ما لا غنى لي عنه.

أهوي، بمحبتي، في عتمة الشجن.

الثلاثاء ١٣ توت ١٧٠٨

٢٤ سبتمبر ١٩٩١

طرقتْ الخيالات بابي، لم أفتحْ لها، بل ماج بي الشوق، واضطرب.

أعرف أنّه سوف يُنضيني ويُضنيني خيالُك الذي يطرقني بالليل والنهار، يُشجيني ويُؤسيني، فماذا أفعل؟ أتحمَّله، على الكلال. بل أستدعيه. لا، لست أستعذب الوجيعة ولا أطيق اقتراب الألم منِّي، فكيف إذ يُطبِق، ولا يمضي؟

«طال بي الحبس» صريع الغواني أم صريع الأشواق المحلّقة.

ماذا أستطيع أن أعطيك؟

كيف أستطيع أن أمدَّ لكِ يد الحبّ، في وحشتكِ، وربّما دهشتكِ؟

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣

ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

قلت كان يصلي له . لا . لها لى لعمي جورجي لنا كلنا .

قلت ليست صلاتي ليست تضرّعاتي . ملاذي كبرياءُ سقطاتي لا أعرف مدىٰ أحقّيتها .

كانت لنده مشتعلة الخدين نارَ الصلاة .

كنت أعرف أنها تدعك وجهها الناعم بقماش التافتاه الحمراء حتى يتضرّج خدّاها وتعضّ على شفتيها بأسنانها وتكحل عينيها بمرود فضيّ رقيق الحافة من مكحلة منتفخة البطن فِضّتها لامعة دائماً ، وتساعدها خضْرة ، بتواطؤ نسويّ ، على أن تختفّ تحت عذيرتها تماماً فيبدو شعرها الوَحْف كأنه ينبثق فجأة على جلد وجهها الغضّ .

لكننى وأنا أخالسها النظر فى الكنيسة كنت موقناً بأن هذا التضرّج ربانيّ ، من وقدة الصلاة بالقبطية والعربية ، ومن وقْع تراتيل المعلم جورجي بصوته العميق الذى يملأ صحن الكنيسة ويهزّ شعلات الشموع ويشرئبّ له الجلد والقلب معاً ، وجهه الخشن المنقور بخروم الجدري العتيق كأنما قد صفَا ونوّر .

رأيت — أم خيّل إليّ ؟ — قطراتٍ من دمعها ، بلّورية ، رائقة ، كاملة التدوير ، تسقط ببطء على الخدّ المتوهّج الرخيم .

قبّة الكنيسة عالية بعيدة فى العلوّ ، خشبية وعارية وقاتمة ، متقنة الدوران مع ذلك ، قائمة من جانبيها على أعمدة رخامية رفيعة ، اصفرّ رخامها — من ضوء الشموع أم من التاريخ ؟ — تيجانها رومانية الشكل ، وبين الخشب العتيق والرخام توافق وتنافر ريفيّ ، يزيد من إيقاعه الفلاّحي دورانُ الشرفة الخشبية التى تدور بصحن الكنيسة وتنقطع عند الهيكل ، خالية الآن ومظلمة . أحسست مع ذلك أنها معمورة ، ترصدنا ، يقظة ومتنبّهة لأحوالنا .

حجاب الهيكل أيضاً من الخشب البُنّي الذى اسودّ تقريباً وسقطت أطرافه متآكلة ، متداخل التعاشيق ، بهتت فيه تطعيمات العاج السمنيّ ، وبعضها حلّ فيه محلّ العاج الضائع تجويفاتٌ فاتحة اللون ، وأبونا أندراوس فى ثياب القدّاس الذهبيّة قديمة التذهيب يأتينا صوته الأخن ، يرتفع أغنّ مسترسلاً ويتدهور هامساً أبحّ بالقبطية ، بمتعةٍ فيزيقية بحتة ، وهو يخدم الحضور الإلهى فى حَرَم الهيكل .

أما تراتيل عميّ جورجي فقد كان لها صدىً غائر فى رَحَبة الروح ، وملء صحن الكنيسة . كان صوته الجوفيّ مع ذلك رنّاناً موسيقاه صافية . هو الصوت الذى نعرفه فى بذاءاته واقتحاماته ، لكنه مروّق ومنقّى ، وفيه ترجيع عذب وآمر فى الوقت نفسه .

ثم دارت بى الأرض .

كان عمي جورجي مرفوعاً ، معلّقاً ، ملصوقاً بجمود دون حراك إلى قبّة الكنيسة .

فى جانبٍ من القبّة ، هناك فى العلوّ ، ثابتاً بلا حسٍ ولا نأمة ، بجثته الضخمة ، بجلبابه الملفوف بوشاح كبيرِ الشمّاسين لكن لونه لم يعد أحمر قانياً بل رماديّ كالح .

لم أصدق عينيّ . لاأصدق . وأعرف بيقينٍ كامل أن مأأراه هو وحده الحقّ . أراه ، هو نفسه ، معنا ، تحت ، يقود الشمامسة الصغار ، يضرب على المثلث النحاسيّ وعلى الصنوج ذات الصدىٰ ، يرتّل بذلك الصوت الملىء بالجسدانية والقدسية معاً ، فى جلبابه الملفوف بالوشاح مونع الاحمرار .

كبير المرنّمين الإلهيّين قائد الميئين رئيس الملائكة صاحب السيف الناريّ

البتار . رآه جورجي الذى لم يكن يرى .
آراه الآن فى هيئته الأرضية .
ألم يره أحد غيرى ؟
أم أننا كلنا رأيناه ، معنا فى صحن الكنيسة ، ولم نر غيره ؟
بينما جورجى مرفوع .
الخاطي الزاني ليس له إذاً مكان فى المقادِس المكرَّسة للربّ صارمِ المحبة .
كنت أختنق فى تراب الطرّانة ، سكران بحرّها ، ونشواتها .
شدّ ما أحتاج إلى إرادة قوية ، بل جبارة ، وساخرة أيضاً .

هي التى تستطيع أن تنجينى من موت الأصباح الخاوية من ساعات احتضارٍ متصل بين أحلام شبقيّة متلاشية . خيالات تئزّ حميدة حنينة لندة خضرة رحمة السراري والجواري سواحر ألف ليلة والحُور العين القيان وحوريات المروج كالغلمان تجسُّدات نصف ناضجة وتوهُّمات حارّة هُولات مضطجعة متثائبة حادّة الأسنان عرائس البحر وجنيّات النيل المنهومات كأنما عليّ أن ألمّ أنقاض هذه الكائنات لا ترميم لها أريد أن أصنع لنفسي آلهاتٍ جديدات أبكار نوايا نصف مطبوخة نوبات ضجر امتدادات قاحلة مستنقعات ملحة أفسح لها ساحة صدرى تتمدد فوق سطحها الآسن طحالبُ غير شائقة ثمر الروح المضطرب ليس من الروح القدس لن يأتي اليوم الذى يعود فيه الغريب إلى حِماه لن يعود إلى الوطن لن يأتيه وطن أين أرضه على فخذىْ مَرْأته فى تربة إلاهته ليس له أرض المحبة هي أولى ثمار الروح .

يا للأوهام — والأفهام — قليلة الذكاء وشائعة حتى الفهاهة ونصول القِتل .

المحبة بَذْلٌ يفوق كل عقل وكل مفهوم . ها ها !
بعد الظهر زارنا يومَها أبونا أندراوس .

كان ، أول مرة رأيته ، قد مدّ لي يده ، بحكم العادة ، لكي أبوسها .

أرى هذا الصبيّ صغيراً ونحيلاً وفى الثالثة عشرة يشدّ على يد الكاهن بقوة دون أن ينحني عليها بقبلة التبجيل التقليدية ، وهو ينظر فى عينيه مباشرة . نظر إليه أبونا بدهشة ، قليلاً ، وقال : هو أنت بَجَى ابن بِتّ ساويرس ؟ اسم الصليب وشارة الصليب ، حارسك لايغفل ولا ينام . وضحك بطيبة قلب وسماحةٍ وامتلاء صدر ، وأحببته بعد ذلك كثيراً ولكننى لم أُقبّل يده قط .

كان يحبّ أن يأتى يلعب الكوتشينة ــ بَصْرَة ، لا يغيّرها ــ أو الطاولة أو الدومينو مع جدي ساويرس أو مع ستي أماليا التى كانت تتقن الدومينو إتقانا كاملاً ، أو حتى مع خالتي سارة الصغيرة . أما خالتي وديدة فلم تكن تحب اللعب . وكان يطلع دائماً ــ دائماً ياربّي ــ مغلوباً ، ولكن سعيد رخيّ البال . كان يخلع عِمّته الزرقاء المدوّرة ، يضعها فوق المخدّة المفروشة على المصطبة ، أمام الباب الكبير ، ويلعب بحماسة ، ولا مانع أن يغشّ أحياناً فى اللعب غشاً خائباً ومكشوفاً كأنه يفضح نفسه بنفسه وعندما يضبطه أحد يضحك ملء صدره . وكان يحب أكْل ستي أماليا عاملة إيه النهاردي ع الغَدَا يامّ يونان ؟ لا بَجَى ملوخيّتك شهدْ مصفّي ، تِسْلَم الأيادي ، ويدوم العزّ .

وكان جورجي العريف يأتى أحياناً ويشارك فى اللعب بحذق ، أصابعه مدربة ومبصرة . معوجّة قليلاً فى اكتظاظها باللحم ، تتحسس أقراص الدومينو بسرعة ، بين الإبهام والسبابة ، وتعرف الرقم من التجويفات الدائرية الصغيرة فى وجه القرص ، ومهما كانت براعة المعلم جورجي ودربته المشهود بها فى كل بيت ، كان آبا أرسانيوس ، ابن عم جدى ساويرس وأبُ فانوس ، دائماً يكسبه ، ويعابثه فى آخر اللعب هو انت عايز تكسب كلّ ـ جة يا جورجي ياخويا ، فيضحك العريف ضحكته الجشّاء ويلتقط ، بين شفتيه السوداوين اللامعتين ولسانه ، حركةَ تلمُّظ ، فى تذكُّرٍ لذاذةٍ متعاتٍ أخرى ، ومكاسب

لا علاقة لها بالحساب ، ومايزال يضحك ويهتز كرشه المدوّر فى القفطان الصيفيّ الحرير ، اللهم اجعله خِيرْ ياوْلاد .

كان أبونا آندراوس يأتي ، بعد الظُهْريّات ، فى جُبّته السوداء الحريرية — لم أكن أعرف الطرّانة إلا فى الصيف — فوق جلابية ناصعة البياض ، وياقتها مقفلة ومُنَشّاة ولكن رقيقة ، حتى فى عزّ الحر .

لم أر زوجته قط ، كان بيتهم الصغير قِبْلي البلد ، يَمّ الكنيسة لَزْق ، ولم تأتِنا قط فى زيارة ، سمعت من الكبار أنها لا تخرج من البيت ، وعرفت بعد ذلك بسنين طويلة أنها خرجت منه أخيراً إلى بوبيللو ، وأن أبونا اندراوس لم يلبث أن لحق بها .

لم يحضر إلا القليلون أكليل عمي جورجي على الست حِنينة معوّض فى الكنيسة التى بدت يومها واسعة وفسيحة وخالية ، ومع أننا كنا هناك إلا أن ستّات الطرّانة لم يأتين ، كأنما كلهن متواطئات ، وكان أبونا اندراوس متعجلاً وسريع الإيقاع فى أكليل عرّيفه وكبير شمّاسيه ، كأنه يريد فقط أن يخلص بسرعة من مسألةٍ محرجة قليلاً ، مع أن يسوع هو رب المغفرة ، ولا يردّ أبداً توبة من يطرق بابه ، وخرج عمي جورجي وأخوه باسيلي — محمولاً على كتفيْ أولاد الحلال ، يهتز جسمه بلا حَوْل — من الغرفة الطين فى حوش الكنيسة إلى اليت البَحْري فى آخر أطراف البلد ، جنْب الساقية القديمة ، الذى بناه ميساك بنهاوي ، ربنا يقدّس روحه بقىٰ .

فى آخر هذه الصيفية كانت خالتى روزة وخالتي سالومة — مع لنده ورحمة وخضرة — تزورهم فى هذا البيت البحري . وذهبت معهم .

سلّمتْ عليَّ الست حنينه معوّض بيد بيضاء متهاوية لا عصب فيها ، كالملبن فيها هبوة من عطر الصندل السوداني . كانت مضطجعة نصف راقدة

نصف جالسة على كنبة اسطنبولي فى غرفةٍ داخلية حارة ، حتى وهى مفتوحة الباب والنافذة .

جسمها الممتلىء يبضّ وينزّ من الجلابية الفلاّحي الحرير ، سوداء منقوشة بزهور حمراء كبيرة تربط بينها فروع خضراء متواشجة ، خيوط أغصان تهبّ بها ، وتخبو ، رياحُ الجسد الدفينة . تنفّسها الدفيء يصعد ، ويهبط ، بصدرها الذى ملأ سُفْرَة الفستان فتكوّر خلفها واستدار فى جِرم مكورٌ ومنبعج ومثير فى ضخامته . وكانت عيناها المكحولتان بخط كثيف شديد الزرقة كأنه أسود حالك ، تلمعان . بياض المقلتين المنتفختين قليلاً ناصع ومضيء .

سألت أبونا آندراوس ماذا ستصنع بالكتب المقدسة والصور الدينية الممزقة التى سقطت عليها أنقاض الجدار القِبلي للكنيسة ، والأيقونات التى دُمرّت ، فقال طبعاً سيحرقها ، ويطرح الرماد المتخلف عنها فى ماء النيل الجاري ، أو يدفنه فى الأرض المكرّسة فى بوبيللو ، حتى لاتدوسها الأقدام ، حتى لاتتدنس .

قال : دى حَاجَات مُجَدسّة يابنى ، من حجّها علينا الاحترام الكلّي . كِيف نسيبها تتهان ولاّ تتنجس ؟ دا حتى إهانتها يبجى شرّ ، شرّ مستطير مين يعرف عواجبه إيه علينا إحنا ، فرداً فرداً ، وعَ الْبلد كلها ؟ دى حرومات يا بني حرومات .

وسألته طيب ماذا سيصنع فى الحائط القبلي المهدوم ؟ متى سيصلحه ويعيد بناءه ؟ هل يتكلف الكثير ؟ فقال إن الحكاية ليست حكاية تكاليف ، وإنما حكاية الخطّ الهمايونى . سألته ماذا ؟ قال يابنى دى حكاية طويلة . إذا حدث أىّ خلل ــ قال ــ أو تهَدُّم فى كنيسة فلابد من أمر ملكى يصدر من السراىَ ويوقعه جلالة الملك وينشر فى الجريدة الرسمية ولا يعمل به إلا من تاريخ نشره ــ قال ــ هذا شيء من زمان بعيد ، من ١٨٥٦ يعنى من مائة سنة

تقريباً قل تسعين أقل من تسعين شويّه ، وفكرت أن أبونا أندراوس على الرغم من كل شيء كاهن جيد وأنه ذَاكَر دروسه ، قال إن اسمه الفَرَمان العالى الموشّح بالخط الهمايونى ، وأنه نَصٌ على أنه يلزم أن يُقدم طلب ببناء الكنائس ، أو ترميمها ، إلى الباب العالى . وأن السرايَ الملكية هي الآن الباب العالي حتى بعد الاحتلال البريطاني وإلغاء الخلافة العثمانية وإنتهاء سلطنة مصر وبعد الاستقلال و٢٦ فبراير وسعد زغلول والدستور والنحاس باشا ومكرم عبيد وإعلان الحرب ، قال إنه كتب بالفعل لمطران البحيرة وإن المطران سيجري اللازم ، لابدّ من المطران ، هو لا يستطيع شيئاً .

ولما تركنا الطرّانة بعد ثلاث سنين كان الحائط القبلي مازال مهدوماً .

بعد الثورة والنكسة والعبور والانفتاح والصحوة وعلى مشارف نهاية القرن العشرين مازال الهمايوني سارياً . أمازال الحائط القِبلي مهدوماً ؟

أبونا اندراوس لم يعدم حيلة . ترك قماش الخيامية مشدوداً ، وبنى حائطاً مرتجَلاً من الطين اللين ، ليلاً ، سدّ به الفجوة المفتوحة على نور النهار وعلى ضوء السماء ، بناه خلسة وفى خفية عن السلطات . يعنى السلطات فى المركز وفى مصر ، أما العمدة ، وشيخ البلد ، وكل الناس فكانوا يعرفون ، وسكتوا .

الشيخ حامد الدسوقي ، الله يمسّيه بالخير ما نتَ عارفُه ، عوده منصوب ونظرته نظرة الصقر ، قال للغفير عويس أبو المعاطي ، الله يخَيّبك ياشيخ ، وهو واقف قدامه زِنْهار : عجايب ياولاد ، يعنى كانت تايْهه ولَجيتْها . وفَزّ فيه لجّمه : ياواد اتلطْ كده ، وفُضّها سيرة ، هو داء فيكم ، ولا يعني داء ؟ حُطّ يا واد فى عينيك حَصْوة ملح واسكتْ سَكْتْ !

أما عمدتنا الطيب المطاوع البطين الذى يحب الراحة والدعة فكأنه لم يسمع ولم ير . ولم يتكلم .

أما أحجار كومه الهدم فقد تُركت فى مكانها . سوّى العيال ــ والكبار ــ بمجرد مشيهم على الأنقاض طريقاً ضيقاً فوقها يعبرون منه السكة السدّ . ورأيت حميدة البَرْصَا ، مرّة ، تمسك بالحِجار ، بجذاذات أصابعها المتآكلة ، تغطيها بطرف الطرحة وتتشبث بأطرافها ، وهى تتسلق رخام الهَدَد الذى أصبح ناعماً من وطء الأقدام ، ثم تنزلق ، كلها ، وهى نازلة . وخيل إلىّ أننى سمعت أنينَها مواءها شكاتَها المكتومة .

رامية الرمح من عينيك اللتين لاتغيمان فى السكّة الملتوية التى فيها حَجَرة واحدة وبقايا قطة ماتت من أيام طوال خصيبة ومحرومة من الإثمار أبداً مبحرة إلى الشمال على سطوح الماء الساجية هل أنتِ السمكة أم الصيّاد هل أنتِ الجنية المختبئة أم شيَّالة الحطب والأسيَّة هائمة وعارية تحت ثوبك الواحد الممزّق الذى أسقطه حرّ الخَمَاسين جسدكِ القائم من موته رشقته الرمال الدقيقة وكسته بالنَّقَر وفاكهة الوهاد وحجارة الروابى مثل ترنيمة قبطية قديمة بَجْعتي السوداء المقتولة بيدى حوريّة الحَكَايا والحواديت تحت مصباح الكوز مقطوع الحافّة فتيلته مغموسة فى الزيت السخن نيمْفيّة النيل معشوقة موسيقىْ السطوع هل يمنحك النور أبداً كفّارته هل يحمل عنك ثقل خطيئتك التى لا إثم فيها بل هى الطُهر والبُرء معاً ترقصين رقصة دراويش الذِكْر رقصة فراشات الغيط رقصة الأوزة المذبوحة تحت النخلة فى حوش ستي أماليا ترقصين دون صوت على إيقاعات الفيضان وهى تهدر وتدمدم .

رائحة الماء فى بِرْكة الغَسَق التى تملأ الجرن فيها عطن خفيف وخصوبة كامنة تترقرق على سطحها مويجات الحنين . الغربان تنعق فجأة آتية فى سرب متلاحق الضربات من ناحية شجر السنط والجمّيز على جسر النيل المترب الخالى الآن .

عندما نزلت من التاكسى البيجو بالنَّقَر كان الجسر الوطيء الآن أسود

الأسفلت ، تتقاطر عليه سيارات المرسيدس والفولفو ونصر ، ولوريّات البضاعة محمّلة بالطوب الأحمر وشوالات الأسمنت وكرتونات المُبيدات ؛ لم أجد للسراية القديمة أثراً ، جُعلت محلها بيوتٌ خرسانية ذات طوابق ثلاثة ؛ ولم يطاوعني قلبي أن أدخل الكنيسة ، بدت حيطانها رثة نشعت المياه وتركت عليها خطوطاً متعرجة قاتمة اللون ؛ لم أذهب إلى بوبيللو ؛ خالتي وديدة ، فلاحة عجوزاً كلّها ترحيب باللهجة الفلاحي وبالعبارات الريفية الجاهزة لكل مناسبة ، صنعت لى غداء من البيض المقلي والجبنه القريش ، جئت على سهوة دون إخطار ، ونظر إليَّ عمي فانوس بعينين يزرّهما ويضيّقهما ، باهتتين الآن من الشيخوخة ، ويقول لى هوّدا يصح ياأستاذ ؟ مش تجول كنا طلعنا نجابلك ع المحطة . جيت بالتاكسى ؟ ياخبر على كل حال أنا زعلان منك كان لازم تجول لكن أهي لُجْمة ، بصلة المحِب إيه ؟ خروف .... يا أهلاً وسهلاً ؛ ولم يأكل معى ، كانوا قد تغدوا من الصبح ، والله زمان والله زمان ياأستاذ سعدية تجوزت وعايشة مع ابن عمها ، ابن برسوم ، فاكْرُه ، فى كفر الدوّار ، يا أنسية تعالى سلّمي على ابن خالتك ، الولاد ، ما أنت عارف ، واحد فى الجيش واتنين فى بلاد برّه ، ربنّا يحرسهم ويرجعّهم بالسلامة .

لم أر دخان الأفران ولا الكوانين يصعد فى الهواء ينقّيه الشجر ، واشتكى لى عمي فانوس وقال إن الفلاحة مضروبة وأنها مهنة منقرضة ، يوميّة الفلّاح الشاطر الآن بالشيء الفلاني ، وسمعت وشيش التلفزيون والفيديو وظَلَّ معي حتى قبيل الفجر . أعمدة الكهرباء الطويلة الجديدة ظلت أيضاً مشتعلة المصابيح طوال الليل حتى الضحى العالي ثاني يوم تُلقي دوائر ضوئها فوق حلقات منعقدة قاعدة القرفصاء على الأرض من الشبان والرجّالة الراجعين من العراق أو ليبيا أو الكويت الصاحين من نوم العوافي يفركون عيونهم الوخمة رؤوسهم حليقة ليس فيها إلا خيالات أفلام العواطف المتسايلة الخام وأشباح ضربات الكاراتيه والكاوَبُوى وتقلصات الأجسام الأنثوية والرجولية

البلاستيكية المصنوعة تتخبّط وتنزلق فى اصطدامات البورنو المصقولة وانسياباتها الخالية من أى شَبَق بل من أية بذاءة حقيقية لفرط إتقانها ولمعانها ولم أر النسوان ينزلن النيل للمسقى أو الغسيل ؛ عندنا الآن مواسير المياه الجارية ؛ ولا يذبحن الزَفَر عندنا ؛ الآن فراخ الجمعية واللحم المجمَّد ، والمخبز الآلي يفتح كل يوم ساعتين ثلاثة . أما من فاته السَفَر وحطّ عليه الغُلْب فمُنْزَوٍ فى خربات البيوت القديمة المتداعية وفى قلبه دمٌ أسود .

لكن الغِربان مازالت تأتي إليّ بخبزِ أشواقٍ غير متخمّر قلت الغربان رسل نوح بلا عودة عيال المسيح الشموع قائمة متقدة تحت رفرقة أجنحتها السوداء تحت القبة الشاهقة تقاوم صغرها وهشاشة اشتعالها ونحول جسومها هادئة الطيران قلبها فتيلة تعرف أنها ذاهبة للاحتراق لا محالة ، ولاتهتمّ ، ليس لها فخر فى ذاتها وإن كانت كبرياؤها لا تنطفيء ترفع نورها باستماتة إلى سماءٍ معتمة على عتبات الحصن الذى يقطنه المحبوب السيد الإله غير مذكّر وغير مؤنّث فى شرقيّةِ قدسِ الأقداس حصني خاوٍ الآن قد انهدم سوره وغادرته الحبيبة — التى قالت إنها حبيبة — ذَوْب الشموع الآن مهدور .

أمعتمٌ ، لا نور لى فى ذاتى ؟

أنتِ احتياج للقلب

لا رضىً له ولا إرضاء

احتياج

لاينتهى .

(٦) الأيقونة

استطاع أبونا أندراوس أن يستخرج أيقونة قديمة من بين أنقاض حائط الكنيسة القِبْلي المهدوم ، قال .

لم تطاوعه يداه أن يرمي بها فى قلب النار التى أوقدها بنفسه ، فى حوش الكنيسة الترابى ، من حطب القطن النظيف المسوّى وفروع شجرة النبق العريضة التي تظلل الكنيسة وتمتد فوق سور السراية ، قطعها له صبيان القرية ، وتركوها تجفّ وتصلب ويتحول ورقها النضر إلى يُبسٍ له خشخشة وحفيف يحكّ العصب ، قال لى حرصت بنفسي أن أتأكد ، لا يكون فى هذه النار قُرْص جلة ولا ورقة جرنال ولا شيء دنس .

أُلقىٰ فى النار الصور الورق الملوّنة القديمة بإطاراتها المكسورة باهتة الوَقْع ، ونسخاً من الأناجيل لم تعد تُقرأ بعد أن تهشمت صفحاتها من سقوط الحجارة وعمود الرخام الثقيل وخشب الخزنة القديمة المطعّم بالعاج — خسارة ! — لم يبق منها الا شظايا وفتات ؛ لكنه استنقذ كتب الترانيم الموشومة بصورة البطريرك كيرلس الخامس الكبير أبي الإصلاح ، ونسخة ثمينة من السِنْكسار ، والأيقونة .

قال ، تعالَ للكنيسة غداً الساعة أربعة ، بعد القدّاس .

فاضل فيها أجزاء سليمة تقريباً ، الأجزاء الأخرىٰ راحت تعالَ شُفها ،

خذ ما يصلح لك منها اذا أحببت . ناقصة صحيح لكن فيها ما يفيد .

أخذت منها بضع ملازم مفكوكة من « تاريخ الأمة القبطية وكنيستها » تأليف السيدة أ .ل. بتشر الإنجليزية ، فى الصفحة الأولى قرأت أن ثمن جميع المجلدات أربعون قرشاً صاغاً طُبع على نفقة صاحب جريدة مصر سنة ١٩٠٠ أفرنكيه الموافقة سنة ١٦١٦ ؛ وبضع صفحات من « رتبة الاكليل الجليل حسب ترتيب الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المرقسية » ... على نفقة القمص فيلوثاؤس المقارى ... مطبعة القديس مكاريوس بمصر القديمة ؛ ونصف كتاب « اللؤلؤة البهية فى التراتيل الروحية والمدائح المتداولة فى كنائس الكرازة المرقسية » الطبعة الثامنة سنة ١٦٣٧ للشهداء (موافقة ٧٤١٣ للخليقة و١٩١٣ للتجسدّ ميلادية شرقية على حساب الأقباط والأحباش و١٩٢١ ميلادية غربية و١٣٣٩ للهجرية ؛ من أجل هذه الصفحة وحدها أسعدنى أن آخذ نصف الكتاب الباقي بعد أن مزقته انهيارات الأحجار .

تركتُ أبونا أندراوس يلمّ بحرص رماد موقدته ، فى طبق جديدٍ جديدٍ من الفخار خشن السطح مسامّه مازالت مفتوحة ونيّئة اللون .

سوف تجرفها المياه الجارية .

عمى جورجي عريف الكنيسة كان واقفاً على الباب ، لايدخل .

عندما عرف وقع خطوى قال لى مساء الخير ياسيدْنا لَفَنْدى . على مِهلك . اوعَ تندبّ زىّ عمك جورجي خلكَ دايماً على مهلك .

قلت فى سرّى : نعمة الاندفاع دون رويّة .

كان خيالي قد اشتعل بزياراته الخفية المعلَنة فى آن للست جِنينه .

عازف القيثار الأعمىْ الذى يتخذ مكانه على شمال الهيكل .

اللصّ الشمال .

خلع طربوشه عن شعر رأسه الجعّد الخشن القويّ ، طوّق عنقه بعقد من الريحان الطازه والعِتْر البلدي .

يضرب بالمثلث النحاس والصنوج قرقعة الموسيقى وترنان الجلجلة فى الحَرَم القدسيّ ترنيم القرد العليم تعشير البقرة حتحور تحت التبقة العظيمة الثور الفحل يثب مرة ويسقط عنها ثم مرّة أخرى التفّ الصبية والرجال الثور ممسوك بحبل ممدود مرخيّ ضُربت تحت قرنيه عصابةٌ من قماش ملّون خشن رُشِق فيه البشنين الذى شحبت أوراقه الناعمة وقامت زهرته الشرسة شبق اليدين وحدهما عينان ليس إلا ضربة الجسم الجسيم الحاد المندلع يحيط بعجينةٍ أنثوية مُرَحِّبة تفيض عن ملء القبضتين تغوص تحت الساقين المهاجمتين المرأة الهائلة الانحاء الهارْب المنتهَك تنهل تهاليله بأوتار مجده اللانهائية متوترة مقطوعة تأخذ إلى حضنها العاجزين والمعطوبين والمعلولين لا عن شفقةٍ فليس عندها شفقة بل ضراوة الشَبَق ولهفة الاستغواء والإرضاء بل الإشباع وشهيق الامتلاء وكأننى سمعت فى عتمة صنع الحب ـــ أشارك فيها ـــ أنين الحب وزحير الحب أُووه حاسِبّ إوعَ ياراجل والقرار السحيق يابِدْعك يامَرة ياجبايرك كِفاياك لَوَعْ ياسِتّي يتلمس لها مجرىٰ الحب فى جسم الهُولة المعطاء إذ اندلعت بها نار الشهوة والتحقيق ويسقطان فى الجبّ .

وكأنما قيل :

لا تدع قلبك يذبل

لا تتبع إلا وصايا شهوتك

ضع تيجان النيلوفر على رأسك

طوّق بأزهار البشنين عنقَ أختك

قبل أن تصل ـــ لا محالة ـــ إلى شاطىء الصمت .

فى العتمة التى سقطتْ على الصحن الخاوى الفسيح ، بعد الظهر الغائم المشوب دخلتُ .

كان صحن الكنيسة موحشاً .

لا تكاد تنيره الشموع القليلة وهى تشتعل بصمت تحت الأعمدة الرخامية العاجية اللون . خطر لى أنها أُخذت من معبد بوبيللو ربما من أحقاب بعيدة .

رائحة اشتعال الشمع ، حس الرهبة فى هذا الفراغ المفاجىء الذى يبدو لى بدائياً ، خشبياً ، يسانده رخام قديم .

وكأننى فى الصمت المحيق أسمع همهمة مكتومة لا أتبين مصدرها ، وكأنه بكاء مدفون يصدر عن تربة مسدودة ، نهنهة رجولية مهزومة لاأمل فيها ، تُنتزع من روح لاتجد عزاء ولا راحة ، أو هكذا ظننت .

ليه بس ياربّ ، ليه ؟ دانى عمري ماجُلت لأّ لبشارتك يارب المجد . عمري ماودّرْت اللومّيّة فى البحر الكبير ولا فى الرّياّح والترع والمساجِي . عمري ماحُشْت الحليب من فُمّ الرضيع اللبّانى سَوَا عِجْل بَجَر ولا ولد أو حتى بتّ من صُلب راجل وبطن مَرَة ، عمري ما وجّفت اللومّية الجارية عمري ماصدّيت حدّ عن نار الكانون عن وَجيد الفرن ليل ولا نهار على حدٍّ سوا ، عمري مازعّيت فى حدّ نصرانى ولاّ مسلم على حد سَوَا ، عمرى ماطفيت شمعة مِنْجادة ياربّ ، عمرى ماحشّيت زرعة مرعرعة بالغصب من أرض جار ولاّ خصيم على حدٍ سَوَا ، عمرى ماعُنت الشر فى جَلْبي ياربّ طَبْ ليه يجى ؟ ليه ؟

ليه تجِشّ جَلْبى ؟ ليه ؟

رأيت الأيقونة التى قال أبونا آندراوس إنه أخرجها من بين أحجار

الهدد ، قال إن زجاجها قد سقط عنها ، كله ، مرة واحدة ، كأن يداً قوية باترة نزعته بحدوده الواضحة القاطعة ، قال :

رأيت وجه المسيح ، قاتماً ، عيناه مغمضتان ، تجاعيدُ عَبْر العصور غائرةٌ فى صفحةِ الأيقونة الخشبية المعتمة ، تتخايل على سطحها الزيتىّ المسودّ أشعةُ الشموع الصغيرة مهتزة نيرانها تحتها ، التفّ إكليل الشوك غامض المعالم برأسه المعذّب بأثقال لا قِبَل بها .

كان يسوع يبكي بكاء جافاً قاحلاً لارِىَّ له . دون دموع ، دون صوت تقريباً .

رفع رأسه إلى أعلىٰ . وجهه فى الأيقونة المهشّمة إلى وجهه الآخر بين يديه راكعاً على بلاط الكنيسة العاري ، لفّ رأسه بكوفية ترابية ، داكنة شائكة الملمس ، جلابيته ساقطة على الكتفين العظميّتين ، هيكله تحت القماش العتيق مشدود ، حتى فى ركعته منصوبٌ كأنه مازال مصلوباً ليس فيه انخزال ولا تهدُّل ، حتى فى هذا النشيج الذى يصعد ببطء ، دون تفجُّر ، عن طبقةٍ خفية تحت الأرض ، من مضض الشقوة وإيجاعها ، يسوع فى عذابه الأرضيّ ، ليس فى مجده ، دموعه تسقط من الأيقونة ، قطرة قطرة ، على بلاط الكنيسة .

رأيت يده الممدودة الموشومة بالصليب الأخضر المورق ، يده المثقوبة بآثار المسامير الكبار ، تمتد بحنوٌ ومهابة يضعها على الرأس المرفوع اليه .

كان الوجه المظلم مقدّداً جافاً متقبّضاً بعذاباتٍ لن يعرفها أحد قط .

فلاّح الطرانة القراري ، القبطيّ الذى نساه العالم ، مضروباً ، من هضّ الأيام بلا هودة . ليست الموازاة بل الانصهار . الرأس ملفوف باللِبْدة وفوقها الكوفيّة القاتمة ، تنزل منه أخاديد الكدح وهموم القلب شقوقاً سوداء . الأيقونة المستنقذة من بين الأنقاض .

فى داخلي أَكُتُّ وأفورُ من الغضب

ليس من الولاء . ليس من التقديس .

أتستمر هذه الأيقونة مدفونة ، نابضة بالألم ، مشققة ، خفيضة ، ولكنها لا تُقْهر ؟ أم تنحسر ، تغيض ، لا يبقى إلا نسيج الخشب الأسود ، منكوراً : هل يتقدس من تمتد إليه اليد المسحوقة العظام ، تقطر بالدم ، قطراتٍ مدورة ، كبيرة ، منفصلة ، لها رنّة مكتوبة على البلاط العاري ، قطرة وراء قطرة ؟

هل يمتلىء حياة ، وبركة ، أم يضربه القحط والصمّم ؟

هل نسمع معه الكلمة المحْيِية ؟ ماهى ؟ أم يرين علينا العمى أمام بشارته المرسومة بالتِمْبرا من يدٍ تعرف كيف تعزق التربة بالفأس أكثر مما تعرف كيف تمزج صفَار البيض بنشوةِ القلب السكران ؟

ليس الوجه فقط .

بل الجسم الضاوي العنيد كله ، متكرراً بلا انتهاء على هذه الأرض التى تتكرر فيها البشارات ، واحدة إثر الأخرى ، مُحيية ، بلا نهاية ، وبلا تحقُّق .

تراتيل الهارْب وصدْح الناى وانشاد الصنوج وترداد الذِكْر وخمر الدراويش وسقسقة المنحوتات الهفهافة وخشخشة علب السافو والرابسو والصوابين وصخب إعلانات التليفزيون جارحة وبذيئة ومتذبذبة الكهربات وكراسي التخت حول هزات متلاحقة بطن راقصة تحفّها مواسير مصابيح النايلون وأنابيب الفوسفور والفلورسنت الرفيعة حمراء وزرقاء منعكسة على مياه جامدة فى برك الغطْس المعقّمة بالكلور حجارة العصور الحديثة أيضاً تسقط فى لغة غير متماسكة ومفضوحة الشفرات ضربات الخشب وصرخات فتيات مصعوقات بالثمل وقرع الطبل وترجيع الكروان بلا توقف فى دفق

الضوء البدريّ شقّه ساطع وشقّه دامس كل الثيولوجيات كل الأيديولوجيات صيحات ببغاء ثاقبة وغضارة زروع خشنة صبّارات هائلة ممدودة الأذرع أخطبوطات شائلة متلهفة للاحتواء والإماتة فى حضن عشق لاعورة فيه ثقب السرّة فى قلب بطن ناعمة عجينيّة اللون والملمس سَمَكة سابحة عين ثاقبة ذهبية مسفوحة بلا غمض سلالم حديدية صدئة نضبت كهرباؤها تنزل منها الى سرّة محطة الرمل تحت الأرض وروائح الطماطم والبامية والفلفل الأخضر الوارم خِصيّ مصنوعة عطِنة قليلاً نفْث اللحم الأشلاء المثلوجة تدينك بلا طعن من خطاطيف مثلثة الأسنان تغوص فى لحم البحر تنبثق على جانبيها أزهار حمراء صغيرة ناضرة ورقيقة هشة عليها ندىٰ الدم وقطرات الدمع المدورة على قُبّتىْ الثديين الصغيرتين وقُبّة البطن الكبيرة وُجُوه الأيقونات وجوه مساجين طره وأبو زعبل وأقباء المباحث وسراديب كاركالاّ والجُبُ المعتم تحت أرضية فاس دمشق طليطلة القلعة صنعاء القدس يفوحُ بنتن الجسم المعلق اليدين والرجلين بكلاّبات الحديد بصنان البول وحرافة البعْر البشريّ المتصلب المتراكم يسقط عليه الخُرْء الجديد لاتنفكّ الأصفاد إلا لفتحةِ القبر لا نُصُب ولا اسم ولا شواهد فاتحة الكتاب من قلوبٍ رحيمة وأبانا الذى فىَ السموات مُتَمْتَمَةٌ جِرْصاً ألّا يسمعها الكردينالات الحُمر وألف ألف وجه مضروب من غور الأزمان إلى لانهايات الأفق متراحمة كلها بنفس المقاس سوداء فيها خطوط رمادية وعيون مفتوحة مسفوكة بلا نطق ولا شهادة الطرق الأسفلت الواسعة نظيفة السواد تمرق عليها المرسيدس والفولفو ونصر فيات تخفّ بها هفّة الهواء المسحوب سريع الانطفاء ألف ألف وجه متطابق سقطت عنها كل الأمجاد وكل أكاليل الشوك غبيط السباخ الكَفُوري معكوم عكْماً مُحْكَماً على جانبىْ الحمار الأملح ضارب اللون إلى شُهْبَةٍ مرقّطةٍ آتياً من عند أبوللو العريق مستوفِزاً على الذل والكدّ والعنت بالشبَق الذى لايكلّ نحو كلّ أتانٍ قارّةٍ فى الغيط أو مارّة على الطريق .

طِراد الأخيلة ، الجرى وراء الأوهام .

تنبه جدي ساويرس فجأة أن حُقّ الدخان قد فرغ ، فأرسلنى آتيه بحُقٍ جديدٍ من عمي شنودة البقال ، كما كان يفعل لما كنا نسكن بيت شارع ١٢ فى غيط العنب ، بالليل أيضاً . كنا بعد أذان العشا ، وكان أبونا آندراوس وعمي جورجي وعمي سلوانس كلهم روّحوا . قال لى الحَقّ لحُسَنْ يقفل الدكانة ، وكنت أعرف ظلمة أزقّة الطرّانة بالليل ، كُحْل ، وكان لقلبي وجيف واضطراب قلت ياواد اجمد عيب ولكن الليل حالك غطِيس ، القمر غائب وحتى السماء بدت مسدودة وثقوب النجوم الدقيقة غير فعّالة . حيطان البيوت واطئة سوداء مهددّة ، سدّ كلها ، ليس فيها كوّة نور .

أتحسس الأرض بقدمىّ فى الحارة الضيقة المتلوية على نفسها أحاذر أن أندبّ فى روث ليّن أو أخبط كومة تراب صلبة ، أمد يدىّ أمامى ، وإلى جانبىّ ، أستمد من الحيطان المصمتة سنداً . يجابهني فجأة جدار يقفل علىّ السكّة ، فأدور جنبه ، متلمساً . الطريق لا يخلص ، لا ينتهي .

أحسست بجانبي أنفاساً حارة .

عرفتُها .

حضوراً مجسماً ، لهفة سُخنة ، وكأننى رأيتها فى الظلمة المطبقة .

حميدة البُرْصا .

هِيَ . هِيَ . ليس عندي أدنىٰ شك .

لكنها ماتت ، اختفت . انقضتْ .

ألم تُمتْ ؟

رآها المعلم شنودة نفسه ، وحلَفَ . رآها طافية على مياه النيل ،

منتفخة ، طَرْحتها السوداء نصف غارقة فى الماء ، ومشىٰ بها التيار خارج البلد .

بجانبي .

أنينها الخفيض المليء ، خاضعاً ومتوجعاً ، متطلباً ، مثيراً .

ساطعة الوجه ، مشرقة ، بريئة من كل عوار .

تعرج قليلاً مازالت ، لكن بشرتها ملساء ، مصقولة .

وشفتاها على شفتيّ ، طريّتين ، ناعمتين ، رضابهما حلو قليلاً . أصابعها المكتنزة نوعاً ما ممتلئة باللحم الغضّ تمرّ على وجهي ، برقّةٍ وحنوّ ، وهى تقبّلني مازالت ، جسدى كله قشعريرة واحدة ، وأنا أحتضنها إلى صدري المشعوف .

قالت لي ــ هل قالت ؟ ــ بصوتٍ خافتٍ جداً واضح مع ذلك وبه نغمة قليلة من السيطرة ، وبلّوريّ الجَرَس فى خفوته الشديد ، كأنه همس حميم : ياضناىَ . ياخويا .

قال لى عمي شنودة : ياخبر ! خير ياسيدنا لَفْنيدي ؟ فيه حاجة ؟ دانت وشكّ كُركُم وعَرَجك مرَجّك ، تعالَ ، تعالَ يابْني . كلّ خير ؟ طيب . مافيش حاجة ؟ بالكلّية ؟ طيب . حُجّ الدخان لجدك ساويرس ؟ حاضر ياسيدي . عَ النوتة ؟ عَ العين والراس . أمرك وأمر آبا ساويرس ياسيدى . سلّم لي عليه جَوي وجُلْ له يخشخش جيبه ، جاىٌّ لُه فى الطاولة مانيش عاتُجه .

قلت لنفسي مَنْ قال إنه وحده فى وحشة الظلمة بينما هو يحمل عبء المحبة لا يحس له وزنا ، فهو الآن فى النور .

قلت لنفسى يا ليت .

قلت لأبونا اندراوس لماذا لم تسمح لامرأته أن تدخل الكنيسة تصلّي معه ؟ كان حزينا جداً ، ووحيداً جداً .

لم يكن له اسم .

قال لأنها كانت ولدت بنته تلك التى ماتت منهما ، بعد أن ولدتْها بسبعة أيام .

قلت الحدأة التى تنقضُّ كلَّ مرة على البرج القديم . تفترس ، مرة بعد مرة ، بنتَ المركب المضيئة التى تخوض الليل .

قال لأنها لم تتطهّر من دم نِفاسها . والكتاب يقول : « إلى المقْدِس لا تجيءُ حتى تُكمل أيام تطهيرها . إنْ ولدتْ أنثىٰ فلتكن نجسة أسبوعين وستة وستين يوماً ، تقيم فى دم التطهير . لا تدخل إلا بعدها ، ثمانين يوماً وليلة » . بعدها فقط أُلقى على رأسها صلاة التحليل « نسأل ونطلب منك يا محب البشر لكى تتطلع إلى أَمَتك حتى يتجدد روح قدسك فى أحشائها . حالّلها هذه التى جاءت تشتهي أن تدخل إلى موضع قدسك » حتى أمنا مريم العذراء وهى التى حبلت من غير دنس الخطيئة ، وولدت المسيح من غير لوثة من بابٍ لم يُفَضّ ، حتى هى البتول ، لم تدخل الهيكل إلا بعد أربعين يوماً ، حتى تستحق شركة الأسرار المقدسة .

سألتُ : لماذا أربعين يوماً فقط ؟ لأنه يسوع ؟

قال بغضب : لا .. لأن يسوع كان ذكَراً . الأنثىٰ بعد ثمانين يوماً ، والذكر أربعين فقط . عقاب لجنس المرأة ، ألم تأكل قبل آدم من التفاحة ؟ أغوته بالخطيئة الأصلية . ألم يقل لها الرب « بالوجع تلدين إلى رَجُلك تنقاد أشواقك وهو يُسود عليك » .

مَنْ جمع الريح فى حفنتيه ؟ مَن صرَّ المياه فى ثوب ؟

الكلُ يُنسىٰ ويمضي . لماذا طِراد الأحلام والجرْى خلف الأخيلة ؟ لماذا ، طيب ، أوقدُ شمعاً سوف يخبو ؟ وأوقده بقلبي ؟ . أو كما قال .

لماذا ــ طيب ــ أحاول أن أغنيّ فى وجه الريح ، لا صوت لي ، ولماذا كتبتُ على الرمل فى الجزيرة ، جنْبَ زرْعة البطيخ الذى لم يستو بعد ؟ قلت الحسن غش ، قلت الجمال باطل ، ولم أصدّق ولا لحظة واحدة . أما دموع المظلومين فتجري مع الأنهار ، دون أدنىٰ أهمية . أما كأس الفرح فتتطاير زَبَداً أشقر فى الشمس . والأبراج والصروح ترابٌ إلى تراب وقلوب الأنبياء مدفونة تحت حماقات العالم . لماذا خراب النفس ولماذا الموت ؟ قالوا مدينة متهدمة بلا أسوار الرجل الذى ليس له سلطان على روحه . روحي هي السلطان . جسدي هو السلطان . وحبي وشهوتي ولهفتي للمستحيل خطوطٌ علىٰ رمل الشطّ ، الحب المستحيل العدل المستحيل . لكني لا أنى ــ لا أَني ــ أرسم الخطّ تلو الخطّ . لا أني أتوق للشفاهِ التى كسِلْكةٍ من القرمز والعيون التى كالحمام . الجمال وليمتى وأنا منهوم . جراح المحبة أمينة ، صحيح . ولكن لا شفاء لها . لا ترمّ . وارحمتا للذين يتقلبون على الفراش ، هل الرحمة ثروةُ الحكيم أم عبث وخور ؟ أتسمع الأنين ؟ ماذا يهمّ ؟ أما سمعتِ من فيض الروح ، من البوح العقيم ؟

أصوات النحيب تضرب أسوار الزمن ، وتحجب الشمس عن الخَلق ، أشعار الرثاء فوق سماط الحزن الذى تُقدم عليه ألف زبديّة من العدس الأسود والعدس المصفّىٰ والمُلوحات والمخلّلات والألبان الطازجة وعسل النحل ، والخبز والفطير المصنوع من الحلبة والشعير ارمدٌ لونه فى البكاء والإنشادٰ وطلب الغفران من الإثم العظيم بذبح الوز والبط والفراخ والتوسعة على الغلابة والعيال والدخول فى خيمة الخمر والحنين إلى رؤية الباب وسكْب السكّر المذوَّب ورشّ السكّر المذرور ورشق النُقل وغرْس الجوز واللوز وفرْش الفول السوداني المقشّر

اللذيذ على البليلة العاشوراء الذئب يرفع رأسه إلى القمر البدر ويعوي إلى إياح نحوتي رسول الآلهة وحامل اللوح المحفوظ يوم المعرفة يوم التقى آدم وحواء ورأيا أنهما عاريان يوم خرج نوح من فلكه الكبير بعد رسالة الغربان يوم استشهد إمام العاشقين .

عندما خرجت من المعتقلات بعد ذلك فيما يبدو لى بأحقاب طويلة عرفت أن جدي ساويرس قد مات فى الطرّانة ودفنوه فى بوبيللو ، لم أكن قد رأيته منذ سنوات ، كدت أنسى وجهه العريق الذى لوّحته وصوّحته شموسُ أيامٍ لا عداد لها وهو يرقب بصبرٍ سنّارة الصيد على الملاّحة فى اسكندرية وعلى الريّاح البحيرى فى الطرانة .

أيام مجده كانت قد ولّت من زمن وعاد للطرانة مكسوراً كما ينكسر الرجال .

فهل كسرته أيضاً زيجة خالتى سارة — لم أحضرها ولم أكد أعرف بها — من عاملٍ فى فابريكة الغزل فى كرموز ، اسمه جرجس رزق ؛ سمعت أنه كان صاحب كِيف ولما اعترض خالتي سارة على قعدات الحشيش فى غرفتهم الواحدة فى غبريال ، ضربها مرةً بالقلّة ، وفتح رأسها ، وراحت المستشفى الميري وعملت له المحضر والذى منه ، وغضبت منه إلى بيت أخيها الصغير خالى سوريال وراح يصالحها ويستغفرها وبكى بالدموع وعادت إليه وضربها مرة أخرى وأخرى ، كلما طيّرت من رأسه الشويتين بالنكد الذى أصبحت تجيده ، وكان لاشك يحبها جداً ، بطريقته ، لذلك كان يضربها ويصيبها كل مرة إصابة جسيمة وتدخّلت الكنيسة وأخذت عليه تعهداً على يد القسيس ولكنه ظل يضربها ويغاضبها ويصالحها حتى مات مبكراً بعد أن خلّف منها ثلاث بنات وولداً واحداً .

وبعد موت جرجس رزق سافرت خالتي سارة إلى أسيوط بعد أن

كانت عرفت سِكّة الإرساليات البروتستنيّة والكنائس الإنجيلية وكأنما نفضت يدها من الأرثوذكس جميعاً ، استدعاها وأغواها البروتستانت وأدخلوا أولادها مدارسهم وأحسنوا إليها فعرفت خدمة الله وحفظت الكتاب ورطانة الدعوة والعزاء فى الرب وإذا بها واعظة مبشرة تجوب البلد من بورسعيد إلى أسوان تسافر وليس فى يدها إلا الكتاب ، وحقيبة يد فيها فستان أسود آخر وغيار واحد . لم تعد تلبس إلا الأسود ولا زينة لها إلا عقد جلدي فى آخره صليب خشبى كبير ليس زينةٍ بقدر ماهو استعلان ، وكان المسيح يكلمها ويدعوها للسفر إلى دمياط ، أو قوص ، أو منوف وهي لا تعرف أحداً فيها فتسافر على الفور ، بالقطار أو الأتوبيس أو التاكسي بالنَفَر وتسأل عن المسيحيين وتدخل بيوتهم وتعظهم وتكلمهم بالكتاب وتبيت فى بيت أحدهم ولا تتورع عن أن تؤنب ربّ البيت أو أحدَ أهله إذا دخّن سيجارة أو فتح التليفزيون . تحيا حياة الرسل وتعمل أعمالهم .

ثم بدأ المسيح يدعوها أن تذهب إلى بيروت أو بغداد أو عمان فلا تتردد لحظة تُدبِّر ثمن الطائرة وتذهب ليس معها إلا حقيبة يدها تلك والكتاب . قلت لها مرّة ، فيما بعد : لكنْ خالتي سارة هل يأتيكِ المسيح فى الحلم ويقول لك ؟ قالت لا ، وأنا صاحية ، يكلمني كما تكلمني أنت الآن ، أعرف صوته . المجد لله ، الشيطان يجرّبنى أيضاً ، ويكلمني بصوت يسوع ، لكنى أعرفه على الفور ، وأخذله دون تفكير .

وفى غمار لجج حياتها التى خاضتها بسلامٍ روحيّ على اصطخاب أمواجها ماتت بناتها الثلاث بعد أن كبرن ، وتزوجتْ اثنتان منهن وتركا أحفادها عند البروتستانت ، وهاجر ابنها الأصغر ، روماني ، واستقر به الرحيل فى البرازيل ، وكان صغير الجسم وكله حيوية وعينان مليئتان بالخيال ، وكتب لى بطاقتين بريديتين ، ثلاثة ، وزارني منذ قريب وحكى لى حكايات عن مزارع وهاسيِنْدات شاسعة يقطعها على صهوات خيول مطهمة وعن

فانديتّات دموية بينه وبين عائلات إقطاعيّة عريقة يُضرب فيها بالرصاص ، وتُحضرّ السموم وتُسكَب فى الكؤوس وتُسخَّر الجنّ وتُستحضر الأرواح الشريرة ؛ وهو يهزم كل المؤامرات ؛ يقولها بلهجة من يروي وقائع يومية عابرة بالصوت نفسه الذى يقول به إنه اشترى أناناس من السوبر ماركت فى ريو دى جانيرو بما يساوي خمسة قروش أو أقل وإنه ركب تاكسي إلى ضيعة الرجل الذى كانت بنته تحبه — هو روماني — وتتحدى أهلها وأهل خطيبها من أجله ، وتحبط كل الشياطين التي تحيق به فى نومه ، وكان مقنِعاً جداً وبسيطاً جداً وهو يحكي لى ذلك كله لأنه كان مقتنعاً به ويعرف كثيراً من حِيَل السحر الأسود . لكن ذلك كله كان من عهد قريب ، وكان جدي ساويرس الذى لم يره روماني قط قد مات قبل أن يموت جرجس رزق زوج ابنته التى كان يؤثرها ، فهل انكسر قلبه لأنه رفض زواجها من فانوس الرجل الوحيد الذى كان قد أحبها ؟ لكنه ظل — حتى لحظة موته — قائم العود ورافع العينين لم يخفضهما لأحد قط — قال لى عمي فانوس . وفى غمرة اضطراباتي وأنا أبحث عن لقمة العيش وأقف مسحوراً أمام أشواق الحب وإطباق اليأس ، لم أكد أُعير خبر موته اهتماما .

الآن أعود فأرى رأىَ العين أيقونةَ يوسف النجار ، أم هو القديس مرقس أم بطرك قديم ، استنقذها أبونا أندراوس ، من قديم ، أم حملها ملاكان طائران يُحلّقان فى أصقاع جسمي ، من بين الحجارة المنهارة المتراكمة ، وقد اسودّت معالم الوجه العجوز الذى مازالت روحي تستضيءُ بقتامته فى قلب إطارها البيضاوى قديم الخشب ضرب فيه السوس ونخرب فيه القِدَم ، مشقّق تعرّجت فيه خطوط دقيقة غائرة على الأرض ، بجانب الفجوة المفتوحة فى الحائط القِبلْى ، يسقط عليها نور جارح من نهار مقيم ليس له مساء شقوق الجسم العارى المطحون بعذاباته غير المهمّة .

قالت لى أمي إنها بعد موته ، وأنا فى معتقل الطور ، راحت للطرانة ،

يوم النصّ ، فى منتصف الصوم الكبير يعني . قالت لى ، لتطلع التُّرَب .

عندما وصلوا إلى بوبيللو ، وبدأت البنت الفلاحة التى تشتغل فى بيت ستى أماليا توزع الرحمة والنور ، قراقيش وبلح إبريمي ، على عيال الفلاحين وعميان الطرانة ، نصارى ومسلمين ، تسللت بينهم بتّ برّصا ، باستكانةٍ وصمت ، فأعطتها البتّ الفلاحة نصيباً من البتّاو السخن من خبيز الفَجرْ وكبشة تمر اكثر من الآخرين قالت لى أمى هل تذكر حميدة البَرْصا ؟

كان جدي ساويرس واقفاً معه عصاه المعقوفة اليد المصنوعة من خشب الجوز اللامع ، على رأس تُربتنا المبنية من الطوب الأحمر المطليّ بالأبيض ، ولها قبة صغيرة ، قالت أمي ، وكان هادىء الوجه ينظر إليهم بنوع من الحنوّ الجاد . هبّت إليه ستي أماليا ، ملهوفة ، لعلها كانت تريد أن تضمّه إليها للمرة الأخيرة ، ربما ، قالت أمي إنهم كلهم سمعوه يقول بصوت واضح ، له رنين : مكانك يامّ يونان . ماتهوّبيش يَبِيّ . لِسّه الأوان يا أماليا لسّه الأوان .

ثم ذهب .

الأيقونة الواحدة المتكررة . إنجيل مَرْئِيّ ، آلامه لا تنتهي كِسَفٌ يرين عليها الظلام وينجاب ثم يطبق من جديد . نورها مطلقّ أرفضه .

شقوق الخشب العاري ، شقوق الجسم المسحوق غائر بالتعاسة سئمتُ السياحةَ فى الأرض وفى السماء . إلام أوبتي ؟

أسياحةٌ متصبلة فى أصقاع الحلم والحنين ، فى أغوار الداخل ووهاده ونجاده الصلدة ؟

أم تثوخ أقدامي فى غمار قلبي غير الواضحة ؟

الأيقونة فى الصمت تهتز تتخايل لي فوق شمعة واحدة . وجهه العجوز

فيه بقعة سوداء من خَرْقٍ قديم ، ومخدّد بالتجاعيد . أبيضّ الآن ونوّر بالمحبة . ستي اليصابات أمّ يوحنا ستي أماليا أم يونان طالما وجدتُ فى صدرها الذابل حناناً خاصاً لم أجده فى صدر امرأة أخرىٰ .

هل ينسىٰ هذا الطفل الصبي الكهل ممزق الجسم والروح ، حتى الآن ، رغيفَ البتّاو الصغير والمدوّر الخارج لتوّه من الفرن ، فوح رائحته النفاذة الشهية من دقيق الذرة والحِلبة ، مرشوش بحبة البَرَكة الدقيقة السوداء ، وهي تفرش له وجه الرغيف المضرّج الطريّ بطبقةٍ من الزبد طازجة وكاملة تسيح وتمتزج بالخبز الذى يلمع الآن ومايزال يستطعم مذاقه ونكهته حتى الآن . هل ينسى حضنها الضيق الذى لم يجد قط أكثر منه دفئاً ولا نعومة ، دموعه التى لم يملك أن يحبسها ، وهي فقط التى تربت بيدها الحازمة الحانية على رأسه ، برفق ، بصمت . هل ينسىٰ دعواتها يجعلْ لك فى كل خطوة سلامة ويحبب فيك خَلْقَهَ يابن بنتي ، يسوع يبارْكك ، العدرا تحرسك فى كل سكّة . وهل ينسىٰ كيف كانت تحكم بصرامةِ المحبة وسطوتها بيتَ غيط العنب الذى يعجّ بأخواله الثلاثة يونان وناثان وسوريال وزوجتَى خاله إستر ومارية ، وخالتيه وديدة وسارة ، قبل زواجهما ، وأمه التى استقلت بجانبٍ من البيت مع أبيه ذى الكِبْر ولينِ القلب معاً ، وأخواته البنات ، تسيّر هذا البيت بحكمة ونفاذ ، الكلمة كلمتها والشورة شورتها . وهل ينسيٰ كيف انتهت حياتها فى شقة خالته حنونه فى العصافرة . شلّت الآن ساقُها ويدُها وييبس جسمُها الصغير ، تزحف بيدٍ ورِجْلٍ على البلاط لاتقدر أن تُنهِض نفسها . وعمّ مقار العبد التنتون ، زوج خالتي حنونة ، هو الذى ينظف جسمها الضاوى وعظامها الهشّة من فضلاتها التي لاتملك الآن أن تتحكم فيها . كيف نظرتْ إليه ، وهى مكوّمة على الأرض، مازال فى أنقاض جسمها مع ذلك شموخ العزّ القديم ، وقد جاء يراها — كما عرف فيما بعد — لآخر مرة . حدقت إليه بعينيها الغائرتين الغائمتين . لم تعرفه فى الأوّل . ظلت تحدّ النظر إليه كما يفعل العجائز ، بتركيز الرغبة فى

المعرفة ، دون وصول . ثم أشرق وجهها الجافّ المغضّن مرة واحدة ، وهمست إليه : يسوع يباركك فى كل سكّة يابن بنتى . هذا كل شيء . فقط . ثم انصرفت عنه كأنها نسيته ، وزحفت ببطء تسحب جسمها إلى ركن فى الغرفة الضيقة هو مأواها ، فى الأخير ، فوق هذه الأرض . أين النخلة السامقة فى حوش بيت الطرانة الذى يموج بالأنس والحياة .

كان الولد برسوم ، أخُ عمّي فانوس ، قد قال لى إنه سمع من أبيه كيف أن روزة وسالومة ، مقدّدتين الآن ومعقدتين كعيدان حطب القطن كانا أيام شبابهما فى بهاء البدر وجمال الغزلان قلت مستحيل قال والله هذا ماقالوا وأنه كانت هناك حكاية كبيرة من زمان عن آبا وهبه ، أخ جدى ساويرس . قيل إن آبا وهبه هام بهما معا حُباً ، لم يقدر على أن يقرّ على أيهما ، ولا حتى أن يعرف أيهما روزة وأيهما سالومة ، وقيل إنه فى الآخر كان يكلّم نفسه ثم أخذ يضرب نفسه ثم يحدف الناس والبهائم بالحجارة ، والطوب ، ويهتف أنا مين ؟ طَبّ أنا مين ياوْلاد ؟ قلت أين راح الجَمَال ، والبهاء ، وهل يغيض ماء الحياة وينشف العود ، هكذا . قال إن البنت التى كانت تخبز لهم أيامها ، وتملأ لهم الزِلَع من النيل ، وتسرح بالبهائم على الجسر ، وتكسح الزريبة ، كانت ، كما قالوا ، مَرّة طويلة وسِبْرِحة ، حلوة حلاوة ياواد ! قال إنهم عندما يحكون عنها ذَكَرَ خَضْرة التى كانت تشتغل عند خالتي روزه وخالتي سالومة ، الخالق الناطق كما يحكون ، قال إنها اختفت مرّةً واحدة ، مثل خَضْرة ، وإن آبا وهبة بعدها ظل يخبط رأسه فى الأرض ، راكعا ، يهذي ويقول : أنا الحَجّ عليَّ أنا .. أنا اللى عملتها ما فيه حدّ غِيري أنا ، قال إن الكلام انتثر ثم انكتم عن أن اثنين من رِجّالة العيلة خرجا بالليل من بيت آبا وهبه وجدي ساويرس — كانا عزبين عندئذ — وراحا ناحية بربيللو . قال إن هناك تربة مسدودة بالطوب الأحمر والأسمنت الإنجليزي ماركة بورتلاند ، لم تُفتح قط ، ولا يعرف أحد مَنْ فيها ، قال دول أهلنا ياواد ، زمانْ ، كانوا بيعملوا عمايل ، بلاوي مِتْلَتِلَة ، ولا

كثينّ حدّ شامم رِيحَة خالص .

كنت أودِّع الطرانة فى سرّى .

ظُهْر يومٍ كان جوُّه خريفيا ، سماؤه فيها سحاب أبيض خفيف غائم ومشعّ .

النيل ، قبل الدِمِيرة ، فى مائة خُضرةٌ غنية مليئة ، طحالب داكنة تطفو شواشيها معلقة فى المياه السارية ببطء ، زيتيّة مهتزّة ، تلعب بها دوّامات صغيرة وتنشعب بها فروع دقيقة متموجة .

تحت أحجار السراية الرمادية الضخمة التى ترتفع من حافة النيل فجأة ، تضربها مياهه الراكدة وتترك فى منتصف حيطانها خطوطاً قاتمة لزجة الشكل ، تسقط عليها أغصان ملتفّة كثيفة من أشجار الجميز والتوت والنبق والمنجه ، كان خروف أبيض ، أعجف ، صغير ، صوفه مبلول مهْتدَل تغسله لمّة من أولاد الفلاحين خلعوا قمصانهم المغبرة القصيرة ولم يبقوا إلا على لباسات عَبَك متهدّلة ومبلّلة ، ملتصقة بأفخاذهم السوداء الناحلة وأعضائهم الصغيرة المترجرجة ، صدورهم العارية ملساء ، مدوّرة القفص ، مخسوفة العظام ، لكن وجوههم متوفزة بالحيوية ، والشقاوة ، تهضّمتْ من الجوع المستمر غير المدرك قسماتُهم السمراء الوسيمة ، يصيحون ببعضهم بعضاً ويشتمون الأمهات والآباء بالفصيح وبمرح ومَهْيَصة لا شائبة فيها .

على السور الجِفَة قطن وبطّانيات صوف ناصلة وأغطية مرقّعة وفيها بُقَع واضحة المصدر ، وعلى سقوف البيوت الطينية المتضامّة ، تحت جناح السراية ، أكوام ورُصص من الجِلّة والحَطَب . حيطانها المبنية من الطوب النيّء مدهونة بطلاء أخضر فسدقيّ باهت ومقشّر يبدو تحته الطين اللبِن الخشن كأنه عضويّ ، حيّ .

جانبٌ من قفص خشبيّ مكسور على الأرض .

عشّة الفراخ المعمولة من ألواح خشب رفيعة وأعواد الجريد ، تقف فوقها بطةٌ بيضاء مربوطة .

النور الشفاف شائع السطوع ظلمةٌ مطبقة .

(٧) فرح العرباوي

لم يكن بيني وبين عمّي فرح قرابة .

ولكن كل الناس كانت تقول له : عمّي فرح .

كان أعرابياً يجوب ذلك الجانب الذى ألممنا به من الصحراء الغربية بالقرب من الطريق الصحراوي وعلى جانبيه ، وكان يحفظ فاتحة الكتاب ، ويصلّي الفرض بفرضه .

طويل القامة ، قائم العود . ناحل جداً ولكنه صلب لا مكسر له .

ليس عليه إلا قميص باهت البياض ينزل إلى ماتحت الركبتين بقليل ، فإذا جلس على الرمل ، بانت ركبتاه سوداوين ، مدورتين ، بالصابونتين كبيرتين جداً عظامهما بارزة ومتحركة ، وبانت لمحة من بضاعته المتدلية ، ضخمة سوداء ومازالت فيها فتوة فيما يبدو ، وعلى كتفيه لفاعة من القماش العَبَك الباهت نفسه ، يلفّها على رأسه ويعتمرها عمامة ، يفردها وينصبها على عصاه ذات العُقَد فإذا هى خيمته وظلّته يضع رأسه فقط تحتها تحميه من وقدة الظهر وينام رجلاه فى الشمس . موطنه هذا الحرّ هذا التوحّد التام .

كيف أمكن لهذا الأعرابيّ العجوز الذى لم أكن أعرف عنه شيئاً أن يبقى فى روحي حياً أكثر من نصف قرن من الزمان ؟

أحببته ، أنا الصبيّ فى الثالثة عشرة ، ربما ، ولذلك عرفته .

هذا الحب أبقاه .

كان يأتي من بعيد ، على الحرافِ عن الطريق الصحراوي الأسفلت ، طريق المعاهدة كنا نسميه . يخرج من وراء الرمل ، بخطوته المتوثبة شيئا ما ، واسعة الإيقاع ، كأنه يأتى من لا مكان ، قدماه الحافيتان المفلطحتان تدبّان على الرمل الملتهب كأنه جمل . باطن القدمين غليظ ناشف يمكن أن يدخله المسمار الصغير بسهولة ، من غير أن يحس به حتىٰ .

كان يُطبّب للعمال الذين يشتغلون معنا ، بأعشابه الصحراوية وأبازيره التى يصرّها بحرص فى مخلاته الغويطة . يشفى ، ثانى يوم ، على طول ، الحروق من أثر الزفت الساخن السايح ، يوقف نقحها على الفور ؛ جروح المسامير الغائرة فى القدمين تلتئم ؛ وعنده مراهم ومعاجين عملها وحده لعلاج البواسير ، أو البهاق — للمغص أو الامساك أو الاسهال عنده الأعشاب تنقع وتغلىٰ وتبيّت فى ماء الشعير ؛ وأذكر مما كان عنده الكزبرة الناشفة وورق الأتل والخولجان وبزور البصل وعنب ديبه ولسان عصفر والعلّيق والشيح والحنظل والعنصل والنعناع البرى والمرّ الأحمر والمستكة والسواك ونوّار الخيل وأوراق أو لباب الصبّار بأنواعها وشتى أشكالها .

لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يعمل الحجاب ولايعقد الرّصَد .

كان يسلم علىّ وابتسامة عريضة تفتح وجهه الغَمِق وتنوّره . يده كانت فى يدى خشبة حيّةٌ مغطاة بلحاءٍ مشقق . ومع ذلك فهى مطواعٌ وحساسة قادرة على نقل رسالة حدب وحب غريب .

يجلس على ركبتيه ، دون أن يقع على الرمل ، ثابتا دون أن يتعب أو يهتز ، أمام الخيمة الكبيرة التى أنام فيها أنا وخالى ناثان ، ونضع فيها المؤونة

وكل شيء ــ مقر قيادة الترحيلة يعنى ــ على مقربة من عرض الطريق الصحراوى ، جلسة مستريحة مطمئنة ، وإن كانت بينه وبين الأرض مسافة شبر أو نحوه ، يلف آخر ما عنده من دخان فى ورقة رقيقة شفافة تقريبا مشوبة بالبياض الخفيف ، يصنع لفافة رقيقة جداً يلصق طرفها بطرف لسانه ، ويطلب منى عود كبريت ، ويدهشنى ــ كعادته ــ بأن يحكه فى كعب قدمه ، وهو جالس القرفصاء مستند الآن على قدم واحدة ، لا يلمس الأرض ، ودون أن يفقد توازنه الحرج لحظة واحدة ــ فيما يبدو لى ــ يشعل رأس الكبريت بشطة واحدة فى الجلد الناشف الصلب ، ويبتسم عن ناجذيه الكبيرين الأصفرين ابتسامة طفليّة نوعاً ما يعرف أنه يبهرنى بلعبة غير مألوفة .

يفك عقدة المخلاة الكبيرة المعلقة على كتفه ، ببطء ، ويستخرج من إحدى الصرر الكثيرة حفنات من التمر الناشف ، متواضَع عليها ، فأعطيه حُقّ الدخان أبو غزاله بورقه الأخضر الداكن الطريّ ، وفوقه مشط ورق البافرة ، من الرف الخشبي الذى يحمل بضاعة المؤونة ، فى باطن الخيمة .

فى أول صيف ١٩٣٩ قال لى خالي لماذا لا تأتى معى فى الترحيلة ؟ تتفسح وتتفرج وتكسب لك قرشين بالمرّة ؟ وكتب لأبي فى إسكندرية فقال له : بها وأكرم على شرط أن تأخذ بالك منه ، الخال والد . قالت ستى أماليا : إوعَ عليه ياناثان دا بن الدلّوعة دا أمانة فى عينيك يابْني ، فقال لها خالى ، يامّة دا راجل .

أما لنده فقد سهرت قليلاً عندنا ــ يعنى فى بيت جدي ساويرس ــ لغاية أذان العشاء ، وعندما روّحتْ ليلتها سلمت عليها باليد ، ولم تكن تلك عادتي بل أكتفي بـ « مساء الخير » أو « سعيدة » فترد بصوت متقطر بالحلاوة والمشاكسة المستكنّة ، بلهجتها الفلّاحي : « يِسّعِد مِساك ياخوىَ » ليلتها ضغطتُ على يدها قليلاً ، أمسكتها أكثر من المعتاد ربما ثانية واحدة ،

ونظرت إليّ على غير عادتها نظرة ثقيلة صامتة ، متواطئة ، فيها اعتراف .

أما رحمة فلم تكن قد انتظرت ، ولم أنسَ لها ذلك قط ، لَعلني لم أنسه حتى الآنَ . وأسأل نفسي ألم يكن فى هذا اعتراف أعمق ؟

خالتي وديدة وخالتى سارة وستي أماليا كنْ صاحيات ، من النجمة ، عندما استيقظتُ من نومٍ قلِق متقطع ، ودسّتْ خالتي وديدة فى جيبي حبّات كراملة ملفوفة فى ورق « زبدة » ، وهى تقبلّني ، فتذكرت أيام شارع ١٢ فى غيط العنب ، وقبلتنى خالتي سارة على فمى قبلة صريحة ، وأخذتنى ستي أماليا ، فى حضنها الجاف الضيّق الذى يفوح برائحة دخان الفرن وحليب الجاموسة ، ما أحنّ هذا الحضن وماأطيب ضمّته ، وقالت بخفوت كأنها تصلي فى كل خطوة سلامة ببركة يسوع وخيل إليّ أننى سمعتها تهمس « ياحبيبى » لم أصدق ما سمعت لأنها لم تنادني قط من قبلها ولا بعدها بلفظ الحب ــ لا هى ولا أمي ــ كأن المناداة به عيب أو ضعف لايغتفر ، عندنا نحن القبَط الذين على قدّ حالنا . لم أسمعه من امرأة بعد ذلك قط إلا ونحن على رأس سلالم عريضة قليلة فى مدينتنا الأولىٰ التى تقع فى لا مكان ، ولا زمن فيها ، وسحاب الصبح الشفاف موسيقيّ ومنمنم ، عندما قالت لي : « أنا تحت أمرك ياحبيبي » . قالتها فى لغتي ، لغتها . بالعربى ، لغة جسمى وجسمها .

أما فى الظهر فقد كانت خالتي روزه وخالتي سالومة قد جاءتا للبيت ، وقالتا لي بصوت واحد تقريباً : رايح وادى النطرون بكره مع خالك . جاتْ لك على الطِبْطَاب يابن بتّ أماليا ، مع السلامة ، وربتتا على كتفي بأيدٍ خشبية .

قلت كان الانتقال بضع عشر كيلو متراً مازال سفراً ، واغتراباً .

قبل طلوع قرن الشمس كنت على سطح لوري النقل ، واقفاً مع نحو

عشرين رجلاً من أهل الطرانة والخماسة والعزبة ، ومنهم عوض عوضين وأخوه حجازى عوضين زوج خضره التى ودعتها — فى سرّى — وداعاً « رومانسيا » على غرار شعر إبراهيم ناجي ، هذه الكعبة كنا طائفيها .. ثم رجعت على كل حال إلى كعبتي ، بعد انتهاء الترحيلة ، فى أواخر الصيف .

أما خالي ناثان فقد كان مع السوّاق فى الكابينة ، وعلى المقعد وأرض الكابينة بضاعة المؤونة الأسبوعية للعمال .

اللوري يشق الصحراء ، رمالاً قاحلة ناعمة حيناً تعلو وتهبط وصخريةً حيناً ، لا علامة ولا أثر ، بين الخطاطبة شرقاً ، والطرانة ، وبين الرست هاوس أو شماله قليلاً ، من ناحية الغرب ، والمدّق الصحراوى تتوه معالمه أحياناً ، تنزلق العجلات على رمل مذرور سفته الريح عليه ، حتى تجد طريقها مرة أخرى على المدقّ المدكوك من مرّ العجلات عليه .

ليس من دليل فى نور الفجر الشائع المنسكب على مهل ، وعندما أنظر خلفي يبهرني ، ويُعشي عينىّ ، قرن الشمس الذى ينبثق ببطء من سطح الرمل ، شظية ذهبية محمّرة ، دائرية تتسع دائرتها بالتدريج ، حتى يفلت من حافة الأفق قرص ملتهب كامل الاستدارة .

فى فجر يوم الغِطاس كانت أمي توقظنا حتى نرىٰ رأس يوحنا المعمدان مقطوعاً بسيف هيرودوت ، يدور فى طبق الشمس المشتعل ، بين يدىْ سالومي .

أحسست أننى وسط أهلى وناسي .

رائحة الرؤوس الحليقة القوية ، وشعر الجسم الحليق ، تختلط ببقايا نفح الصابون النابلسي من حُموم أمس ، نفثات ما بقي من رائحة النسوان ومانصبّ فيهن بالليل تختلط برائحة الجِلْبة وطحين الذرة فى البتّاو الذى

سرعان مايجف ويصبح عصياً على الكسر ما لم يُبلّ بغموس المشّ المترجرج الآن — أشمه واستطعم نكهته — فى القدور السوداء مدوّرة البطون ، مغطاة بجواليص الطين اليابسة الملفوفة بخِرَق جلاليب النسوان القديمة الملصّمة ، مدفوسة بعناية ومكر فى شوالات الزوّادة التى وقف الجدعان يحيطونها بُركَبهم فى اللوري يحمونها من هزّاته ، وهبدات الطريق .

نزلنا ، أُرجلنا ملخلخة ، بعد أن سرنا باللوري فى الطريق المسفلت حديثاً بضع كيلو مترات بعد الرست هاوس ، ووصلنا للشقة التى كان على الترحيلة أن توسّعها وتمهّدها وتدعمها بالزلط والرمل ثم تفرشها بالزفت والأسفلت .

نصبنا الخيمة الكبيرة على عمق نحو خمسين متراً من حافة الطريق ، كان منار الرست هاوس يبدو لى بعيداً ولكن أنيس .

وضُعِتْ لى طاولة خشب من طوايل الفرانين ، فرشت عليها بطانية مزدوجة ، مطوية طيتين ، ولخالي ناثان مثلها تماماً . وكان فيه ترابيزة مرنجلة معمولة من صندوق شاى مقلوب ، ورف واحد خشب — نصف طاولة فرن منصوب على رصّتين طوب أحمر — وعليه تموين الترحيلة الأسبوعى : علب الدخان أبو غزالة ، وسجاير الكوتاريللى المعدن فى علبها البيضاء المقواة التى تفتح لأعلى ، كصناديق الورق المبطّنة ، وسجاير الفيل الفَرْط ، بالواحدة ، فى صفيحة مدورة ، وأكياس الشاى الصغيرة الملصوقة بالكاد ، تسرسب من ناحية اللصق حبيبات الشاى مذرورة مفرفطة سوداء لها رائحة ، فى تلك الأيام لم يكن فيها ورق ملوخية مصبوغ ولا فول سوداني مصحون ومحروق . والسكر المَكَنة جنبه فى علب ورق مستطيلة ، مرصوصة فى نصف صفيحة مقطوعة وموضوعة بدورها فى قعر برميل حديدى مضلّع مملوء بالماء ، احتياطاً ودرءاً من النمل الذى كنت أجد طليعته المغامِرة ، كل صباح ، غارقة فى الماء .

فقط . هذا كل شيء .

في داخل الخيمة برميل حديديّ ، ملآن بالماء النظيف الرقراق ، للشرب . لي ولخالي ناثان فقط . الكوز مربوط بدوبارة متينة في ثقب بجدار البرميل تحت حافته العلوية ، والبرميل مغطّى بخشبة مربعة ، ماؤه بارد سلسال .

أما البراميل الأخرى ، خارج الخيمة ، فللعمال ، أربعة ، خمسة براميل .

ولكن هناك — دائما — برميل ثالث . من داخل الخيمة ، بجانب بابها أي فتحتها القماشية التي تُرفع بحبال صغيرة بالنهار ثم ترخى وتثبت بخوابير قوية في الرمل أثناء الليل ، وهو مخصص لماء الغسيل ، والحموم .

كانت شغلتي أن أكتب — على ورق مسطر وتحته كربونة أحرص عليها كل الحرص لم يكن هناك غيرها — يومية كل عامل على حدة ، أضرّبها ، الأجرة في عدد أيام الشغل ، وأجمع المجموع آخر الجمعة ثم أكتب استجرارة الشاي والسكر والدخان على ورقة أخرى ، من غير كربونة ، ماذا أخذ على الحساب ، بكم ، وفي الآخر أطرح ، وأسلّم لكل واحد القِرشين المستحقين له . واقفين في طابور غير منتظم يدخل الخيمة واحد فقط ، ولا يدخل التالي إلا بعد خروجه من الفتحة نصف المدلاة ، نصف المرفوعة ، وخالي ناثان يراجع بعدي ، ويسلمني القروش والملاليم الحمراء اللامعة ، كانت اليومية ثلاثة تعريفه ، والريّس خمسة تعريفه بزيّها ، فإذا خسفنا منها استجرارة الشاي والسكر والدخان يطلع للواحد آخر الجمعة حتة أم قرشين وثلاثة أربعة ملاليم ، أو يمكن ثلاثة أربعة صاغ للبخيل الجِلْدة الذي يشرب دخانه أو شايه بالسُحت ، ويقبَل على نفسه الجُرسة والمهْزَءة .

كلها نعمة من عند ربنا ، يبوس الواحد يده عليها ، وشّ وضهر .

أنا بقى كنت أطلع آخر الجمعة بحتة بخمسة ، بحالها ، حوّشت ، وفى آخر الصيف اشتريت جمهورية أفلاطون ترجمة الأستاذ حنا خباز بخمسة وعشرين قرشاً ، والحضارة المصرية لغوستاف لوبون ترجمة الأستاذ صادق رستم بثمانية قروش ، وكان أديت لأمي ، ولستي أماليا قرشين كِده ، كل واحدة اشترت لى حاجات ، شبشب ، شرابات ، علبة بريانتين ، كده يعني .

فى ليالي الحرّ كنا ننام برّه الخيمة ، على طاولة الفرانين ، واتغطّى بملاية — طبعا ستي أماليا كانت تغيرّ الملايات كل أسبوع — والتفّ أحياناً بالبطانية على وش الفجر ، من لسعة برد خفيف . ومازلت حتى الآن لا أعرف ألّذ ولا أحلى من هذه النومة فى جفاف الصحراء ، وصمتها الكامل ، ونقاء الدنيا ، ووَنَس العمال النائمين على مبعدة قليلاً ملفلفين فى خِرَقهم وأحرمتهم وممددين على الرمل مباشرة ، أو على طوايل الخشب .

وكنت استغرب قليلاً أن ينام اثنان منهم ، أحياناً ، فى جرام واحد ملفوف بإحكام عليهما معاً . وفى نصف الليل ، أراهما ، كأننى فى منام ، يهتزان ، يتقلبان ، ويصدر عن كتلة الجسم الواحدة المتلاصقة أنين مكتوم ، وتأوهات وَجَعٍ صُلْب .

وكنت استحم كل أسبوع ، مرتين ، عندما يأتي اللوري بالتموين ، وبراميل الماء الجديدة ، ينزلها العمال بخرص والمياه تنتثر وتطسّهم وتنسكب منهم قليلا .

أُسقِط باب الخيمة القماش على الأرض وأثبته بالخوابير من الداخل . ويشيع ضوء خافت محمرّ قليلاً من وهج الشمس على القماش الخارجى ونوعٌ من الحَرّ الحميم المشعّ .

ومع انصباب الماء الجديد المنعش من الكوز ، يزيح رغوات الصابون

المدغدغة ، كنت استمتع بجسمي ، ووحدتي ، في حلم شبقيّ متكرر ، امرأة أعرفها معرفة الندّ والصنو والمثيل ، أتلمس حناياها وخفاياها ، غريبة مع ذلك غربة نهائية ، وأجنبية عني ، نعومتها واستدارتها وغنجها ، تشعلني وتشطّ بي لكنى لا أعرفها ، ومهما عرفت منها فيما بعد فلعلنى مازلت لاأعرفها . امرأة وهمي وحبي ، امرأتي ، امرأة غربتي ، لصيقة بي ، ومنفصلة تماماً .

كنت أحيانا أقضي ساعات في تجوال حُرّ في الصحراء ، أقفل الخيمة بعد أن يأخذ كل واحد مايريده في يومه ، وأهيم وحدي في الرمل ، ومع ذلك لا أجعل قمم أعمدة التلغراف تغيب عن عينيّ قط ، هذه علامات طريقي إلى الأمان ، لا أني أتحقق من أنها هناك ، كل لحظة فيما يخيل إليّ ، فكم قرأت عن مواجع وفواجع التوهان في الصحراء ، وارتعبت منها ، ولكنى لا يمكن أن أقاوم سحر الوحشة والصمت في عمق الرمال ، وقد غابت الخيمة والعمال ، ووابور الزلط ورائحة الزفت المصهور وأكوام الأسفلت السوداء ملساء الجسم والزلط ونثارة الحجر الأبيض المدكوك . وقد غرقتُ في خيالاتي وتهويماتي ، ورجعت إلى صحبة عمر بن أبي ربيعة والمجنون ، وجميل بثينة ، وامرىء القيس ، عشيقاتهم ومحبوباتهم ونسوتهم الأعرابيات مدورات البطن محزومات بعصابات حمراء عريضة على استدارة الأجسام البضّة ، مخزومات الأنف بحَلَق ذهبي مشرشر الحواف ، موشومات الذقن بخطين متوازيين ، واللمَى الأزرق الداكن على الشفة السفلى المليئة الواعدة بلذةٍ لحيمة ومُصفّاة معاً .

وجدت تلة عالية قليلاً ، واسعة ، يغطيها حصى متعدد الألوان والأشكال والأحجام ، ناعم الجسوم : مخروطية ونقية ومموجة محببة ومصقولة مدورة ومستطيلة كثيفة ومشطوفة مخيلة خطوط بيضاء رقيقة كالشعيرات تلتف حول استدارة رمادية تجنح إلى السواد وحدود قاطعة مرهفة البنّي اللامع يعطي حافتها المنعّمة خفوتاً يناقض لسعة حدتها الأبيض الساطع ترقطه نقاط رقيقة

كأنها تومض تحت الحصاة الشفافة والخطوط الغائرة الصغيرة تشقق الوجوه المنحوتة المتحللة وقلت كان البحر هنا منذ ألف ألف عام مازال البحر هنا وسيظل ألف ألف عام جمعت منه ما استطعت من كنوز ضاعت مع الزمن . ألم تضيع كل الكنوز ؟ بما فيها كنز الحب ؟ ألم تضيع ؟ الضحكات السريعة الحلوة الخافتة ، متتابعة ، من فم جميل وأنيق ، النظرات الموجزة العذبة ، نافذة النصل ، متتابعة ، من عينين ساجيتين تماماً ، حرية لا حدود لها داخل الروح ، طيور زرقاء الجناحين ترفرف باتساع ، هل ضاعت ؟

لكل نورٍ ظلُّه . طبعاً . أفي هذا كلام ؟

نقية ، كانت ، نقية هي ، مظلمة ومتلوية أيضاً ، شَغوفٌ حيناً ونَفورٌ عَزوفٌ أحياناً ، كالطفل في التمامها وفي مكرها المكشوف ، ومجرِّبة محنَّكة الجسد بل جرأتها ومعرفتها مخيفة ، جَسورٌ مشاكسة ، وديعة متقبلة خاضعة خَنوعٌ ، متقلبة وحولها شكوكي ، وفي يدها روحي ، ومصيري . أهذا سرّها ؟ هل ضاعت ؟ أين مضت ؟

عثرت على موْغِلٍ مني في تلّة الحصىٰ على رأس غزال ، هيكل بريءَ تماماً من كل لحم ، من لوثات الحياة ، عظْم أبيض صافٍ وصلب ، عيناه محجران مجوفان مفتوحان على ظلام الجمجمة الداخليّ ، ليس فيه إلا الفكّ العلوى بأسنانه مازالت سليمة ، سقط الفكّ السفلي وانفصل ولم أجده قط ، رأس فقط ، أين ذهب البدن ، وهيكله ؟ ظللت أحتفظ بالرأس ، أُحرّزه وأكنزه من بين أرصدة نفسي الشحيحة ، حتى اعتقلتُ في ١٩٤٨ . ولما خرجت لم اكتشف فقدانه إلا بعد سنين طويلة . هل كان فعلاً رأس غزال ؟ كان عمي فرح قَلَّبه بين يديه السوداوين طويلتيّ الأصابع ، وقال غزال ياولدى . غزال صغير ، لباني ، يا وِلْداه !

وعثرت أيضا على مبعدة من الطريق قليلاً على قطعة حريرية ممزقة مخرّمة

بداتيللا رقيقة صوّحت الصحراء وقسوة العراء لونها البنفسجي فأضحى باهتاً جداً شاحب الحمرة جداً ، متموج الذبول .

كانت مجرد مزقة نصفها مدفون فى الرمل ، فى وهدة طرية واسعة ، مهد مسوّى طارت له أوهامي الشبقية واستطارت بجسمي شطحتها . دعيني أحلم أيتها الغريبة العابرة ساعةً فى البرية ، لاأعرفك ، ولن أعرفك قط ، أيتها الوهم الماثل ، بعينيك القاسيتين المحبتين . دعيني إذن أغمض عينيّ على ربوتيْ صدرك الدافئتين وأشتطّ ، جسدا متقلاً بالأطياف ، سكران بالرؤى . لاتنظرى إليّ ، لو سمحتِ ، لأنني أرىٰ فى عينيك هاتيْن أغواراً يضطرم فيها ظلامُ نفسي . أتون من نار سوداء . بريق صارم ومتألق وله طعنة ، لا أقوىٰ ، بل لاأريد أن أرىٰ ما فى عينيك . ومض انعكاس الشمس واصطخاب دوّامات الهاوية . فلا تنظري إليّ ، من فضلِك ، لاتعرفيني فأنا أعرفك .

سيدتي ، وَهْمِي . نزيف دمعي قد أفرغ قلبي من كل دمه ، خلاص . رائحتك الداخلية عبر أهواء الرمل وعصف شهواتى مثل رائحة العسل الأبيض وشهده الشمعيّ قد غاض منه اليكْتار المُحيي . زهرة الجنّة بين فخذيك بضّة سريعة إلى البلل بالندى ناعمة الشعيرات مثل أزهار دقن الباشا ، صفراء ، وكأنها ندف القطن المنتفشة ولكن عبقها له حَمْوَة ولذعة شديدة الحلاوة خبل الحومان والاضطراب جيئة وذهوبا فى نطاق العينين المحيقتين إطارهما قابض وجسمك جوهرة نصفها مدفون فى الرمل نهداك صلبان متلاقيان متضامّان يضغطان عليّ حوريّة نيليّة مراوِغة أم سمكة ذهبية زلجة تنزلق من بين أصابعى المشعوفة باللهفة وتثب إلى مياه الصحراء تشقّ لجّتها الصاعدة الهابطة فى نور ما بعد المغيب القاحل ، امرأة وَهْمي هاربة منى أبداً وهى فى حضني ، لا ، لا تهمسي إليّ ، في صوتك إبهام ولَبسٌ لن ينفتح لي .

حادة وحارة وناعمة ولها شوك الصبار المحتشد ترفرف فيّ طائر ذبيح

يتهدج بحنانٍ بعيد وبما لا أفهم ولا أعرف ، فحيح تحت سفح حضور رازح الوطأة فوْح الاحتراق .

اصمتي إذن ، لو سمحتِ ، لا أريد أن أسمعك ولا أن أعرف — حتى — مَنْ أنت ، ولماذا كل هذا الجمال ، وكل هذا الابتعاد . قسوة النأي تعويذةٌ ساطيه تجذب روح المسحور الفَرِح بالتهلكة طواعية كُرة الكون شعرك الوَجيُّ صلابة العينين إلهية صوتك لا نظير لقيمته تقولين بكل شجوك وشهوتك وشوقك وشقوتك كيف يمكن أن أقول إنك لست وحدك فلماذا أنا وحدى لماذا كلما ازداد لهجي بلكِ ازداد خَرَسي وكلما شدوتُ وتفجرتُ أطبق عليّ العيّ لماذا أنا سجين لا لا لا أريد أن أقول ذلك لماذا أقول إذن فقط أنا اشتقت حاولت أن أرىٰ أسمع أعرف أُفيق من وطء القلق سئمت التجوال والشرود فى غيْر وادٍ متعب أنا على وهدة الرمل والحصىٰ .

طيب ياأخى ، ثم ماذا ؟

حفيف حليكِ الفضية على جيدك الأسمر الحريري لا يبارحنى ولا يغرينى بتقبيلها قسوة الماس الصلب فى أصابعك لاتجتذب يدي أتلمسها وقد مسّنى الإله وبى لَمَمٌ من تباريح الشوق دعيني لا تحرميني حتىٰ الحلم هل ضُرِب عليّ الحرمان حتىٰ من الحلم ؟ نهداك النابضان تحتي جناحا وثنٍ غضٌّ ومنقضٍ ضقتُ بذلك كله لا يستقيم لى شيء منه حطام سحب بخور منهَك حجارة صبوةٍ منقوضة ومخرَّبة . « كيف تستقر الروح وقد دعاها » لا آنس إلى شيء والسأم يحيل كل شيء كل شيء صمتاً يبعث بدوره على سأم جديد والدورة لا بدء لها ولا نهاية طبعاً وماذا بعد لا شيء ويمضى الزمن لماذا لا ينقضي هو أيضاً لماذا لماذا فما من يد تمسح هذه الشقوة لا يا شيخ طَبْ طُظّ ياسيدى فى هذه الشقوة . طُظّ فيَّ .

أنا هويته وانتهيت .

مادمت أنا بهجره ارتضيت .

ولا فى المنام .

كان خالي ناثان يلاحظ العمال ويشرف على شؤونهم ، يوجههم ، يخثهم ، ينبح حسه مرة ، يكلمهم ويعلمهم بالمداوة مرة ، وكان الشغل يتقدم .

وكان المهندس الانجليزيّ يقيم فى الرست هاوس ، ويأتي كل يوم على غير ميعاد ، فى عربة جيب ، من ناحية الرمل ، وينزل يعاين ويراجع ويفتش ، أحياناً يغضب ويثور وأحياناً يسكت ويقول : أفارِم .. أفارِم عليك ناثان بالعربي المكسور ، ويقول اسم خالي بالنطق الانجليزي يخطف مَدّ الألف الثانية خطفاً .

انتقى عمي فرح العرباوي حجراً أبيض مسطحاً مسوّىٰ ، ونظّفه بيده وقال لي أن احتفظ له بهذا الحجر فى خيمتي وحياة الرسول ؛ وأقام الكانون من حجر صلب ترك فى وسطه فجوة أشعل فيها — بعود كبريت حكّه فى كعب قدمه — قطعاً من خشب شجيرات الصحراء الجافة ، وورق « الأهرام » القديمة ، وظل يرعىٰ النار يغذيها بالعشب الصحراوى الناشف الذى كان قد جمع منه حرشات طقطقت فى النار وفاحت منها رائحة عطرية حزيفة وجارحة ودخان أبيض ، حتى سخن وجه الحجر ، قال لي أن آتيه — بحياة الرسول — بكوز من الماء فى البرميل الذى فى الظل ، وراء الخيمة ، فقمت وتركته لحظة ، ولما عدت أخذ حفنتين من دقيق كان يربط عليه فى صرّة طرية فى جوف مخلاته ، وعرفت من رائحته ولونه أنه طحين الذرة والحلبة والشعير معاً ، ومزج الدقيق بقليل من الماء ، ولم يعجن بل دحاه برفق ومَعْلَمة على الحجر الساخن وربت عليه بأصابع حاذقة ، بسطه ورققه ، حتى استوى رغيفاً مدوراً له عبق نفاذ ، احمر وجهه السفلى وسمعت له دقدقة ، والرغيف يهبّ من على

سطح الحجر ، بخار خفيف يطير تحته وحوله ، طَسَّ عمى فرح العرباوي حبات من التمر الجاف بحفنة ماء من قبضتيه وعزم عليّ وألحّ فأكلت كسرة رقيقة وتمرتيْن وكان مذاق اللقمة غريباً متحدياً للّسان والأسنان تحَدّىَ اللذة والمفاجأة . وتفتح وجه عمي فرح بابتسامته درداء الفم التى تُفيض عليه سماحة وطيبة تكاد تكون طفلية .

وفى آخر النهار عندما راجعت رصيد المؤونة اكتشفت فقدان علبة دخان أبو غزالة ، ورجعت أعد العلب وأحصي الفلوس وأعيد العدّ والاحصاء ، وعرفت أين ذهبت العلبة ، سددت حسابها من أجرتى آخر الجمعة ، وعندما جاء عمي فرح ، بعد أيام طوال ، قال لى أنا اللى لافيت حُجّ الدخان يا ولدى ، ما أنا عارف . أنا عامل حسابي إنك أنت حتحفظ العهد . ماهو الجِزْش شاحِح اليومين دول ، إيش حُجّ دخّان ؟

لم تكن السرقة هى التى أحفظتني وكسرت قلبي بل مارأيت فيه خيانة . وقلت لنفسي لو طلبه منى مارددته . لماذا لم يثق فيّ ؟ لماذا ــ هو ــ لم يحفظ العهد ؟ ليست السرقة ، بل الخديعة . طهرانيةٌ مني ، وسذاجةٌ ، ياترى ؟

طبعاً .

قلت لماذا يكذبون عليّ ؟ لماذا يخدعوننى ؟ قلت لماذا ، طيب ، أنخدع ؟ لماذا أُصدقهم أنا ؟ وأنسىٰ ؟ شيء ما قد انكسر .

قلت : لا ياشيخ ؟ كل ده من جراير علبة دخان ؟

بالطبع لأ .

أكلّهم إذن ، كلّهم ؟

لماذا يكذبون ، يخدعوننى ، ويحكون لى ــ بعد ذلك ــ حكايات ؟

حرصاً على مشاعرى ، وخشيةً عليّ ؟ أم شفقة ورثاء ؟ أم مجرد استهانة واستخفاف ؟

ولماذا أنخدع ؟

ما من حاجة بي لهذا أو ذاك . ولا لأحد . ما أمضّ احتياجي لهذا الذى أسميه الصدق . هذا الذى أسميه الحب . وما من فاصل ، فى وهمي ، بينهما .

بشمتْ بالكذب المدمر نفسي ، تُخمّت بنتن الخراب والتخريب .

الفتك بالآلاف ، عشرات الآلاف من الأطفال جوعاً ومن نهك الأمراض فى وسط الأنقاض المنقضّة من ضربات صواريخ الشبح المتلصص كذب الطغيان وفصاحة الخيبة المتذرعة بأقنعة مفضوحة من ركام إلهام بالي وسيطيّ الكذب العييّ المتستّر خلف شعارات منتّهكة أكاذيب المهيب الركن حفظه الله أكاذيب الأمير الشيخ رعاه الله الأكاذيب مشعِلة الحرائق ملوِّثة البحار والأنهار ضاربة بالسواد على الأرض والسماء أكاذيب الحكاّم والكُتّاب والصحف والإذاعات والتليفزيونات أكاذيب الأعداء والأصدقاء على السواء أكاذيب الحب أكاذيب اللامبالاة أكاذيب السرير أكاذيب المنصّات فى كل مكان أصحاب السمو والفخامة والمعالى والجلالة والسعادة الصفوة والحرافيش الملوك والصعاليك على السواء أكاذيب الأغاني أكاذيب الكتب أكاذيب زيف الفن أكاذيب الشعر أكذب الشعر أكذبه أقبحه أسخفه انتهاك متصل لكل أوطاننا فى الروح وعلى الأرض وماوراءها . أريد الانطلاق ، الانطلاق ، الجرى بوسعْ الرجليْن فى صحراء الصدق المحترقة المتطهرة من كل لوثة . بعيداً عن كل الأكاذيب التحليق بوسع الجناحين فى براح السماء الفسيح صائحا بكل قوة الفرح بالحرية آ آ آ آ آ آ آه ـــ آ آه ه ! وليس أمامي إلا مواجهة الهُولات والتحديق فى عينيها دون أن أستحيل حجراً ، ما جئت لأقول سلاماً بل لعنة الأحشاء ، حَطِّم الهياكل دَحْر وحوش القهر .

ظللت أنتظر ظهور عمي فرح العرباوي . الشيء الوحيد ــ تقريباً ــ الذى حزّ فى قلبي عندما رحلنا عن الموقع أننى لم أر ــ ولن أرى ــ فرح العرباوي أبداً بعد ذلك . مازلت أراه وأسمع لهجته البدوية الخشنة التى لم أكد أفهم كل كلماتها بصوته الأجش الصادر من غور صدره الأعجف القوىّ .

رجعنا الطرانة فى أول سبتمبر . وصلنا بالليل ، وكانت وعوعة الكلاب تردّ على عواء الذئب على حفافي البلد .

وكنت مرعوباً دقّ قلبي قد توقف .

لَجَب المخلوقات الصاحية الشرسة كلها يتزاحم فى صدرى يتضارب ويتلاقح ترداد مواء العِرْسة وجهها وجه قرد ضحكته تتردد مع صلصلة الحِليّ التى سرقها من خزانة خالتي روزة وخالتي سالومة فيها ترنان جلجلة أجراس صغيرة صرير انسياب السَلَمَنْدر الذى له صدر قِمْري يَصّاعد سجعُه ورأس ديك له زقاء بينما يجر ذيلة الطويل بحراشيفه لها خشخشة يابسة هامُ الشجر الليليّ المتكاثف أسمع للأغصان الأثيثة ترانيمَ بلغةٍ لا أعرف منها نأمةً وفَهْمُها يدخل قلبي بينما فحيح التنين المجنّح يختلط بصهيل فرسٍ له رأسُ أسد يزمجر وجسمُ ظبي وحوافرُ ثور يتراوح زئيره مع الجئير عميقِ الغور بُغامُ الغزال الذى يسبح بجسم سمكةٍ زعانفها أجنحة خفّاش جلدية مبتلة لها طبطبة أتبين وقعها المنتظم فى الريّاح الدفّاق نَخِيرُ الجِنّيّ الزنديق مختبئاً فى دغل الحلْفا والخَنَا وراء الطاحونة يخبط حدّها بقضيبه الوحيد يبقر به أبضاع النسوان الخواطي صهيل البطريق الذى له حوافر الخيول الصافنة على شط الجرن المترقرق بالطين الرخراخ قرقرة السقنقور وهو يشق ثبج الليل والنيل بقبقبة الماء الذى ينفرق شقّين اذ يمخرهما قضيباه المتوازيان المنبثقان من بطنٍ هى درع سلحفاة زُمّار الأتان المستكنّة فى الزريبة رفرفة جناحيها اللذين يضربان بلا جدوى عقيمَيْن كأجنحة النعام شخْب حليب الكبْش الذى له ضروع الجاموسة متلاحقةً

منتصبةٌ كثيرة ينصبّ منها اللبنُ السخن الأبيض ويخرخرُ فى الطاجن الفخار الذى لايمتلىء قط طول الليل نقيق الضفادع فى قرار المساقي لها مناقير اللقالق تنقر بها لحم القراميط الزلقة على القيعان خوار بقر الوحش المرقّط القابع فى ماء الجرن فاتحاً فكّ فرس النهر المنهوم يلتهم حبات البطيخ الضخام الحبلى بحلاوة اللحم النضيج قانية الاحمرار كرير الثعبان العظيم إذ يزحف فى الحقول بمائة قدم مدببة صغيرة يحكّ التربة القاحلة ويحرثها للتخصيب حتى الصباح خُوات العُقاب الساقطة على زروع البرسيم على الريّاح لها فم حوت بأنياب لا عداد لها تسفّ حبوب الذرة وتكشطها من على كيزانها وتشفط صغار السمك من الماء ضُباح الثعلب الضخم القارّ فى زروع القطن يدق الأرض بخرطومه القوىّ المفتول يدوس بخفّىْ الجمل على النوّار يُعار الماعز الذى له فكّ تمساح له سيف حادّ ممدود سمعت صوت شَقّةِ شجرةَ النبق العريقة أمام البيت .

كان عمي فرح العرباوي قد قال لي ياولدي إسمع المنام وسرْ على هداه ، فهل عرفت كيف أصغي لما في أحلامي أتبع خطاه ؟

بعد عَوْدي للطرانة قرأت يوم ٤ سبتمبر ١٩٣٩ إعلاناً فى « الأهرام » ، بعد أخبار إعلان الحرب التى عرفناها باسم العالمية الثانية إنه عند صموئيل فى مطعم وبيرة كارلتون بشارع ألفي بك تليفون ٤١٨٠٠ ، غداء حسب الطلب ٩ قروش وعشاء حسب الرغبة ١٢ قرش وأسعار خصوصية للمشتركين وعندما عرفت شارع الألفي بعد الثورة كنا نتغدىٰ فى مطعم البلغاري أو الأرمني ، أنا وأحمد شوكت وندفع ــ كل واحد لنفسه ــ سبعة قروش ونصف فى الغدوة طبيخ ولحمة وحلو ، وكان قد أخذ الدكتوراه من جامعة طاغور فى الهند ، والتحق بالخارجية واشتغل بعد ذلك بسنين فى مفاوضات معقدة مع اسرائيل أيام السادات ، ثم سفيراً لنا فى السودان . كان أيامها يسكن غرفة مفروشة فى الفلكي . ولما لقيته مرة بالصدفة وأقبلت عليه بحماسة الإعزاز القديم وغرارة الشباب البائد لم تثلمها السنوات الطوال ، قابلنى

« أهلاً » بارداً محايداً ، ربما لأنني هتفت به بحرارة عالية « شوكت ! » ولم أقل مثلاً « أحمد بيه ! » كنت معه فى شارع الألفي عندما سمعت جمال عبد الناصر فى راديوهات القاهرة يعلن تأميم القناة ، بصوته العميق الذى لا يُنسى ، « بِسْم الشعب » تعانقنا فى الشارع ليلتها ، وتصالحنا ربما لأول مرة مع الزعيم ، وذهبنا نشرب بيرة فى كارلتون ، وكان صموئيل قد اختفى .

كانت السيارات الباكار والفورد والشيفروليه والأوستن والرينو تخطف بى إذ تمرق على جانب الطريق القريب الأصلي وتتجنب نصف الطريق الآخر ، الموسَّع ، المستصلَح ، بوجهه الذائب من الزفت والأسفلت الجديد المفروش على طبقة الزلط والحصى المدكوك المسوَّى ، وكنت ألوّح لها أحياناً بالتحية المجانية لمجرد الاستئناس وبعدها بسنة فقط كنت ألوّح بيدي ، أيضاً للوريات الجيش الانجليزي المفتوحة وعليها كبّود التاربولين المشمّع المشدود على قوائمه الحديدية ، يغطى حشود الصبية العساكر الإنجليز الذاهبين إلى رهانٍ مع الموت غالباً ما ينتهى بالخسارة ، أجري مع اللوري قليلاً ، وخلفه على جسر النيل الترابي أمام الطرانة ، وأنا أشوّر بذراعي وأهتف داون وِذا نازي داون وِذْ هتلر والعيال العساكر ينظرون إلىّ باستغرابٍ قليل ولا مبالاة وتخوُّف ، هذا الولد بجلابيته وشبشبه الذى يجري ويشوّح ويصيح بما لا يسمعونه غالباً فى هدير الموتور وخبطه المنتظم . لا شك يتساءلون فى توجّسٍ قليل . ألوّح لهم هم أنفسهم وقد خلُصت الحرب ، غاضباً ثائراً فى محطة الرمل وهم فى الجيب المفتوح وعلى أذرعهم التُومي جَنْ فى وضع الاستعداد إيفاكيواشَنْ داون وذامبريالزم وليس الانجليز من هواة التقاليع كالأمريكيين لكنهم لم يكونوا يُحجمون عن إتيان أعجب التقاليع التى تضارع أغرب البدع الأمريكية فقد أقيم أخيراً ــ سَنَتَها ــ سباقٌ فى السباحة ببحيرة سربانتاين فى هايد بارك وكان الشرط الأول فى السباق ألا يشترك فيه إلا كل من ارتدى ملابسه كاملة التوب هات الأسود المنتصب والقبعة الباولر المدورة والصديرى المزرّر بالكامل

والجزمة الإنجليزي الثقيلة والبدلة الصوف فهل يجرؤ المجمع اللغوى أن يعمل على تنقيح أسماء بلاد وقرىً مثل نِضْبابا تادرس وكوم زَمْران ومِنْية الحيط وكفر العتة وكنيسة شبراطو وسيِّد الاقليتي إن لم يعمل على محوها تماماً قلت ليته لايجرؤ أبداً وقطعان الخراف الانجليزية الملظلظة تسير بانتظام وراء راعيها فى المروج الشاسعة الخضراء قانعة راضية مكتفية بذاتها قطعان الأسرى الطليان تسير بلا انتهاء على الطريق المدكوك فى الصحراء الغربية انتهى رهانهم ، هم ، وأسلموا أيديهم إلى خواء الرمل الذى لا حدود له الأسير الشهير الذى يخرج من خندقه يهوي على حذاء اليانكي يقبّله والدبابات والمدرعات تسحق الآلاف تدفنهم أحياء فى خنادقهم ومعاقلهم تحت الأرض الأسْرىٰ والمشردون والقتلىٰ بالملايين — وبالآحاد الذى يعدل الواحد الفرد منهم دائماً أية أرقام مهما كانت فلكية — فى كمبوديا الخِمير الحمر وفى أوجادين فى جبال كردستان وسفوح كشمير فى المكسيك وشيلي وسهول السلفادور فى كاتنجا وفى زيلع وهرر ومصوّع فى روديسيا وفى الكونغو البلجيكية فى كرواتيا وفى ناجورنوكاراباخ فى سويتو وفى القدس فى أحراش أنجولا ومعتقلات المِيّة المِيّة والانصار (١) والأنصار (٢) والأنصار إلى ما لانهاية فى النقب فى البوسنة والهرسك وفى صور وصيدا فى نيوكاسل ونيويورك فى أرض الحرب والضرب وخراب الروح الذى لا ينتهى تاريخه المتقطر أبداً بالدم المسفوح سدىً .

البحّار الفرنسي فى اسطول ديجول ، قميصه التحتاني مخطط وجاكتته زرقاء وعلى رأسه الأشقرانى بيريه له شوشة مدورة حمراء يقبّل البنت الأجريجية على شفتيها قبلة مستميتة ومستهترة معاً على محطة سبورتنج الصغيرة وهو يركب الترام عائداً إلى سفينته الراسية عند رأس التين أو عندنا فى الدخِيلة التى مازالت برية ومستوحشة قليلاً ولويزة بنت المعلم شنوده البقال عودها رعرع ، وصدرها نَبّق ، وهى تنحني وتنظر إلىّ بنظرةٍ مستَرَقة وعارفة تُكوّم قوالح الذرة وسط الدكان المعتم نهداها الصلبان لايكادان يهتزان فى انحناءاتها والواد برسوم

يقول لي إن جتتها حامية وإنها حتسوي الموايل باواد ، الزنابير الحمراء تحوم وتئز وتنقضّ ، بطونها اسطوانية كثيفة مخططة وطنينها شرير يبعث القشعريرة فى جلدي حضرة الأخ الحزين أبو أمين ألهمك الله الصبر حضرت والدتي من دمنهور وهى فى شدة المرض والأسى والحزن وأخبرتنى بوفاة أعز ما عندى غنّن فكان خبر أسود متشئوم نزل علىّ كالصاعقة فهزنى وحشّ وسطى وجعل عندى إسهال مستمر حتى فقدت كل حركة ولم أدرى بنفسى إلا هذه الساعة فكتبت لك هذا وعينى تبكى ويدى ترتعش اسأل الله أن يلهمكم ووالدته وايانا الصبر الحزين ناثان فى ١٩٤٣/٨/٨ وكنت أنا أحمله على كتفي وذراعي وأنا أرجع به من عيادة الدكتور إلى بيت شارع ابن زهر أعبر به خط تراموای راغب باشا واتفادى عربات الكارّو والسيارات القليلة فى عز الظهر وهو يتعلق بعنقي فى استماتة يستنجد وكأنه يعرف من الآن أن لا نجدة له خف وزنه وسقطت أجزاء من شعره تركت بقعاً فى الرأس جرداء عارية مصبوغة الآن باليود والمعجون نفاذ الرائحة ، ولم يتركه التيفود وكان يصرخ تلك الصرخات التى لاتعرف العقل وتنطلق من الجسم نفسه الذى يعرف أنه يموت ويرفض أن يموت ولم أكن أملك له شيئاً لا أنا ولا أحد ولا أعرف الآن كيف مات ولا أين دفن هل أنساني الألم وإن كنت أعرف أن أبي أباه قد انكسر بعده ، ولم يُقم عوده حتى لحق به لم تمرّ عليه السنة .

أما أعشاب الحَلْفا الخشبية النابتة وراء الطاحونة فقد رويت دم الذبيحة واستحالت نساءً شبقات متراقصات فى هبّات الخماسين الترابية لحن نداء لايقاوم جسومهن خضراء وغضّة جذوع الشجر على الصفّين الحور العين الخادعات سوداوات الإهاب لامعات البشرة تنبثق فسائل العشب الأخضر تحت آباطهن ومن بين أفخاذهن عساليج منشعبة عن أذرعهن وسيقانهن جارحات الحفافي قُبْلتهن وغيابة القبر سمّ منقوع وعسل حاد الشباة معاً ويتخايلن فى نور العمر الأخير .

في نور القمر الساطع المنصبّ بلا رحمة في ليل أغسطس على صفحة وادي النطرون الأعشاب معدنية الصقال أجداث جمد الثلج الأبيض عليها وأنفاسها ثقيلة وسخنة .

ألم يكن خالي ناثان معنا ؟ أعرف فقط إنه جاء على وشّ الفجر بعد أن كنت قد نمت في بيت الفرح ، في الوادي ، هل كان بيت العريس ؟

وأعرف أننا ظللنا نقطع مسافات على المدقات الصلبة وبين كثبان الرمال الناعمة المنهارة ، تحت وطأة القمر الساحقة ، حتى كلّت قدماى ، عمي فرج أمامنا بخطواته الواسعة المتوثبة يسري في الصحراء كما يسري الواحد داخل بيته ، ولا نكاد نلحق به ، ولكننا لا نصل بعد ، والحكايات وأخبار الناس رائحة جايّة في الجماعة الصغيرة ريّس العمال وقريب العريس وقد دعا خمسة ستة من زملائه ، فقط ، كان منهم حجازي عوضين زوج خضرة ، أخ عوض ، وقد أخذ البرد يتسلل إليّ ، وخلع عمي فرج تلفيعته من على كتفيه ولفّ ظهري . وكانت لها رائحة حلوة من دخان أبو غزالة ونفح أعشاب صحراوية ، وفي وسط الرمال لمحت ما يشبه الأنقاض القليلة من الحجارة القديمة ولافتات مكتوب عليها بالعربية والفرنسية استطعت في نور القمر أن أقرأ فيها أسماء أديرة دارسة ، مغروسة في الرمل بين الأطلال وبخط أصغر أتبينه بالكاد : « مصلحة الآثار المصرية » ، قلت ياه .. كم من الأديرة كانت معمورة بالإيمان والتقوىٰ ضُربت أشباح سبعين ألف راهب وكم من مئات القلالي والصوامع والمغاور والمعتَكِفات هل سمعتُ ترداد إيقاع الترانيم المملّ الرتيب النغمة بالقبطية الفرعونية المهجورة وغير المندثرة ؟ وهل خايلتنى نفثات البخور والشمع أم هى ضوْع العشب الصحراوى فى القمر ؟

كانت ساقاى تخوران بى فى الرمل الناعم وفى تعب المسيرة الطويلة ، منذ كم نمشي ؟ ثلاث ساعات ؟ سمعت عمي فرج يقول بصوته الأبح :

« الهوكرية ع اليمين هاسّا » .

ولم أر شيئاً ولم أفهم ولم أعنَ بأن أسأل وخايلتني أسوار من الظلال دهماء السواد فى نصوع القمر .

أحسسنا الأرض تتحدر من تحتنا ، والرمل يصلب ويشتد تحت أقدامنا وعمي فرح يشوّر لنا على بقعة لامعة بالملح الفضيّ فى قبضة القمر ، تذكرت بوبيللو ، وحننت لستي أماليا ولغرفة النوم الضيقة الحارّة فى بيت الطرانة .

أكلت فتّة الضاني والرُزّ بجمع يدى ، تشرّ بالسمن ، كنت جائعاً ميّتاً من الجوع ، وأنا أتفرج على الغازية ترقص فى البدلة الشفافة المذهبّة ، حزامها الأحمر العريض يلف الردفين الممتلئين ، ويدور تحت استدارة البطن الأسمر المكشوف يؤكد غموضه ودعوته ويبرز وَثَارة الربوة المخروطية تحت البطن ، وكانت ممتلئة الأنحاء واضحة بضاضتها وتهتز فى إيقاع طبل فجّ وأوليّ ، وقْعُ نبض الدم فى ذكورةٍ فتية جديدة متوترة بالشبع من اللحمة الضاني ومن الغُلمة إلى اللحم الأنثوي نصف الممنوع ، ومع وشوشة الصاجات فى أصابعها تخشخش حِليّها بالتساوق مع الترتر الأصفر فى بدلة الرقص ومع صلصلة العقد الذهبيّ ذي السبع اللفّات قلتُ قشرة بلا شك وإلا ما استطاعت أن تحمله على نحرها الذهبي والأساور الحَنَش الغليظة والخلخال السميك المفتوح ذي الرأسين المربّعين ، وكان المزمار والطبل ودخان المعسل والحشيش يملآن عليّ دمى بضربات اليأس المبكر والشبق المبكر فى الصبا فى عز ليلة النشوة .

أحسست فجأة خالي ناثان ينحني عليّ ويوقظني ، وقال لنفسه : كيف تركتك تنام هنا على هذه الفَرْشة ؟

أما أنا فكنت قد نمت ملء جفوني ، كان ذلك الفراش عندى أريح من سريري فى البيت ، حتى .

كان الكليم خشناً ومبقعا ، كما رأيت الآن فى نور الكلوبّ الذى بدأ يخفت ويرتفع بوشيش متقطع ، وتلفيعة عمّي فرح تغطي الحرام الصوفي الأصفر المخطّط الذى وضعوه على مخدة صلبة جافة نمتُ عليها إذ أسقطتنى سطوة النوم دون أن أتوقعها .

رأيت عمي فرح نائماً أيضاً ، على الرمل فى الحوش الذى أخذ يخلو الآن وتخفت أصوات الفرح فيه ، يسقفه سعف النخل الجاف القديم وعوارض معمولة من خشب الجميز ، رأيت من خلالها نجوم الفجر الباقية القليلة تلمع فى سماءٍ صفاءُ زرقتها المنيرة لا نهاية لشفافيته .

(٨) سارة و وديدة

تزوج عمّي فانوس خالتي وديدة .

مع أنه كان يموت حباً فى خالتي سارة ، أختها الصغرى .

النظرة الوامقة فى عينيه لا أنساها ، حتى النهاية ، مع زواجه بأختها .

وفاؤه لها وفاءٌ مطلقاً . ومع أنه خلّف منها ثلاثة أولاد ، وأربع بنات يظل يرمق سارة بالنظرة العاشقة نفسها . حتى يموت .

وجهه الأبيض المرهف العظام ، مربّعاً قليلاً ومرفهاً ، ابن عزّ كان . عيناه بهما الحول الخفيف من أثر رمد قديم ، سوادهما عميق ، غطيس ، حتى يلمع دائماً بالرقة . هكذا عرفته . شعره المسرح الناعم محلوق بعناية دائماً ، تحت الطاقية النظيفة المكوية ، تحت الطربوش فى المناسبات ، جلابيته البلدى الصوف الغالية فى الشتاء ، بوبلين أبيض فى الصيف ، لا تعلق بها شائبة صيفاً وشتاء .

فهمت من ستي أماليا ، فى كلام مهموس لخالتي روزه وخالتي سالومة ، لم يكن مقصوداً أن أسمعه ، أن عمي فانوس فاتح ساويرس بما كان يعرفه جدي ، وما كنا نعرفه ، إنه يريد خالتي سارة .

وأن جدي ساويرس قال له بدون غضب ، بل يفهم تقريباً لما كان

يعذّب قلبه ، ماكنا جميعاً نتوقعة ، وكان عمي فانوس أول من يتوقعه . إن سارة هي الصغيرة — كما نعرف كلنا — هل يرضىٰ أن تعنّس الكبيرة . وعلى العموم ، قال ، أختها تحت أمرك فى أى وقت ، من أحقّ بها من ابن عمها يداري لحم بنت عمه ؟

وافق عمي فانوس دون لحظة تردد .

هل كان فى صميم نفسه قد أعد نفسه لهذا المآل ؟

هل كان فى صميم نفسه يخشىٰ على حبه أن يزول — شأن الحب عادة .

هل كان حقاً يريد أن يهزم هذا الحب بنفسه ، حتى يبقىٰ أبداً ؟

بقى حياً ، الحب .

هل قتلتُ هوىٰ نفسي ، وعشتُ بلا نفسٍ ؟ أم أنّ فى قتل نفسٍ حياتها ؟

ياه .. ياعمي فانوس . كيف استطعت أن تضحى حياتك كلها ، لتكسبها .

كيف استطعت أن تدفن آلام الحب الذى لا يطاق ؟ وأين ذهبت هذه التمزيقات التى شرّحتْ نفسك شرائح وفِلَذا ، دمها مكتوم دائماً ، لا يباح به ؟ ولا يُباح ؟

مراقٌ بلا توقف فى الداخل ، دون أن تراه عين ؟ هل راحت هدراً ، هذه الآلام والتمزيقات ، دون أدنىٰ معنىٰ ؟

كما لو أن من الضرورى أن يكون للألم معنىٰ ، أى معنىٰ .

يالوعتي ، ياضناىَ .

أما من نهاية — بقىٰ — لهذه الولولة وندب سوء الحال ؟

أين ذهبت هذه الآلام التى لا تُحتمل ، آلام الطفل الصبي آلام الكهل ؟

لا قيمة لها .

ليس للألم مكافأة .

عيني رأت بنتْ سمرا والندىٰ نازلْ والشعر بالليل ع الخدّ الجميل نازلْ
طلبت منها الوصال قالت لى ياجدع ارجع لتموت قتيل المحبة والندى نازلْ
وانعقدتْ ليالى الاستعداد للفرح الذى لم أشهده ، عرفت به فقط من رسالة خالى ناثان لأبى . قال إن الأكليل تمّ ببركة الرب فى كنيسة الطرانة مساء السبت الماضى وازدان الزفاف بأهل الطرانة ، المسلمين منهم أكثر من النصارىٰ ، وحتى عائلة داود فتحوا السراية مخصوص ، وأرسلوا ابنهم أنيس الذى يدرس الطبّ فى مدرسة القصر العيني العليا فى مصر ، للتهنئة والتبريك .

عرفنا فى آخر العام التالى أن أنيس ضرب نفسه بالرصاص على رقّاصة كانْ جابها من مصر ، ولكن أباه الكهل ، أخذها لنفسه . وعندما دوّىٰ فى العزبة النائمة طَلْقُ نار من البيت الذى كان يقيم فيه أنيس افندى ، وكان قد طرده أبوه ، فلجأ إلى هذا المأوىٰ الذى كان يُعد لعمال التراحيل ، ظنّ القرويون وهم يتقلبون فى نومهم الثقيل أن أحد الخفر يطلق بندقيته للإرهاب ، أو من الملل .

كانت رحمة تغنّي لخالتي وديدة أغنيات الفرح الفلّاحي ، بصوت خفيض ورفيع ينقطع منها أحياناً ، يجعلْ سنينك ع العريس بهَدَاوه ، وخضرة تضرب الطبلة ، بعد أن تحمي جلدها المشدود على نار مصباح « الشيخ على » المهتزة .

بإيقاع طروب ورتيب ، فى حوش المندرة المفروش بالحصير والكِليم ، ونحن نستند إلى المخدات الصلبة المدكوكة بالقطن ، أمام الباب العريض ، وتحت أغصان شجرة النبق ــ الجميز ؟ ــ الفينانة المتدلية من الفسحة البراح أمام بيت جدي ساويرس .

تنظر إليّ لنده ــ متربعة فى جلستها على الشلتة ــ بهاتين العينين المكوَّرتين قليلاً الجاحظتين قليلاً ..

ياه .. !

أول مرة أدرك الآن ، وأنا فى مساء العمر ، أن هاتين العينين تلاحقاننى عبر الزمن ، هما هما ، دون تغيّر ، فيهما تلك النظرة نفسها متعددة المعانى متراكبة الطبقات ، فَهْمٌ وسؤال ، غرابة وإغواء ، شيءٌ من استهانة ، ربما ، وشيء من امتنان ربما ، تحريضٌ أيضاً ، واستخفاف ، استفزاز لاريب فيه واستنجاد أيضاً ، بيأس . وحبٌّ أيضاً ؟ مامعنى الحب ؟ مرّةً عينان عسليتان قبطيتان جداً ، يعني فى لون العسل وعذوبته وماء الفيضان ، ومرة صفراوان خضراوان ، ومرة بئران عميقتان بسوادٍ خالص . ولكن دائماً واسعتان نجلاوان . دائماً قاتلتان وأموت فيهما حباً ، هما هما ، هاتان العينان .

تخطف لندة طرحة خضرة .

التى ينكشف شعرها الوثير المسّد الغنيّ ، فتضحك بخجلٍ وأنثوية مفضوحة ، وتحزم لنده نفسها ، وترقص على الواحدة ، بجسم منساب أملود ، مطواع ومثير ، فى فستانها الذى أراه فجأة ملتصقاً ببطنها وردفيها ونهديها ، كلها عذرّية ومنعشة ، فى القماش داكن الصفرة المنثور بزهور حمراء رقيقة جداً ، طويل ، مكشكش ، وواسع قليلاً كأنه بالكاد مكشوف عن كاحليها وقدميها الحافيتين اللتني رأيتهما تدعكهما بالحجر الخفّاف ، ثم تضعهما فى

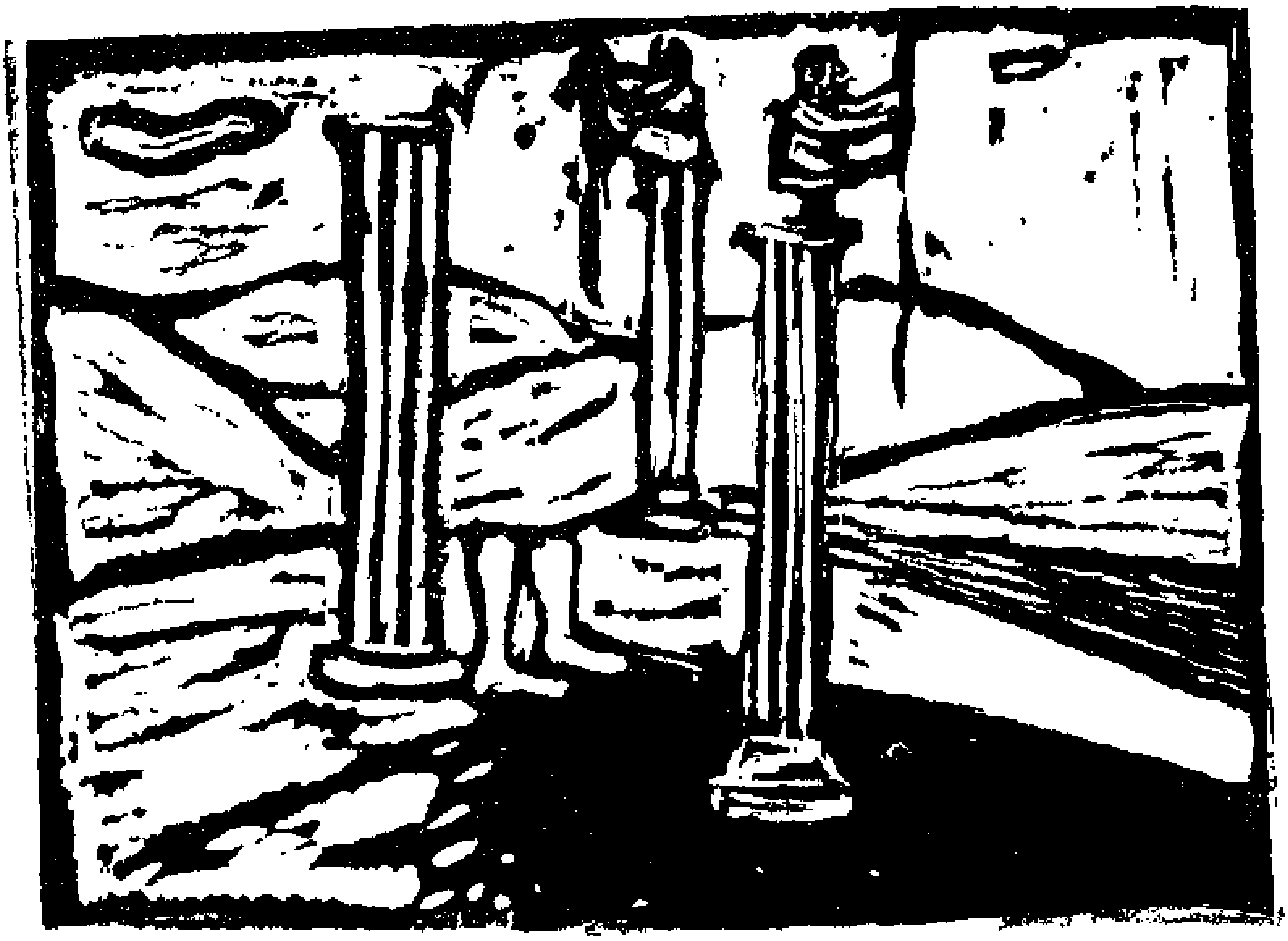

طشت الماء المسخنّ المذوّب فيه اللبان الذَكَر حتى ينعم الجلد ويطرىْ ويحمرّ ، ويزول عنه تماماً أثر القَشَف . هاتان القدمان تتنقّلان تحلّقان وتحطّان ، بخفةِ طائريْن ، على الحصير الأصفر اللامع النظيف ، تخطوان على صفحة قلبي وتدغدغان ذكورتى الجديدة التى تنتصب وتبضّ ، فأجهد أن أداريها بطيّات الجلابية البيضاء التى أخشى ابتلالها وجُرستي بها .

وحتى حميدة البرصا وقد انتبذت ركناً فى الظل ، تخفي وجهها بطرف طرحتها ، تتمايل مع الأغنيات وِدِي بيضة ولابسة طقم ابيض ولا هاينْ عليّ أفوتِك ولاقادر أراضي خاطر أبوكِ يامّ النهود الطالعة بحلاوْه الحَمَام الأبيض ينبثق من حضنك يرفرف بلا انتهاء فى حقلٍ متكاثف بالحَلْفا والهيش والصبّار الشائك ينشع فيه الملح جِلوه العروسة دا الكلام بهَداوه والمسك والعنبر طَلّقْنا هُو لِكْ بخورْ التفّتْ ببطنِكِ العارى أذرعُ البخور ، هفهافة وشفافة ، أذرع أخطبوط تتموجْ بالكاد مرئية بالكاد محسوسة بالكاد وسقطتْ من على كتفيك الطرحة والشال ، بحيّاتها المتلوية المتلونة وشراشيبها التى تفح وتترقرق يامّ الجدايل يابيضة وتصفّق البنات فى المصطبة الهادئة على ضربات الطبلة يامّ الجدايل ونهودها رمّان جنايْن وشعورها نازلة خمايلْ وطيازها بطيخ جزايرْ والحلوانى تهانُف الضحك المكبوت من البنات وخضره تكركر بالقهقهة الصرّاح ، بالصوت الناعم الحيّانى ، الحلوانى ، الحلوانى كَبَشْ وِدّانيْ يام الجدايلْ ثدياها مدوران مكسوّران بورق مفضّض مزركش وجهها سكرّ معقود العِرسة تنسلّ من بين فخذيها القانيتين اللتين تتهشمان فجأة بصوت قرقعةٍ جافة وتسقطان كِسَراً وكِسَفاً طعمهما فى فمى حادّ الحلاوة يجعلْ سنينك ع العريس بهَدَواة .

حلمة الثديين بزّخشبيّ بارز يبظّ من عرق النبْق الخشن والخدّ صفيح معدنيّ مصقول أما الفرج فهو كوز مقطوع مفتوح التجويف بطنها مقوّر منجور من شجر الجميز المخطط بفتائل من الشعر الرقيق المتموج متداغمة فى

لحم الخشب ، أزيز النحل طنين محركات العربية الباكار هدير اللورى الثقيل يشق اللباب والعباب بصوت آلّي رتيب وبذيء أسلاك الوَجْد لا مقطوعة ولا ممنوعة ، يجعل سنينك على العريس بحلاوة .

أما العريس فقد أحنىٰ رأسه وابتسم ، يصغي للأغاني والطبل ويرمق الرقص بنصف عين ويلعب بصره بنصف عين مع جدي ساويرس ، وجورجي العريف يتابع اللعبة بأذنيه ، رميت إيه يافانوس ياخويا ؟ طلع لك إيه يابا ساويرس ؟ حاسب ياخويا على نفسك نباح الكلب فجأة تحت شجرة النبق الهائلة التى ترمى بفروعها علينا وتجعل الساحة أمام بيتنا مخوفة ومعتمة .

ومليت له الجُلّة من لبن البَجَر ولا عايزه الجُلة ولا لبن البَجَر ماعايزه إلّا أنت ياضَيّ الجَمَر ... ماعايزه إلا أنت ياضيّ الفانوس ..

يافانوس يافانوس رأسك المقطوع يدور فى حلقة الشمس البازعة من ماء النيل وسالومي ترقص لك فى غلالاتها السبعة الهفهافة جسمك المقطوع يسكنه روح القدس فى كنيسة العذراء على رأس ساحة الحُفاة ساحة العُراة ساحة المضروبين وأبونا أندراوس يقدّس عليه يرش ماءً من جرن المعمودية الرخاميّ الضخم الذى من ثقله غارت أرض الكنيسة تحته قليلاً وانشرخ خشبها العتيق .

دا كيد النسا كيدْ يتحزّموا بالحَنَش ويتعصبّوا بالعجَارِبْ ..

كم أفتقد لسعة الشمس المحرقة وثمرة الخرشوف

واحطُّك فى شَعري ياخويا واضّفّرْ عليك

أحطّك فى عيني ياوَلَد واكّحّلْ عليك

وبين بزازي ياخويا واتحنّط عليك

كم أفتقد ضربة الثعبان فى قلب اللوتس

ويين فِخادي يا جَذَع واحزَمْ غليكْ

وإنّ جتّنى أمّك تِدورّ عليك

لا تخْلِف بالأمانة ماجًا عندنا

صوت خضرة قد ثَمل من الخمر قبل أن تشرب فما بالها عندما تتجرع الكأس مترعة بالنشوة . قامت الآن ، تركت الطبلة لرحمة فتغير إيقاعها على الفور إلى قَطْرٍ رقيق متباعد الموسيقات وتمايلت وتمشت ورقصت ولعبت وجاءتني واهتز بطنها أمام ناظريّ بحركة تشارف على البوح ولا تقارفه ، شخصتْ إليها الجماعة الصغيرة والتذّوا بمعاينة فنون رقصها وشؤونه . حدّق إليها فانوس كأنه مسحور قالت لهم بلسان مُبين فصيح هل هذا مليح ؟ قالوا نعم ياسيدة الملاح كل ماتفعلين مليح ثم قالت وهذا الذى أعمله أحسن منه ياسْيادى وفتحت ذراعيها فاذا لها جناحان عريضان لهما ريش متكاثف وحريريّ وطويل وناعم الأهداب وطارت أمامنا وصارت على قمة شجرة النبق العتيقة ثم قالت : فاذا جاء العاشق المسكين وطالت عليه أيام الفراق واشتهى القرب والعناق وعصفت به عصفاً زوبعة الأشواق فليجئني إلى جزائر واق الواق . ظللتُ أخوض البحار واخترق الآفاق وما من مرسىً لي رقصّ وليس ثَمّ تلاق .

رقص المرأة ، وقوعها فى فضيحة ، بهذا جاء تعبير المنام . رقصة مَرْأتي لم تتم فصولاً أما رقص قلبي السجين فهو دليل الخلاص من أغلال العشق فهل يعرف أبداً كيف يرقص أم يبقى مغلّلا بالأصفاد إلى أبد الآباد أى إيزيس خضرة رحمة رامة لنده لوريس نِعْمة فى أيّكنّ يتعيّن عشقي حوريّاتى السبْع المحلّقات فى أصقاع سماء روحي التى بلا أفق محددٍ قطّ مفرودات الأجنحة هل وجدتِ ــ أنت الواحدة المتكثّرة ــ ذلك المفقودَ من بين أربعة عشر مُغْرَقة فى أصقاع جسد كيمي هل بعثتِ الحياة فى العظام وهى رميم ؟ واذ تعودين إلىّ ،

تعودين باستمرار ، باستمرار ، وأنت تنهجين من رقصة الشوق والشبق غير التامة أبداً رقصة الدمار تحت هديد موسيقى وحشية حمولات آلاف الأطنان تفجرات ماحقة الايقاع صرخات ١٧٠ ألف طفل ميتين من الكوليرا والجوع قرقرة ماء المجارى الملوثة باسم التحرير كم رقصة الكذب سهلة وفعالة تغور الأرض بعمائرها ويعود صمت الأطلال ياطلولاً لرامةٍ دارسات لادثورَ للكِ قطّ ف روح العاشق المدنف تظل تطيح به غوائلُ الهوى بلا انتهاء ثقل الهدوء لايطاق .

جَبيصي دابْ يامّه ونهودى بايْته مِنّه .

بكره السُوج ياضيّ عِنيّه واجيب لك أحسنْ مِنّه .

أنياب الألم المكتوب مازالت تنهش ومازلت لا أقدر أن أئنّ ولا أكتم الأنين عظامي قد تهدلت وانطوتْ خِرَق القماش القديم .

أيا شعرِكْ سَلَب جَمّال وانا أبيع رُوحي

أيا وِراكِك عواميد رخام وأنا أبيع روحي

أيا بطنك عجين خمران ونهودك فحول رمانْ

والسُرّة جَعْر الفنجان .. والسرّة .. جِعْر الفنجان والسُرّة .. والسُرّة ..

قامت المراكب تمخر الرياح والشراع معلّق مطوِيّ الجناح يهتز تحت العاصفة بحر النيل دفّاق بخور العنبر فؤوس تعزق التربة وتقْليب أيسوع منقلب الرأس على ذراع أمه وقد سقط من على الصليب بلا قيامة وعلى وجهها تلك النظرة المتأملة تتفحصنى بحزن ، وبصوت خفيض وحنون ـــ كأنما تريد أن تخفي عن نفسها ذلك الحنان ، كأنها خجلة من نفسها ـــ قالت : ياريت بسّ أعرف إيه اللى بيوجعك ياحبيبى إيه اللى بيبعدك عني وعن كل حاجة ؟

راقصات ماتيس فى ساحة العُراة وبينهن المسخ الأليم منقاره مخلبى عيناه كعيون السمك وقضيبه سنّ مشحوذة مدبّبة الشّبَاة وجسمها مبذول أمام دفقة النور من شباك مفتوح عليه ستائر هفهافة كأنما هى أيضاً نور قالت : كأننى أصنع الحب على قارعة الطريق وجسمها نائم كالحرير ، نور من نور ، أرى جذوع الأشجار القوية تنطلق من الأرض كأنها عِمدان تطير فى بحور الشهوة إلى السماء وفروعها الأثيثة الخضراء تُظلِّل مكابَدة العشق ولَجّج نشواته يداها تخفيان رأسها الجميل ينطوى وجهها تحت الطرحة المسدولة على شعرها المموَّج المهدول كالليل الذى انقضى الآن لتوه بقظة الفجر محرقة لاتنتهى حريقاً .

كانت خالتي وديدة وهى العروس المنتظرة تشارك فى الغناء بتحفّظ وتحرّز محسوب ، لاتريد أن يفضحها الفرح ولكنه ، الفرح ، يطفح من على وجهها ويفيض ، كأنما على الرغم منها ، وعيناها تلمعان ، بينما خالتى سارة قد بلّت الشربات ، تقدمه للخطيب والخطيبة ، كلاهما محبوب وكلاهما خائن ، وللضيوف والمدعوات ، تدور به على المصطبة فى كؤوس رفيعة طويلة رقيقة الزجاج مسحوبة الخصر مذهّبة الحوافّ ، فى ضوء « الشيخ على » المصفرّ المتذبذب بظلاله على الحيطان .

كان أبونا أندراوس قد جاء بعد ظهر السبت ، ومعه المعلم جورجي ، والولد برسوم الذى لبس توشيحة الشمّاس القانية على جلابية ناصعة البياض ، بخّروا البيت كله ، وترنم المعلم جورجي بتراتيل التمجيد والتسبيح والتبريك ، يسانده برسوم .

فتح أبونا أندراوس دفتر الحكومة الكبير وكتب فيه محضر الخطوبة وسجل الأسماء . كان فى البيت عمّي أرسانيوس ــ أب العريس ــ وعمي سلوانس وابنتاه لنده ورحمة ، وابن خالتهما أسعد أفندى ، وكان فيه خالي ناثان ، وخالي يونان الكبير الذى جاء من اسكندرية على الظُهرية ، أوقف

التاكسي الذى يشتغل عليه أمام البيت فى الوسعاية ، تحت الجميزة .

وقفنا فى المصطبة المكشوفة وراء أبونا أندراوس الذى بدأ باسم ربنا يسوع المسيح مخلّصنا تُتمِّم خطوبة الابنة المباركة وديدة بنت ساويريس وأماليا ، على خطيبها الابن المبارك فانوس ابن أرسانيوس وفكتوريا ، مصلين قائلين معاً : أبانا الذى ...

عندما رفع رأسه وذراعه اليمنى يصلّي بصوت خفيض صلاة الرب سريعة ملهوَجة لايكاد يسمعها أحد سقط كُمّ جبّته السوداء الواسعة عن ذراعه ، وبان وشم الصليب الأخضر المورق الكبير على رسغه اليمين وكنا نساوقه ونجاوبه أيها السيد الحقيقيّ كلمة الله الأزلي الوحيد يامَنْ خطَب النوع الانسانى للفرح الأبدي ؛ ثم تمتمَ بسرعة وآليّةٍ تقريباً بتجسده المنيف المجيد ؛ ارتفع صوته الأخنّ قليلاً نبتهل اليك ياوحيد الأب هاتفين اللهم أفِضْ من سحاب رضوانك غيوث فضلك وامتنانك ، ويسِّرْ بما احتفلنا لانجازه فى هذا المقام ومُرْ لمشروعنا هذا بحسن البداءة وحميد الختام ؛ هبط صوته فجاء وراح ينساب مغمغماً لايُفهم حتى هبّ بالإنشاد فجأة ليكون خطبةً طاهرة شرعيّة ومقدمة لمصاهرة فاخرة مرعيّة من أجل لين الخطيبين بمصاقل التهنّى والحبور ، هَبْهما محبةً سليمة متبادلة ؛ هبط موج الدعاء ثانية وترقرق غير مستبين حتى صعد موجه خاتماً أنعِمْ عليهما بتِمام السرور ومتّعْهما فى ميقات الحبور بمهرجان الأكليل آمين أبانا الذى .. وهو يرش الماء المصلّىٰ عليه والمقطَّر بقطرات من زيت الميرون المقدّس على رأس خالتي وديدة ، على رأس عمي فانوس ، على باب البيت وعلى العتبة الرخامية القديمة المنقوشة بحفر رسوم غائرة وكتابة بالخطّ الهيروغليفى امّحت الآن من وقع الخطىٰ وزحف الأقدام واحتكاك الباب الخشبى العريض .

فهل سمعتُ عمي فانوس عندئذ يهتف ملتاعاً وبصوت مكتوم بوبيللو

بوبيللو اسمك تجدني إذ ألقي بنفسي إلى البحر اللُجّيّ مشيَّعاً بالصلوات والدعوات بالقبطي والعربي ؟ هل قذف بنفسه الآن من صخرته السمراء وديعة السطح يانعة فيها وحدها نجاته ومرساته ؟ لم يعد ممكناً الآن أن يصعد إليها ثانية ، أبداً . سقط بينما تراتيل التبريك تصعد حواليه .

ثاني يوم الصبح جاءني ولد من أولاد جِميدة الزُعْرانى ، فلّاح عزبة « أبو داود » وفرّاش مكتب عمّي فانوس على وجه التقريب ومعه الحمار الأبيض الفاره الذى يركبه عمى فانوس فى ذهابه وعودته من العزبة .

كان يمسك حساباتها ويتولى نظارتها ويشرف على زراعتها .

لقيت الولد ينهج وهو يقول إن الخواجا فانوس يريدنى الآن .

كان بين الطرانة والعزبة حسبة نُصّ ساعة بالركوبة القوية النشطة .

ولكنى كنت أتحين كل فرصة لركوب هذا الحمار الفخم والانطلاق به ، كان عالي الصهوة عريض الصدر وحسن الطهمة ولمّاح الذكاء أيضاً ، وما أن أمتطي ظهره حتى يحمحم كالحصان ولكن بصوت أجش ، أغلظ معدنا ، كنت أعطيه حَشَّة برسيم أخضر ومرعرع ، أحياناً ، عَ الْمَغربيّة ، بعد عودة عمي فانوس إلى البيت ، جارنا الجِيط فى الحِيط ، وكان يتعرفنى .

انطلقتُ على ظهر الحمار ، دون تورّع ، ألكز جانبيه بقوة وتتابُع ، ممسكاً بلجامه مسكة هينة ولكن حازمة ، والحمار الأصيل يرمح بي على جسر النيل ، رافعاً رأسه بشموخ ، والهواء يئزّ فى أذني ، والتراب قد عفّر الواد خَلَف جِميده الزُعْرانى الذى يجري ، دون كلل ، ورائي بمسافة غير قليلة . ويبتسم فى تحدٍ كلما نظرت إليه ، وسوف يلحقنا بالتأكيد .

سلّم عليّ عمي فانوس بيدين محنيّتين ، اللون الأصهب البُنّي الخفيف

جداً يتوزع على الكفّ والأصابع توزيعاً رقيقاً بين البياض الذى تخلّف عن طيّ اليد والأصابع عند التحنية . لم أكن قد شهدت تحنية العريس .

وقال لى معلهش يابن خالى (لم أكن ابن خاله طبعاً ، كان ابن أخ جدي ساويرس ، على التقريب ، أبوه كان ابن عم جدّي على الحقيقة ، وكنت أقول له « عمي » على سبيل التأدّب) كنت عايزك تّضيِّبْ لي الجِسبْتين دول (كان يلثغ قليلاً فى الراء) وتبيضهمْ لي على نْضيف ، لازم أخلّص دَفْتَيْ الأستاذ دلوجتي أمُوه ، داود بيه مستعجل عليه .

استغرقت منى المهمّة ساعتين تقريباً ، فى المبنى المعمول من الطين اللبِن الذى كان الفلاحون يسمونه « المكتب » يهبّ عليه الهواء من النيل مباشرة . الطراوة وحدها كانت تِسْوَىْ المشوار ، وملّ الحسابات ، ولكنى أيضاً أخذت فيها جِتّة بخمسة ، بحالها ، لامعة وفضية وكبيرة ، بعد أن تمنّعت قليلاً وعينِي فيها ، قال لى : داخلَه فى الحسابات يابن خالى ، ولا على بالك ، خمسة صاغ مش حتحشّ وسط داود بيه .

وتغديت معه ، شوينا عشر بيضات على قوالح الذرة الجافة المتقدة ، وجبنة قريش ورِجْلة جايّة طازة من الغيط ، غسلناها بماء النيل من الزيروكان طعمها حريفاً وخشناً جداً ، نيئاً ، على لسانى ، وحلّينا بجوافة زيّ العسل . قال لى معلهش يابن خالى ، بصلة المحب إيه .. مانْتَ سيد العارفين .

بعد الغدا استرخينا فى ظل حائط « المكتب » من الخارج ، على فرشة من عيدان الذُرة ، وسألنى عمّي فانوس ، باستحياء ، قليلاً ، عن خالتي سارّة .

حكيت له ، باستمتاع ، كيف ذهبتُ معي خالتى سارة إلى روضة الكرمة القبطية الأرثوذكسية ، لأول مرة ، أول يوم ، وكانت الدنيا ماطرة

وموحلة ، ولكن منصور أفندى ناظر الروضة قابلني كما يقابل الرجال ، هل كنت فى الخامسة ؟ ربما ؟ وأحببت ، من أول نظرة ، كعادتي ، مس كاترين شمعية الوجه ملائكية النظرة ، وعرفت أن أقول وراءها كات مات ران مان على صور قطة وحصيرة وولد يجري ورجل يلبس قبعة هات ، وحكيت له أيضاً كيف كنت أستيقظ مبكراً ، عَ النجمة ، فى بيت شارع ١٢ الذي أمام الطاحونة ومدرسة البنات ، وأتسلل فى البيت النائم الهادىء المليء مع ذلك بأنفاس حارّة ، وأذهب إلى غرفة خالتي سارة وخالتي وديدة ، وأنام بينهما ، ساعة الصبح البدري ، فى سريرهما ، وأروح فى النوم .

وكان يصغي إلىّ بقلبه ، وكأنه نسى الخطوبة ، وقربان قلبه .

خجلت مع ذلك أن أقول له كيف كنت عندئذ أرقب ، مسحوراً ، طقوس تحضير الحلاوة ، وتلميع السيقان الانثوية الأربعة ، كيف تُعمل بالليمون والسكر وتوضع فى الطاسة على وابور الجاز ، ناره واطئة ، وتُقلب حتى تصبح عجينة طيعة ولدنة ومطاطية .

تماسكت العجينة الآن واشتد قوامها ، وبُسِطت على البلاط النظيف اللامع ، فى الممر الضيق بين السريرين ، أمام الشباك المفتوح ، وأنا لابد تحت أقدام السرير . بردتْ العجينة الآن ، ثم نزعت كل واحدة منهما حتتها ، وبدأت تشتغل عليها ، تطريها قليلاً بتفلة صغيرة ، رشيقة ومضمومة ، من الفم المزموم ثم تمددها بالتربيت السريع المتلاحق على السيقان المفرودة المكشوفة حتى أعلى الفخذين ، ثم تُنزَع فجأة مرة واحدة وبقوة « فلوب » .. « فلوب » .. لون النسيج الأحمر ، والأسود ، فى نهاية الساقين ، محبوكا بوثاقة ، يتخايل ، يشرق فى نور الشباك ثم يعتم مع حركة البسط القبض التمديد البطىء للحلاوة والخلع المفاجىء الخاطف للعجينة وقد تعكر الآن لونها الطحينى قليلاً ، وكانتا تضحكان من لسعة انتزاع الحلاوة من على اللحم القوى المتماسك الذى يحمرّ

ويلمع ويبدو ندياً وشديد النعومة . تذكرت الصوت اللحميّ الذى يتراوح ، التصاقاً على السيقان وافتراقاً حاداً عنها ، وهما تشهقان .

كانت عجينة الحِنّة البغدادى ، ليلة أمس ، تنطبق على يدىْ خالتي وديدة وقدميها ، ثم تُنزَع عنها بنفس الصوت تقريباً ، ونفس الايقاع ، تشاركها فى الحِنّة ، والفرحة ، لنده ورحمة وخضرة ، وبعد أن فرغن منها ، كانت حميدة البرصا تعالج انطباق الحِنّة على يديها وقدميها ، بنفسها ، وحدها ، ودون أن يساعدها أحد .

وأنا أدخل لأنام . فى آخر السهرة ، سمعت جدي ساويرس ، من وراء باب الغرفة الثانية :

ـــ أهُوه ياستى ربنا تاب على المعلّم جورجي ، كَنٌ فى دار جِنينة من يوم ماجّوّز ، هوّه وأخوه باسيلى ، ياوِلْداه ، من نهار ماوقعت عليه حيطة الكنيسة وهو مابيحطّ منطق ، طبّ ساكت ، ولا هو قادر حتىٰ يجرّ رِجْليه أو يشيل إديه . لازم يتشال ويتحط زىّ الطفل ياوِلْداه . هىّ كان كَنَّتْ فى البيت ماحدّ سامع لها حسّ .

قالت ستي أماليا :

ـــ آه .. كَنُتْ والّا مَنّتْ .. قال إن كانت الميّه تروب تبقى القحبة تتوب . بكره نشوف .

رد جدى ساويرس :

ـــ يامّ يونان اتّقي الله فى الوَلايا . دانْتِ عندك وَلايا برضو .

فقالت جدتي : سامحني يايسوع .

غضبتُ مع ذلك من ستى أماليا ، وثقل قلبى . كنت أحب ست

حنينه .

ودخلت الغرفة التى كنت أنام فيها ، مع أخواتي البنات ، وخالتي سارة .

هى الأولى مابعد المصطبة ، تليها غرفة جدي وجدتي ، وفى مقابلها ، عَبْر الحوش ، زريبة البهايم ، ليس فيها إلا الجاموسة مبروكة والوزّة نعيمة أيضاً ، وذرارى البطّ الصغير والكبير ، يتدأدأ فى النهار لغاية الترعة ، ويعود عند الغروب ليس له اسم ولا قائد ، والفراخ . وكنت أُحبّ رائحة الزريبة وخصوبتها .

كنا ننام ، كلنا ، على سرير عريض عال مبنيّ من الطوب النيّء ، تحته فتحة الفرن مسدودة الآن ونحن فى الصيف ، توقد فى الشتاء لتدفيء الغرفة . وصعدت إلى مكاني المألوف بين خالتي سارة وأخواتى النائمات ، على المرتبة الكثيفة الطرية من قطن الغيط المدكوك مباشرة ، نور « الشيخ على » لاتكاد ذبالته تبين من طاقته المحفورة مخصوص فى الحائط تحت صورة العذراء التى حفّ بها هباب خفيف من اشتعال النار الوطيئة فى المصباح المعمول من كوز صفيح ، ذبالته الآن مدخنة محترقة على سطح الجاز القليل ولها رائحة نفاذة خافتة ، فى وخامة الغرفة وثقل هوائها الذى يفوح مع ذلك بأنفاس عطرة قليلاً من الحلبة المخزونة ومن قفف الخزين الأخرى : البتّاو الصغير الجاف وفوقه طُرّحات خبز الذرة ، الهش الرقيق واسع التدوير ، الفول ، والعدس ، والذرة ، زِلَع الجبنه القديمة ، والمشّ بالشطة الحرّاقة مغطاة مكبوسة بجواليص الطين والخِرَق الجافّة ، قدور الحامض ، والعسل الأسود ، الزبدة المرشوش على سطحها قليل من الملح ، القدور سوداء ، مدوّرة البطون ، مصفوفة على الأرض ، تخايلنى بأوهام الليل ، وروائحها المختلطة والأشباح التى تتلبسها ، مخامِرة ولكن غير مهدِّدة ، وفى آخر الغرفة صندوق الهدوم الذى أضع فيه مع ملابس خالتىّ سارة ووديدة ، وأختىّ عايدة وهناء ، ملابسي القليلة : الجلابية

الأخرىٰ ، غيارين تلاتة ، والبدلة التى أروح بها المدرسة وأسافر بها ، جاكتة صوف إنجليزى والبنطلون الشورت البُنّي ، مع حبّات النفتالين .

القلق واستثارة الرقص والغناء ، وطقوس الصلاة ، والجِنّة ، لم تدع للنوم إلىّ سبيلاً سهلة ، مع أننى كنت نعسان جداً ، أحسست خالتي سارة إلى جانبى فى العتمة الليلية الملتبسة تتنفس بصعوبة ، لم تكن نائمة ، كنت أنا أيضاً غضبان لها . قلبي معها فى محنتها التى دارتها بل كتمتها بشجاعة وبراعة طول اليوم وليلته ، الآن أرتدّت عليها . لكنى كنت أيضاً فرحاً لخالتي وديدة التى ذهبت تنام مع جدي وجدتي فى الغرفة الكبيرة الثانية التى فيها صومعة الغلة الكبيرة العالية ، مسدودة سداً محكماً ، تُفتَح فيها ثغرة صغيرة لاستخراج مايكفي للطحين ، كل مرّة ، وتُسد ثانية ، بالطين المبلول القوىّ ، على الفور ، بعد أن تتسرسب الغلة .

بعد الغارات العنيفة التى تهدمت فيها البيّاصة وباب سِدْرة فى اسكندرية ــ التى اشتقت إليها الآن ــ جاءت إمرأة خالى إستر وأولادها ، وأخذوا هذه الغرفة ، وذهب جدّي وجدّتي وخالتي وديدة ، وخالتي سارة فى بعض الليالى ، ينامون على المصطبة ، فى الهواء الطلق .

كان خالي يونان يأتى كل يوم سبت يقضي ليلتين مع امرأته وأولاده ، ويسافر صباح الاثنين وراء أكل عيشه .

قبل الفطار صباح الأحد ، بدري ، تفتح خالتي إستر الباب الذى ظل مقفلاً عليهم جميعاً طول الليل ، وتقذف بطشت مليء بالماء والصابون على أرض الحوش ، أمام باب الغرفة ، تصنع بِرْكة صغيرة سرعان ماتنشف ، وتخرج على الفطار وجهها المدوّر يشعّ رضىٰ وجمالاً وبهجة ، وقميص نومها الساتان الأزرق اللامع الذى يكشف عن أعلىٰ ذراعيها ويفتح عميقاً عن صدرها المليء ، تضع عليه الشال الأحمر الداكن الخفيف المخرّم ، من باب

التحشّم على الصبح في حضرة جدي ساويريس ، ولكن ثنيات قميص النوم تترك خطوطاً لا تمحي في القماش اللامع ، تلفّ تحت البطن كامل الاستدارة .

وكنت بالليل ، من الغرفة المجاورة وعبر الحائط الطيني ، أسمع أصواتا ، تراودني في نصف حلم نصف يقظة ، مكتومة كأنها أنين أو حمحمة . وكانت حكاية ستّ الحسن والجمال التي سحرتها الغولة بقرةً حلوباً تئنّ بالليل وتطلب رَجُلها الذي يفكّ الرَّصَد ويفسد العمل ، تعمر ليلتي وتملأ خيالاتي .

أنظر إلى سقف الغرفة البعيد المعتم تتراوح عليه الظلال والظلمة .

عوارض الخشب التي تسنده سوداء قاتمة السواد من الناحيتين ، عندما تنزل تستقر على طرفيْ حائطيْ الغرفة : الحائط الخارجي للبيت كله الذي يلاصق بيت آبا أرساني ، والحائط الآخر الذي يطل على الحوش ، فيه شباك واحد ضيّق له ضلفة خشبية مسدودة واحدة ، تُغلَق من الداخل بترباس حديد صغير مدوّر وصدىء صعب الحركة .

وكان الشباك مواربا الآن ، الليلة حرّ ، أرى منه شقاً من سماء الليل ، ونجومها الكثيرة يقطعها سعف النخلة الواحدة السامقة التي قال جدي ساويرس إنه زرعها بنفسه وهو شابّ فتِيّ ، من خمسين سنة أو أكثر يمكن ، بعد هوجة عرابي بعشر سنين ، يمكن .

همست لي خالتي سارة : لسه صاحي يابْني ياضنايَ ؟ وأحسست ذراعها تمتد إليّ تحتضنني ، وكان بين ذراعيها أمان من القلق وهدهدة لاستثارتي ، وتأكيد لي . كانت جلابيتي مرفوعة على رجلي وأنا أنزلق إلى أول النوم ، نعومة ساقيها تعيدان إليّ نعومة العالم وطمأنينته ، لويزة بنت المعلم شنودة البقال أراها تعطيني حُقّ الدخان أبو غزالة لجدي ساويرس ، بعد أن كنت قد تهت في الليل أبحث عن الدُكان ولا أجده ، ورعب التّيه والفقدان

يوقف القلب ويخطف النَفَس ، عندئذ وجدتها فجأة ، فى عينيهامعابَثة ، وعمق الصبيّة الفلّاحة التى خرطها للتوّ خراط البنات ، و .. تعرف .. صدرها صغير جداً مازال ولكنه قائم وصلب ومخروطيّ تحت فستانها الملّون المشجر رقيق القماش هل تلبس شيئاً تحته ؟ نهداها النابتان مقتحمان ، وساقاها رفيعتان ولكن تبدوان مسحوبتين برشاقة من تحت الفستان ، وهى تطلع على الكرسي الخشب الواطيء ذي الأرجل الثلاثة السميكة الذى عمله خالي سوريال ، وتمد ذراعها لتأتي لى بعلبة الدخان من رفٍ علويّ ، ضحكتها مبحوحة إذ ترفع رأسها تلقيه إلى الوراء قليلاً بحركة دلّ بناتي ، فينزلق المنديل الأحمر المعقوص فى مؤخرة الرأس ، ويبين الشعر الأكرت البُنّي والضفيرتان المجموعتان معاً فى لفّة مكوّمة غير محكمة ، أعرف ــ أو يُهيأ لى ــ أنها عندما تفردهما تصلان إلى مافوق ردفيها الملمومين المضمومين إلى أحدهما الآخر ، هما ، بقلّة لحمهما نفسه ، مثيران .

الطرّانة فى ١٩٤٣/١١/٢٢ حضرة الأخ المحترم أبو أمين لا عدمته أقدم لحضرتكم وللست سوسن وللأستاذ والأنسات العزيزات سلامى وأشواق الكثيرة متمنيا دوام الصحة والرفاهية وبعد كنت بدمنهور من يوم الأربع وحضرت منها يوم السبت وتقابلت مع زوجتنا وديدة بمحطة ايتاى البارود وصلنا البلد سوياً بسلامة الله وبركة يسوع عرفتنا كريمتنا سعدية عن احتفالكم بها واكرامكم لها حال وجودها بطرفكم وانها قضت طول مدة إقامتها بالاسكندرية عندكم وكانت مبسوطة جداً وانى واثق فى شهامتكم فأنتم أهل لذلك وتجدنى شاكر لأفضالكم الكثيرة ومحبتكم الخالصة وشعوركم الرقيق ولاغرو أنه عندما كان الأستاذ نجلكم طرفنا فى الطرانة وعزبة داود كان مثالاً يحتزا فذاك الشبل من ذاياك الأسد ونسأل المولى سبحانه وتعالى أنه لا يحرمنا من مودتكم من هنا وديدة وسعدية بنتنا والست أم يونان والأنسة سارة وقبلنا جميعاً عمى ساويرس وجميع العائلة بخير ويهديكم أزكى السلام نرجو الافادة

عن الحالة عندكم وعن استمرار الغارات من عدمه ، وعن صحة الأستاذ ونجابته في دراسة الهندسة برعايتكم وذلك للاطمئنان أخيك المخلص فانوس أرسانيوس .

شهر واحد قبل أن يموت أبي في ديسمبر من تلك السنة .

سنتين ، أم ثلاثة ؟ ، بعد أن تركت الطرانة في آخر الصيف .

فحل الثور يخرجونه في مَيْعة الصبح من زريبة خالتي روزه وخالتي سالومة ، وضعوا له إكليلاً من عباد الشمس الأصفر حول رقبته الغليظة . حجازي زوج خضرة القصير المدموك يجر سَلَبته بقوة ، حتى إذا جاء تحت النبقة كانت بقرة الشيخ علوان مربوطة في وتد خشبي متين مدقوق بمسامير غليظة في جذور النبتة تتململ وتخور وتنوح ، تطلب العِشار وكأنها خائفة منه في الوقت نفسه ، عيال البلد اتلمّوا في حلقة واسعة ، الرجال فَزّوا فيهم الآن فسّخْ ياواد انت وهوه فسّخْ يابن هنّومة ، شوف ياخويا الواد مِتَنّحْ ازاى ، الفحل هبّ فجأة ولكنه لم ينجح ، سقط ودار بخطمه الذى يرشح بخيط متصل كثيف من السائل الأبيض ، وهجم وهو يجأر بعنف ، واستدار ، ولكن السلبة المفتولة في يد حجازي وأخيه عوض وقد ثبّتا أقدامهما بالأرض بكل ما في منّتهما من أيْدٍ وقوة ، أبقت الفحل في حدود دائرة لانفكاك منها يخبط قرنيه بالأرض ويرفعهما ، عاد وشبّ مرة أخرى واشتبك ، تجمد لحظة في ذروة الالتصاق والولوج غير المرئى تقريباً ، هبط صمت ملهوف على لمّة الرجال والعيال والنسوان اللاتى أخفين وجوههن وراء بيبان البيوت ، يتهانفن بضحك مكتوم ، ثم ارتفع التهليل مرة واحدة ، بالتكبير والهيصة والضجيج ، هيه .. هيه ... يه ، الله أكبر أهو كدة ياوَلَه .. فحل ابن فحل !

تململت وأنا نائم ، رائحة روث جاموستنا ، حارّة وخصيبة وبشرية تقريباً ، تهبّ عليّ من النافذة نصف المفتوحة .

القرد العاقل الحكيم يقف منتصباً على قمة كوم بوبيللو شاهقة الارتفاع ، وكأنه حاضر معي على الأرض ، أراه قريباً جداً بكل جسامته ، وإبتسامته الحكيمة وعقوده الفيروز ، يحدق إليّ بعينين فاهمتين وصارمتين ، أعرفهما ، هالة النور تدور حول رأسه ، شعره مسرح ناعم بالبريّانتين ، ينظر فى مرآة مكسورة ، أكاد أمدّ إليه يدى . متضرعاً شاكياً ؟ أم ممتنّاً ومشاركاً ؟ حلقة الأشعة الباهرة تدور تلمع تومض تتقلب فى دورانها حول الشعر الكثيف .

الشقافة السميكة خضراء الزجاج مرشوقة على سور السراية التى كأنها تنبثق من قلب بوبيللو أو تأوى فى داخله ، وكأن أشجارها الكثيرة قد اختلطت بحجارته ، مهدّدة ، طاردة . تتفتح فجأة خلف الكنيسة فجوةٌ أرى منها فناء فسيحاً ممتداً إلى بعيد داخل أكوام الأنقاض وتراب القرون ، أخشى أن أخطو إليه ، ولكنى لاأستطيع أن أحجز نفسى عن الدخول . القرد يمد فكّيه المطبقين إلّى ، أحس نفث أنفاسه الحارة على وجهي ، قريباً جداً ، ويقترب ، ويقترب ...

انتفضت نفضة واحدة .

يقظتي كانت صدمة حادة سورتها عالية خاطفة ، وقد انقذف لها جسمى كله للأمام . لم تحس بى خالتي سارة ولا أخواتى .

نزلت من على السرير ببطء وحرص ، خرجت إلى نور السماء الليلية عميقة الزرقة ، مثقوبة الجلد بإبرٍ مشعة لانهاية لها .

كان الحوش صامتاً ، دفء الجاموسة ، والفراخ والطيور الرابضة فى الزريبة المقفلة يُشعّ علىّ ، وأنا أذهب إلى الزير المرتكز على قاعدته الحديدية معوجة التدوير قليلاً ، تحتها طشت نظيف صغير ، يرشح إليه الماء النقيّ ،

نقطة نقطة ، تاك تاك تاك ، بلا صوت تقريباً وببطء شديد ، عبر نَوَى المشمش الذى يتخايل لى تحت الماء المصفّى خفيف الاهتزاز فى قاع الزير ، وأنا أدبّ الكوز ، أشر بنهم ، عطشي أُحس أنه لارِيّ له ، ولا يقين فيه ، حتّى .

(٩) ثمرة جافة

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ، ظهراً ،

مرّ الاكسبريس الطوّالي ، يدقدق على الفلنكات من بعيد ، وصفّر طويلاً ؛ خَبْطُ العجلات على القضبان له أصداء منتظمة فى أفق الحقول ،

عندما قال لى المعلم جورجي هل ممكن يعني لو سمحت يا أستاذ ، تمرّ على بيتنا ؛ آتى له بالمسبحة الكهرمان التى نساها تحت المخدة ، ستّ حِنينة تعرف مكانها .

كان بيت الست حنينة ـــ الذى يسكن الآن معها زوجها الجديد جورجى ، وباسيلى أخوه المشلول ـــ فى آخر البلد ، وحده ، بين جسر النيل العالى من ناحية ، وغيط الست حنينة الذى يفتح عليه باب البيت مباشرة من الناحية الأخرى .

الساقية القديمة المهجورة تقع قبل البيت ، بخطوات .

يعني كل الناس تعرف أنها مسكونة ، وأنهم ـــ كلامنا خفيف عليهم ـــ يخرجون للمارّة فى نصف الليل أو عزّ الظهر ، العابر خَليّ البال يجد أمامه فجأة حماره الذى تركه يرعى أمام البيت أو فى الحوش ، واقفاً أمامه ، بصمت واستكانة ، من غير لجام ولا بردعة ، كأنه ضل الطريق أو إنتهى به التجوال إلى هذه البقعة ، أمام الساقية بالضبط .

ويل له إذا ركب حماره ، المألوف الذى يعرفه حق المعرفة ، سيرتفع به الحمار فجأة ، بسرعة خاطفة إلى أعلىٰ ، إلى أعلىٰ ، إلى أعلىٰ ، سيقانه تطول تطول ، رأسه يضارع شواشي النخيل ، ينهق وكأنه يضحك ضحكة الضبع ، ثم ينفضه ويلقيه فى قاع الساقية ، لاقيام له بعدها . ولا مهرب له من على ظهر الجِنّي اللئيم إلا بأن يغرس الواحد مطواته باسم الأب والابن والروح القُدُس إله واحد أمين ، باسم الله الرحمن الرحيم وبقوة آية الكرسى أو عدّية يسن ، بين منكبى الجِنّى ـــ الحمار الشرير ، وأنت تقرأ أبانا الذى ، أو الفاتحة ، والا وجدك المارّة ، يعني وجدوا جثتك فى بئر الساقية ، ونحن جميعاً نعرف ، ولكن الحادثة تُقيّد فى محضر الحكومة قضاءً وقدراً . يعلل العمدة ذلك أمام معاون البوليس أو وكيل النيابة بالسقوط من جسر النيل العالي بالليل ، على خشبة الساقية الصلبة التي نشف عنها الماء من زمن بعيد ، يعنى ، يمكن ، فى الغالب والله أعلم .

عمى جورجي كان يعرف عنى تهوّري الصبيانيّ ـــ هل بقيتُ على هذا التهوّر ، حتى الآن ـــ أننى لا أتورّع عن تحدي الجن والعفاريت فى عزّ الظهر ، لاأخشىٰ المرور على الساقية القديمة ، أو التوغّل على الجسر الحجرى الداخل فى عرض النيل حيث تطلع عروس البحر ، حورية الماء ، بشعرها الأسود الغزير المنسدل على ظهرها العاري ، ثدياها القائمان يومضان ناصعين من وراء خيوط الشعر الحرير الكثيف ، تغوي الرجال ، تخطفهم إلى العمق فتضمّهم إلى أزواجها اللانهائيين على طول الزمن ، لايُعثر لهم على جُرّة ، إلى الأبد ، أو تظهر الجثة عند الكوبري فى إتياى البارود ، أو على شاطيء إحدىٰ الجزر النيلية ، منتفخة شائهة أكل منها السمك . فنعرف أنه خاب معها ، ولفظته .

كنا بالأمس جالسين تحت النبقة الكبيرة ، حلقة واسعة من الرجال ، جدى ساويرس ، آبا أرسانى ، خالى ناثان وخالى يونان معاً ، وعمي فانوس

وأخوه الصغير برسوم ، وأنا . كان معنا أيضاً حجازي زوج خضرة وعمّي ميلاد الذى يرعى زراعة جدي ساويرس .

خالي يونان يبدو نعسان مسترخياً ، جاء من الاسكندرية مساء الجمعة متأخراً وعلى وشّ الصبح سمعنا طَشّة الماء والصابون على أرض الحوش ، واختفت امرأة خالى إستر التى أحبها ، ولم تخرج من غرفتها إلا على الضحى العالي . حضر الخطوبة ، بالمرّة ووقّع على المحضر ، وبارك للعروسين ، وسوف يسافر غداً بعد الظهر إلى اسكندرية ، يجرى على قوته وقوت أولادة بالتاكسي الضخم القديم الذى يبدو لامعاً ، رافع الخطم عالياً ، كأنه لسّا خارج من الفابريكة .

وكنا نجلس كيفما اتفق لنا ، على الشيلت الموضوعة فوق الكراسى الواطئة ، من عمل خالي سوريال ؛ على المخدة الصلبة مرمية فوق جذع شجرة عريض مقطوع من زمان ، راسخ فى الأرض ، سطحه مسودّ ولامع ، من جلوس أجيالي عليه من عائلات الطرانة ؛ فوق حجارة كبيرة بيضاء ؛ فوق قطعة رخام منعمة الحواف عليها أثارة رسوم غائرة زائلة ، هل جاءت من بو بيللو ؟ أو جالسين على الأرض مباشرة ، هو فيه أخْيَر من جُودة الأرض ؟ دا الخلْج كلّتها كَيلة م التراب ولِلتراب ..

كان خالي يونان شامخا فى جلسته ، كِبْر ونُبْل مَحْضرَ معاً ، وسوف تخرج امرأة خالي إستر لتودّعه ، تسلّم عليه بيد طرية صغيرة ومكتنزة ، وهى تغضّ رأسها وتنظر إليه من تحت لتحت نظرة خاصة ، بعد ليلة أمس ، نظرة هل فيها تملُّكٌ وتَرَّجّ وامتنان ورضىً وتحذير وانتظار معاً ؟ وسوف تأخذه ستى أماليا إلى حضنها الجاف ـــ الذى حنانه يسع الأرض ـــ وتدعو له ، كما تدعو لي ؛ صحيح أن أعزّ الوِلْد هو ولد الولْد . ولكن فى دعوتها له حرارة أعمق وهجاً ، ربما ، فقد خرج الآن إلى حوزة إمرأة أخرى ، تتمتم يحميك لشبابك

ولولادك ومراتك ياخويا راضى عليك قلبى وبزّى وحجْرى يابن بطنى يايونان وأنا طاهرة وفاخرة ويسوع يقبل منى دُعاى بعدد شعر راسى وشعر بدنى بادعيلك يايونان يابن أماليا تكسب وتربح والمسيح يرعاك فى الروُحة والجايةّ ويجعل لك فى كل خطوة سلامة وهى ترشم على رأسه علامة الصليب بسرعة وخفّة وكأنما بخفاء، كأنما تخجل من حبها لابنها البكر .

رفع ميلاد الإبريق الضخم المُسْوَدّ من الهباب ، وهو يكتّ ، ويغلى ، من على النار المتراقصة فى الهواء متصاعدة بألسنتها مهتزة متراوحة القوة فى الكانون المرتجَل الذى صنعه فى الوسعاية جنب جذع النبقة العريقة .

وصبّ الشاى ، قاتماً ، ثقيلاً ، كُحْل ، فى كؤوس صغيرة مخنصرة الوسط رقيقة الزجاج من على صينية نحاس عريضة جاءت بها خضرة من عند خالتي روزه وخالتي سالومة ، ونزل السائل الكثيف فى الكؤوس وهو يرغى رغوة صغيرة وله صوت وشيش مليء .

كان طعمه مراً حاذقاً حريفاً جداً وعطراً له نكهة قابضة للّسان ، شربته مرةً واحدة حتى أطيق لذعته .

عمي فانوس يرفع رأسه الحليق فى طاقيته النظيفة المكوية ، فجأة ، إذ مرت من أمامنا خالتى سارة بسرعة ورشاقة ، بخطىً خجلة وجريئة معاً، ناحية بيت آبا آرساني ، وفى عينيه تلك النظرة الوامقة التى تعرف منذ الآن حرمانها المضروب وتسلّم به ـــ لكن لا تقبله ـــ تخضع له وتعنو ، لكن لا ترضىٰ به .

سمعت لغط البنات وضحكهن المكتوم فى خبايا البيت ، كانت أختى عايدة وهناء الصغيرة جوّه أيضاً .

كان عمي سلوانس الصرّاف يحكي لنا عن حكاية حدثت فى شبين

الكوم عن سائق تاكس بالنفر ، ممن يسافرون بين القرى والكفور ، قتل شقيقته الصغرى ليستولي على مصاغها . قال إن الجيران سمعوها تتوسل وتصرخ ، رأوها تسقط تبوس رِجْله ، لكنه شدها الى داخل البيت من شعرها وكتفيها ، ظنوا أنها مسألة عرض وشرف ، وإنه يغسل عاره ، فلم يتدخل أحد . حطم رأسها بالمانفيللا ، وباع المصاغ ، وسافر الاسكندرية ، وأنفق المبلغ على رفيقته الراقصة . قال إن البوليس عرف اسم الراقصة ، سعاد فهمى ، تشتغل فى كازينو بيا .

نزل عليّ صمت وحزن . كانت صورة الراقصة فى مجلة « الاثنين والدنيا » مثار أحلامى الشبقيّة ، فكأنها خانتنى .

ولما جاء الدور الثالث من الشاى ، حلو عسل وخفيف كأنه شربات ، أدركت فجأة أننى لم أنتبه حتى للدور الثانى الذى أخذته من يد عمي ميلاد . دور وِسْطانى ، نُصّ نُصّ فى كل حاجة ، فى الثقل وفى التحلية على السواء .

كان آبا آرسانى ينظر إلى حلقة الرجال بصرامة ومحبة ، رقيق الجلد أيضاً يكاد يكون شفافا ، لكنه صلب العظام ، وشْم الصليب الأخضر المورق على جانب جبهته يكاد يبهت الآن ، بعد كم سنة ؟ وجلابيته البيضاء المكويّة تشع نظافة وصحواً وبهاءً ، رفعها قليلاً عن تراب الأرض ، قدماه الناحلتان فى شبشب جلدىّ مغطّى ، الطاقية البيضاء المدورة قائمة الجدران ، من نفس قماش الجلابية طبعاً ، انزاحت قليلاً إلى الوراء — كان يبدو سعيداً وراضياً جداً ، آبا أرسانى عندئذ — ترى لماذا ؟ — وبان شعره الخشن الجعد ، أملحَ ورمادياً مازال عفياً ، قصيراً ومجزوزاً يعطيك حساً بفتوة باقية .

قال فجأة ، بين رشفة شاى مستمتعة وأخرى :

— ألاّ جُوللّى ياساويرس . هو انت ماعدتش بتزور وَهْبة وألاّ إيه ؟

أحسست مفاجأة السؤال على جدى ساويرس .

قال : يوه يارْسانى . ماكنت عنده فى مصر من كام شهر .

ـــ إزيّه دلوجتى ؟

كنت أعرف ـــ من غير تفاصيل كثيرة ـــ أن آبا وهبة ، أخ ساويرس ، فى السراية الصفرا ، فى العباسية ، من سنين .

وذلك كان عندى مكاناً له رهبة ، بل مخافة .

كنت أتصوره صرحاً منيفاً مطلياً بالأصفر الداكن ، مغلقاً بإحكام وله أعمدة وأجنحة شاخة ، وفيه ردهات فساح يتمشى فيها أناس لهم جلال وهيبة لا يتكلمون ولايجيبون على السؤال ، وفيه أيضاً حبوس موصدة بالحديد المشبّك وأناس فيها مكبّلون بالأصفاد يتخبطون ويصرخون بلا مجيب .

وكانت حكاية آبا وهبة وكأنها شيء محرّم ، فلا يأتى أحد بسيرته ، وحتى الآن ـــ وقد راحوا جميعاً ، منهم مَنْ آب إلى بوبيللو ، ومنهم من آوىٰ إلى تُرب الشاطبى أو المنيا أو ماجِرجس فى مصر القديمة ـــ لم أعرف قط ما حكاية آبا وهبة بالضبط ، لماذا أُودِع العباسية ؟ أكانت حكاية نزاع على أرض أو توزيع ميراث ، أو حكاية عشق وقتل قديمة ومحظور الكلام فيها ؟ هل ثَمّ عشيقة وُورِى بليلٍ جسمُها المُهان ـــ والمكرّس معاً ـــ الذى يحمل آية العشق ، دون قداس الجناز ، سُدَّت عليها تربة لا اسم عليها ولا صليب ، فى بوبيللو ؟

قالت لى أمي ، مرة ، بعد ذلك بسنوات إنها زارته فى السراية .

قالت إنه كان وديعاً وهادئاً ومشرق الوجه كأنه مازال فتىً فى العشرين ، أو كأنه بلا عمر ولا زمن ، قالت ، وإنه عرفها وسمّاها باسم

طفولتها ، ناداها : لبيبة دانت كبرتِ أُهُوه ، واتجوزتِ وخلفتِ يابتّ ساويرس ؟ ربنا يخليهُمْ ليكِ . وسأل : إزاى أبوك أرساني ؟ وأمك أماليا ؟ قالت كان كالقديس .

وقال لها :

ــ بتبكى ليه دلوجتى ؟ صعبت عليك نفسك .. دا العمر مافيهش غالي يالبيبة . جولى لهم فى البلد مش عايز زيارات . كلهم معايا ، لِيلْ نهار . وروّحى انت دلوجتى يا بنتى ، الله يباركِك .

ترقرقت عيناها بالدموع وهى تحكي .

مات آبا وهبة منسياً ، بعد أن شارف الثمانين أو جاوزها ، ولكنه دفُن فى بوبيللو ، كما يليق .

تكفل بذلك كله عمّي فانوس .

بعد أن شربنا الدور الثالث من الشاى ، تلفّت آبا أُرسانى ، عينه حادة وجارحة كالصقر مازال ، ونادى على أختي عايدة . كان يؤثرها بإعزازه ، يُفرِد لها مكاناً خاصاً جنبه فى مجلسه ، وفى قلبه ، هل لأنها كانت صغيرة الوجه ، سمراء جداً جعدة الشعر ؟ وقال لها ، تعالي هنا يابنتى ، يابنت الغالية .

كانت خجِلة أمام كل هؤلاء الرجال ، ولكنْ شُجاعة غير متهيّبة .

قال : إجْرِي لْنا شوية من ألف ليلة هو فين الكتاب يافانوس ؟

قام ابنه ــ مطيعاً ــ وجاء بالكتاب من جوّه البيت .

قال : احنا وَجّفْنا فين البارحة يابنتي ؟

قرأت لنا عايدة بصوت ناعم خافت لكنْ شديد الوضوح وواثق . ولأننى كنت أكاد أحفظ « ألف ليلة وليلة » عن ظهر قلب ، كما يقال ، عرفت أنها تجاوزت ، دون خجل ودون تردد ، تلك المقاطع التى تذكر الأشياء بأسمائها الصريحة ، كأنّ ذلك من باب اللياقة فقط ، كأنها لم تحس فى تلك المقاطع بذاءة أو تجاوزاً ، واستمرت فى القراءة .

مازلت حتى الآن ، بعد نصف قرن تماماً .. ياه .. افتقد لثغتها الخفيفة وصوتها الخاص ، ويهتز قلبى لفقدانها ، الأخت ، القرينة ، أنا الأخرى التى لاعوض عنها طبعاً فى أيّ أحد .

عادت خالتي سارة ومعها لنده ورحمة يمرقن من أمام الرجال ، عائداتٍ إلى بيت جدي ساويرس ، خافضات الرؤوس يرمقننا بأعين بريئة المكر . واحمرّ وجه عمي فانوس . كان سريعاً إلى التضرُّج وظل حتى الآخِرِ وخاصة عندما يشرب قليلاً ترتسم على عظمتىْ وجنتيه بقعةٌ محمرّة ومُنعِشة تحت جلد وجهه الرقيق المشدود ، تتسع حتى قرابة أنفه الأقنى الأشمّ .

وكانت رائحة الزَفَر ، مشبعة وعذبة ، تهبّ علينا مع دخان الكانون الكبير فى حوش بيتنا ، ستي أماليا تطبخ للعشاء ذَكَرين بط .

ليلة الأحد ، بقى .

خالي يونان جاء ، ومحتاج يرمّ عَظْمَه . رائحة دخان وَقِيد أعواد الذرة الجافّة وحطب القطن وورق الجرايد وخشب النبقة المكسّر الذى كنت قد خلعتُه ــ منذ أيام ــ بضربات الفأس من على أطراف فروع الشجرة العريقة بينما ستي أماليا تهتف بي من تحت : ياود بزياده ، حاسب ماتطلعش فوق . ولكنى كنت منتشياً بسُكْر المغامرة وجسمى يتأرجح على الأغصان العالية ، مهتزة رقيقة تنذر بالانفصال كل لحظة ، ضربات فأسي تنزع أطرافها الرقيقة

الصالحة للوقود ، رائحة نسغ الخشب الحيّ ولحمه الغضير ، مع الهواء الممتلىء بالخضرة من ورق الشجر متكاثفاً ومترقرقاً حواليّ ، فيها حلاوة هيّنة ، تزيد من خمر استهاتتي .

كم سكرت ، أنا ، قبل المذاق . بل صرعتني خمرك . فكيف بي غريقاً في سورة جسدك ؟

سُكْري مركَبٌ طاحت به اللُجج .

لا مرسىٰ لي .

حتى الآن .

حتى الآن .

كتب عمي فانوس لأبي رسالة عزاء رسمية قليلاً وحسب الأصول ، بعد أن مات غَنَّنْ — أخي إميل الصغير الذى لم أعرف لي أخاً غيره — بالتيفوئيد ، بعد عذاب طويل . كانت أختي عايدة قد ماتت قبله بشهرين ، بالمرض نفسه ، ونجوت أنا ، وأختي هناء .

وجدت الرسالة على ورق أصفرّ من الزمن ، به مربعات زرقاء باهتة . عزيزى أبو أمين ، أقدم لحضرتكم وللست والأنجال سلامى وأطيب تحياتى . وبعد حضرت لطرفنا الست أم يونان أمس بسلامة الله ولكن صحتها منحرفة وعلمنا منها بوفاة لجلكم أميل فتكدرنا جداً يعلم الله ولكنى واثق من أنك رجل عاقل وتعرف الله ومن يعرف المسيح يرتاح . نسأل للفقيد الرحمة ولكم الصبر والسلوان . وديدة زوجتنا تشاطركم الأحزان وتهديكم سلامها وتأسف لعدم حضورها نظراً لأن الست والدتنا موجودة بدمنهور من مدة شهر تقريباً . سارّة عيونها مريضة وربما تحضر لطرفكم قريباً . من هنا الجميع بخير ويهدونكم

أزكى السلام . أخوك فانوس أرسانيوس الطرانة فى ١٩٤٣/٨/١٧ .

أربعة شهور فقط قبل أن يموت أبى .

قلت : الله يرحمك ياخالي ناثان . عندما كتبت رسالتك للعزاء لم تلجأ ، أنت ، إلى إكليشيهات الصبر والسلوان والسلام والتماس الأعذار ، بل أوجعك الفقد ، وأوقعك مريضاً محشوش الوسط . كم كنت ـــ أنت ـــ خارّ القلب .

قلت : أجئت تحاسب الناس بعد أن ماتوا ، وشبعوا موتاً ؟

قلت : نعم .

كنت قد شُغلت عن ذلك كله .

فى ١٤ مايو ١٩٤٨ كنت موقناً أننى سوف يُقبض علىّ ، ليلتها .

وقرأت فى الأهرام أنه وجدت طفلة ضالة فى الشهر السابع من عمرها ملقاة فى دار محكمة الوايلي الشرعية . وعثر البوليس بطفل فى الثانية من عمره كان ضالاً بدائرة قسم الوايلى ، وبطفل اسمه محمد حسنين فى الخامسة من عمره بدائرة مصر القديمة ، وبطفل يبلغ الرابعة واسمه سيد محمدي بدائرة قسم شبرا .

أطفال ضالة .

وأن النيابة استأنفت الحكم الصادر من محكمة جنح الوايلي ببراءة عبد الرحيم راغب المتهم باحراز قنبلة ، وتحدد غداً لنظر الاستئناف .

عرفت من رحمة أن دلّالة طوّافة بالبلاد ، أصلها دمياطية ، سمعتْ خبر خطوبة عمى فانوس وخالتي وديدة ، فجاءت ، مخصوص ، من شبين الكوم ، ومعها جميع أصناف التطاريح الدمياطى المضمونة الصبغة ، والبراقع ،

والبرنجات ، والملسات الإدكاوى ، والطرح الكريب والكريشة الحرير ، بالمتر وبالوقّة ، حسب طلب الزبونة ، وعندها أيضاً أصناف الحراير والملايات ، المزوي والقطن ، والجبردين برامة الدمياطى . وأن خالتي وديدة فاصلتها حتى أهلكتها ـــ وهى الدلّالة بنت السوق .

واشترت منها ، بالرُخص ، مايلزم للجهاز .

كان جلالة الملك جالساً ، بكل تلك الفخامة الصبيانية التى تبرق وتضيء ، وجهه الشاب لامع ونضير ، فى العربة الملكية التى أقلته إلى دار البرلمان يوم الافتتاح ، مقفلة مزينة بتطاريز ذهبية ، وقد وقف خلف العربة اثنان من « الجروم » بالزىّ الخاص ، واقفين على حيلهم على العارضة المعدة خلف جسم العربة المدوّر الموصد ، علامة التاج المذهبة ملصقة بطرابيشهم الحمراء .

كان الطريق خالياً ، موحشاً ، تماماً .

حموة الظهر ساقطة علىّ بلا رحمة .

وأنا أمر جنب الساقية القديمة ، على وشك أن أدخل بيت الست جنينة ، أطلب منها السِبْحة الكهرمان من تحت مخدة المعلم جورجي .

نادتنى شجرة السنط ، شعرها المنسدل على صدرها العريان أشقر يضرب إلى البياض ، وبه زهور صفراء ، جسمها أملود يتمايل ، لدناً وغضاً وداعياً بقوةٍ لاتُردّ . هى سهلة أمامى ، متاحة ، مفتوحة الساقين .

ـــ تعالَ ، حبيبى ، لاتذهب إليها ، تعالَ إلىّ أنا ، بين ذراعىّ أسقيك الشهد المصفّى . تعالَ .. تعاااالَ ..

أنين ندائها يسري بالخدر فى دمائى .

أجد نفسي دون أن أعي سائراً إليها ، على حافة التردّي فى حضنها . وقفت فجأة ، فى آخر لحظة .

وجدت نفسي على حرف بئر الساقية ، يكاد يهوي بي .

ببطءٍ استرددت دمي من الأسْر ، من وقدة نار الظهر .

وبعنفٍ اندفعت نحو باب ست حنينة .

كان الباب مردوداً ، خبطت عليه برفق فانفتح من تلقائه .

العتمة الخفيفة الرحيمة اشتملتنى ، فى ظل أشجار الحوش ، الجميز والجوافة والنخل والنبق والمانجة .

عبرت آخر الحوش المظلل بتكعيبة عنب وارفة ، مريحة ، وعطرة برائحةٍ سكّرية ، متخمرة قليلاً جداً ، هبْوة من بَضّ العصارة المحبوسة التى تهمّ أن تتفجّر من تحت جلدها الغضّ . دارت برأسي تلك الرائحة .

ووجدت نفسى على عتبة الغرفة الكبيرة الوحيدة ، وقد وقعت فى قبضةٍ أشدّ أسراً وأكثف شمائل . فى عتمةٍ من نوع خاص ، مرئىّ ، كأنها نور خافت جداً ومُخايِل وشائع ، رأيتها ، مع عمى باسيلي . رأيته يزحف بمشقة ، يجر جسمه بقوةِ دَفْع خاصرتيه وكوعيه ، على أرض الغرفة المتربة .

رأيتها ترفعه عن الأرض ، ساقاه وذراعاه متدلية ، لاحياة فيها ، يرفع إليها رأسه المغضّن المشقّق المتطلّب ، كأن نور العذاب يتوقد من عينيه ، فى تلك العتمة النيّرة . وصوت مكتوم بين الأنين والحشرجة يندّ عن فم فاغر . أهذا هنين بكاءٍ جافّ ؟

كل قسمة فى الجسم المشلول فمٌ فاغر مفتوح تتقلّب فيه الشفتان ، يتلوّى اللسان العيِيّ فى كهف الفم . ولا صوت .

كل قسمة فى الجسم المضروب عينٌ تموت رغبةً فى النطق ، فى أن تقول شيئاً ، أن تصرخ ، تجأر . ولا صوت .

أيدٍ متقبّضة على لاشيء ، متشنّجة الأصابع ، ممدودة إلى أقصى الطاقة ، العظْم متوتر ، مشدود ، يطعن الهواء ويغوص فيه بلا مقاومة ، ولكن اليدين مرتخيتان ، بلا قوة على إنفاذِ الإرادة ، بلا صوت .

طلل الجسم الذى كان عفياً فتياً مازال يحتفظ بقناع القوة ، من الخارج فقط . استُنْفِذت منه كل مقدرة . لم تبق فيه إلّاحِجارٌ منقضّة دَفْعةُ إرادةٍ لا رادّ لها ، ولا سبيل — أى سبيل — إلى تحقيقها .

إرادته أن ينطلق ، ينطلق . لكنه أخرس . كل شيء فيه أخرس ، ماأشد صرخته الملويّة ، صامتة ، يطبق عليها أنين وزحير مهدود ، يطبق عليها الصمت .

رفعته حنينة من الأرض ، وضعته على السرير ، رأسه على المخدة الطويلة .

من وراء داير الدانتيللا — متناثرة عليه بقع دقيقة سوداء — رأيتها تطرح طرحتها على جنب ، وتُنزِل ثوبها الخارجيّ الأسود ، وثوبها الداخليّ الملوّن ، والقميص الساتان الأخضر الفزدقي ، من على صدرها . تخلّص عنقها من التقويرة وتنزع ذراعيها من الأكمام بحركة سريعة أدهشتنى دقتها وإحكامها . تتكوم الأثواب على وسطها . وتستقر فوق الردفين الهائلين .

كان الثديان العظيمان كرتيْن تملآن العالم ، لكن جمالهما وصباهما يخطفان النَفَس ، مشدودين ، الحلمة منتصبة وطويلة .

تُلقِمه ثديها .

لم أر إلا عينىْ ذئب هصور ، مكسور .
لم أكن أحس بنفسي ، كأننى مُستْرَق
أقول لنفسي الآن : لم أكن متلصصاً على مشهدٍ شبقىّ . بل مأخوذ ، كالعادة ، برؤيا كأنها نبوءة .

انضمت الشفتان الضاويتان ، ببطء ، وتلمُّس ، على الحلمة أولاً ثم انطبق الفم على الثدى الأبيض المتوتر ، الهائل ، الذى استقر الآن على الشارب الكثّ ، على الوجه المضروب ، خشن الجلد ، مغمض العينين ؛ شعر الوجه غيرِ الحليقِ شائك .

لم يكن ثديها يدرّ الشهوة بل لبنَ الحنان ، عزاءً عن فقدانٍ لا يُعوض .

لا عن شفقةٍ أو رثاء ، بل عن توكيد لأنوثتها ، ورجولته المحجوزة .

عن انتصارٍ للمرأة الأم العشيقة .

فِعْلُ الحب فِعْلُها ، ليس منه .

منها ، هى وحدها ، لكل المعطوبين ، لكل الساقطين .

المعلولين والمسحوقين .

المبتسّرين والشائهين .

أذلك إذلالٌ لكل الرجال ، انتقامٌ من كل الرجال ، من أبيها الذى لم يعرفه أحد ، زوجها الميّت ، ورجُلها الأعمىٰ المدفوع إلى حضنها بقوة سيف المَلاك البتّار .

رسوخ صخرة المرأة الناعمة تسدّ كل الثغرات ، وكل الثغور .

مرساة ثابتة فى لُجج الموج الفاسد المضطرب .

هأنذا أسمع السرّ يناديك .

كم أنفقت من روحي عليكِ ، فهل كسبتِ أنتِ شيئاً ؟

أما أنا فقد كسبتُ بكِ مالاغنىً لى عنه .

أهوي ، بمحبتي ، فى عتمة الشجن .

إدوار الخراط
الثلاثاء ١٣ توت ١٧٠٨
٢٤ سبتمبر ١٩٩١

صدر للمؤلف

قصص وروايات

(١) **حيطان عالية** : مجموعة قصص. ـــ القاهرة : الخراط، ١٩٥٩
ط ٢ (كاملة). ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٩٠

(٢) **ساعات الكبرياء** : مجموعة قصص. ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٧٢ .

(٣) ٣ ـــ **رامة والتنين** : رواية. ـــ طبعة محدودة. ـــ القاهرة : الخراط، ١٩٧٩ .
بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠
ط ٢. ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٩٢ .

(٤) **اختناقات العشق والصباح** : قصص. ـــ القاهرة : دار المستقبل العربي، ١٩٨٣ .

(٥) **الزمن الآخر** : رواية. ـــ القاهرة : دار شهدى، ١٩٨٥ .

(٦) **محطة السكة الحديد** : رواية. ـــ القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٥. ـــ (مختارات فصول) .

(٧) **ترابها زعفران** : نصوص اسكندرانية. ـــ القاهرة : دار المستقبل العربي، ١٩٨٦ .
ط ٢. ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٩١ .

(٨) **أضلاع الصحراء** : رواية. ـــ القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧ .
ط ٢. ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٩١ .

(٩) **يابنات اسكندرية** : رواية. ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٩٠ .
ط ٢. ـــ دار إلياس العصرية، ١٩٩١ .

(١٠) **مخلوقات الأشواق الطائرة** : رواية. ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٩٠ .
ط ٢. ـــ القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢

(١١) **أمواج الليالى** : متتالية قصصية. ـــ القاهرة : دار شرقيات، ١٩٩١ .

(١٢) **حجارة بوبيللو** : رواية. ـــ القاهرة : دار شرقيات، ١٩٩٣ .

دراسات

(١) **مختارات من القصة القصيرة فى السبعينات** : مع دراسة. ـــ القاهرة : مطبوعات

القاهرة، ١٩٨٢ .

(٢) **عدلي رزق الله** : مائيات ٨٦ : دراسة. ـــ القاهرة : عدلي رزق الله، ١٩٨٦ .

(٣) **مائيات صغيرة** : دراسة. ـــ القاهرة، ١٩٨٩

(٤) **أحمد مرسي** : دراسة ومختارات شعرية. ـــ القاهرة، ١٩٩٠

كتب مترجمة

(١) **الخطاب المفقود** : مسرحية / ا . ل . كارجيالي. ـــ القاهرة : الدار المصرية للكتاب، ١٩٥٨ .

(٢) **الحرب والسلام** / ليو تولستوى. ـــ القاهرة : الدار المصرية للكتاب، ١٩٥٨ .

(٣) **الغجرية والفارس** : قصص رومانية. ـــ القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٨ .

(٤) **شهر العسل المر** : قصص ايطالية. ـــ القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٥٩ . ـــ (كتب ثقافية) .

(٥) **فارالاكو** : رواية غينية / اميل سيسيه. ـــ القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٢ . ـــ (الألف كتاب) .

(٦) **الهمجون** : مسرحية / جان آنوى ؛ ادوار الخراط، الفريد فرج. ـــ القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٣ . ـــ (الألف كتاب) .

(٧) **مشروع الحياة** : دراسة / فرانسيس جانسون. ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٦٧ .

(٨) **ميديا** : مسرحية / جان آنوى. ـــ القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٨ . ـــ (مجلة المسرح) .

(٩) **الوجه الآخر لأمريكا** : دراسة / ميكائيل هارنجتون. ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٦٨ .

(١٠) **تشريح جثة الاستعمار** : دراسة / جي دي بوشير. ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٦٨ .

(١١) **الشوارع العارية** : رواية / فاسكو براتوليني. ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٦٩ .
ط ٢ . ـــ القاهرة : دار الياس العصرية، ١٩٩١ .

(١٢) **نحو التحرر** : دراسة / هربرت ماركوز. ـــ بيروت : دار الآداب، ١٩٧٢ .

(١٣) **حوريات البحر** : قصص أمريكية. ـــ القاهرة : دار الهلال، ١٩٧٩ .

(١٤) **الاسلام والاستعمار** : دراسة / رودلف بيترز. ـــ القاهرة : دار شهدى، ١٩٨٥ .

ويصدر قريبا للمؤلف عن دار شرقيات دراسة بعنوان « الكتابة عبر النوعية »

شرقيات

أمواج الليالى / متتالية قصصية / إدوار الخراط

اللجنة / رواية / صنع الله إبراهيم

الديوان الأخير / قصص + مسرحية / عبد الحكيم قاسم

وردية ليل / رواية / إبراهيم أصلان

رائحة البرتقال / رواية / محمود الورداني

وكالة عطية / رواية / خيري شلبي

صدر حديثاً

من أوراق الرفض والقبول / نقد أدبي / فاروق عبد القادر

مسرح الشعب / نقد مسرحي / د . علي الراعي

بعد أن يبدأ الإضراب / نقد سياسي / فريدة النقاش

حجارة بوبيللو / رواية / إدوار الخراط

السرائر / قصص / منتصر القفاش

فقه اللذة / شعر / حلمي سالم

فاصلة إيقاعات النمل / شعر / محمد عفيفي مطر

لا أنيل إلا النيل / شعر / حسن طلب

ناجى العلي في القاهرة / كاريكاتير / ناجي العلي

عن موقع روحى متجسّد ومتفرد

ليست هذه الرواية تقليدية ، مع أنها تروى حكايات شائقة ومثيرة . تخترقها شطحات شعرية وتومض فيها بروق تسطع أحياناً على ساحات ما تحت الوعى .

وعلى الرغم من أنها تبدو محددة بحقبة الأربعينات إلا أنها تتجاوز هذا البعد ، وتضرب بسهم فى البحر اللا زمنى .

عرف ادوار الخراط هذا الموقع الأثرى « بوبيللو » وارتبط به وجدانياً عندما كان يعيش فى « الطرانة » قرية جدته ، فى البحيرة، منذ خمسين عاماً .

تدور أحداث هذه الرواية الداخلية والخارجية على مسارح الروح المحلقة ، فى اشتعالات الشبق العارمة ، وعلى أرض الواقع الصلب التاريخى والمعاصر ، فى وقتٍ معاً .

شخصيات الرواية تحمل عدة مستويات منها الواقعىّ الأرضىّ ــ تحت ضوءٍ خاص وجديد ــ ومنها الميتافيزيقىّ الفانتازىّ .

دار شرقيات للنشر والتوزيع

رواية

إدوار الخرّاط

جارة بوبيللو

Bibliotheca Alexandrina
00503382

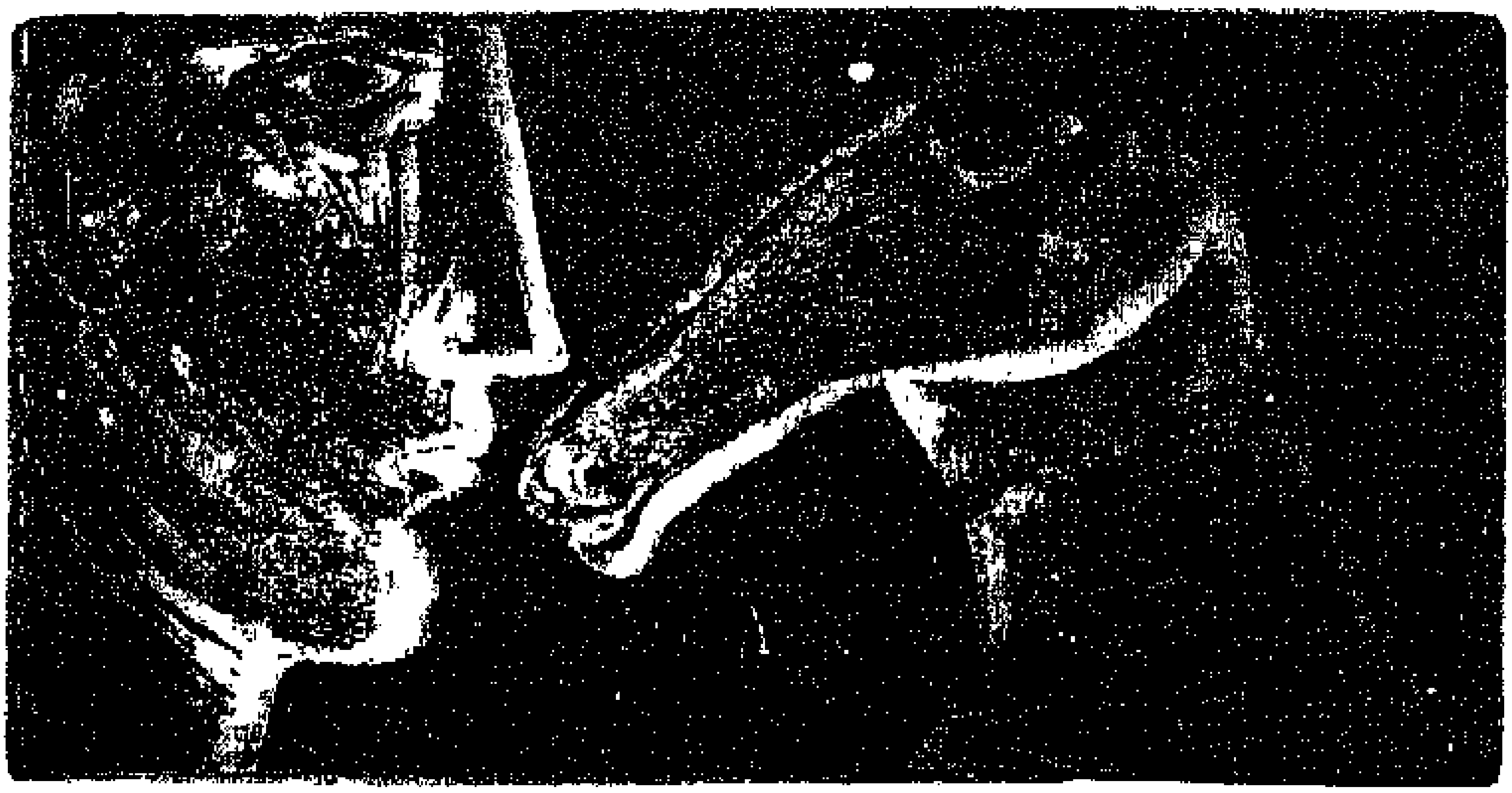

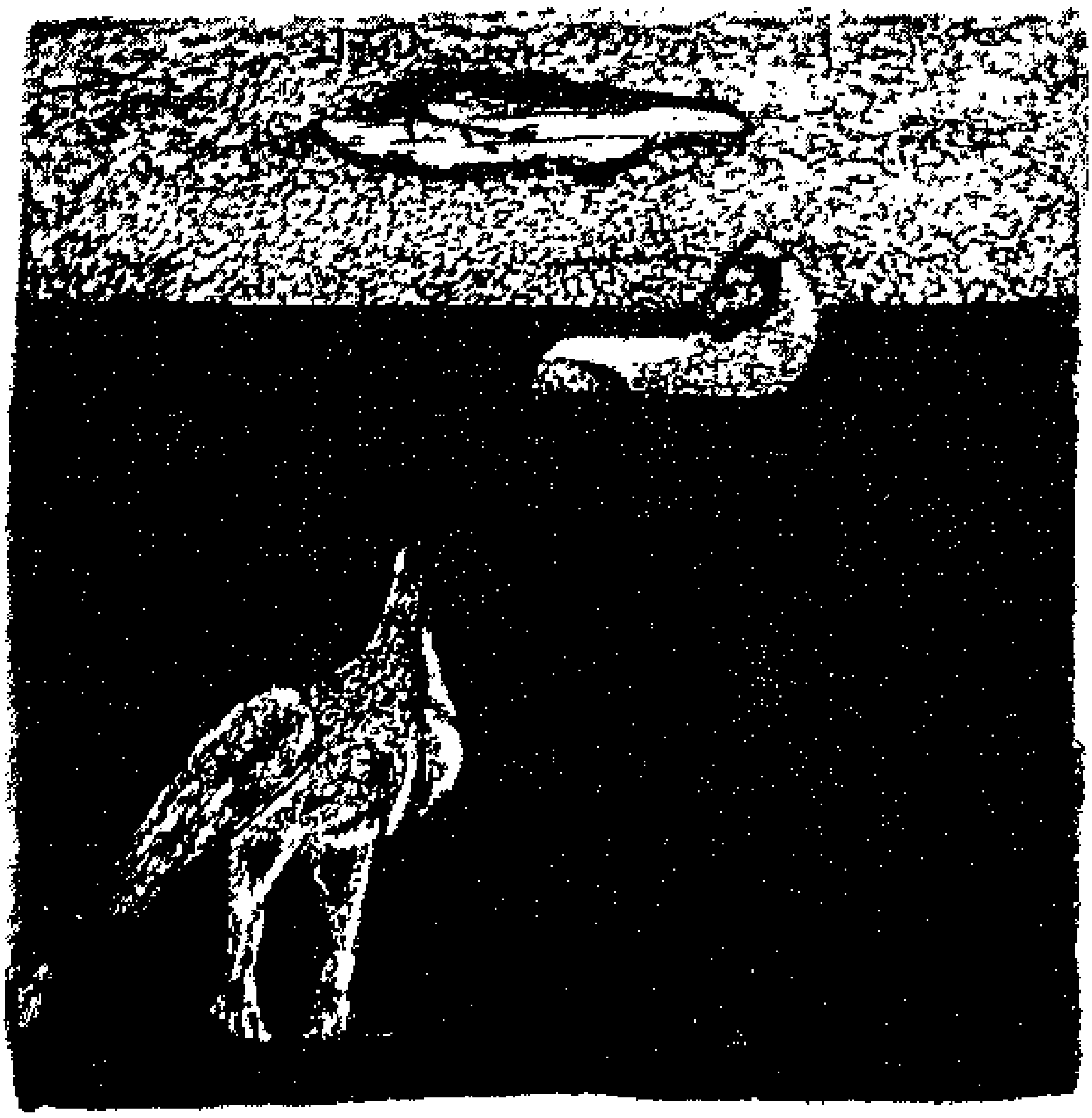

لا يدرى المُحبّ فيمن حبه
لا يتعيّن له محبوب

الإمام الشعراني
« الأنوار القدسية »

« بوبيللو » كوم أثرىّ تعرف به تُرَب الأقباط فى قرية « الطرانة » Tarenuthis التى تقع إلى شمال « الخطاطبة » ، مديرية البحيرة ، مركز كفر داود .

وهى فى موقع معمور منذ عصور ماقبل التاريخ ، كانت فى العصور القديمة مركزاً لتجارة القوافل بين دلتا النيل والصحراء الليبية .

اشتهرت بملح النطرون الثمين ، فى العصور الفرعونية وكانت مقراً لعبادة إيزيس .

اكتشفَ فيها نحو ٦٠٠ مقبرةٌ أثرية وعُثِر فيها على ٥٠ هيكلاً عظمياً مصابة كلها بضربات البَلَط والسهام .

فى العصور اليونانية ـ الرومانية أصبحت حامية عسكرية ومقراً لعبادة الإله أبوللو (بوبيللو) ، إله الموسيقى ، والنور ، والمعرفة .

(١) المعدية

يالى ظلمت الوداد
ورضيت بنار البعاد
أفديك بروحى

صوت الشيخ العفىّ شجِىٌّ وبليغ وعميق النبرة .

نحن فى المعدية الحديديّة مسطّحة الجوف التى تنزلق على الرّيّاح البِحيري بانسيابٍ هادىء ؛ رائحة الماء فى هذا الصبح العالى نفاذة ، نباتية .

فى طريقنا من الطرّانة إلى الغيط الغربى ، وراء « بوبيللو » بين حافتىْ الصحراء والخضرة الغنيّة .

أبوللو المغنّواتى .. المخلّص ، لاعب الليرا القديم ، أيستطيع ـــ وقد أصبح الآن بوبيللو ، فلاحيًا بِحِيريًا ، عَبَرت به مياه آلاف السنين فى ترعها العكِرة حاملةً طيناً وطمياً وطفاوة الطغيان ـــ أن يدرأ عنى الطواعين والعَظَايا والخَطَايا السرية ؟

نور الصبح خيِّراً ومدمِّراً معا ، هل يدحر مابقى من ليلةٍ لا تبرح ، ظلالَ توجُّعِ الجسم الفتى المسحوق فى شهواته غير المنقضية ؟

معنا ، فى المعدية ، جدى ساويرس ، خالتى وديدة وخالتى سارة ،

عمي فانوس ، الذى كان يموت فى خالتى سارة حُباً ، ولكنه تزوج خالتى وديدة ، والولد برسوم الذى من سِنّى .

كان معنا أيضا أبونا أندراوس ، عمى جورجى عرّيف الكنيسة الأعمى ، وخَضْرة الفلّاحة ، وحميدة البَرْصا .

ولكن كان معنا ، أولاً وأخيراً ، لِنده ورحمة ، حوريّتين مونِقتين ، بؤرة الجماعة وبهجتها ، تنظران بإعجابٍ يوشك أن يكون عشقاً صريحاً لأبيهما وهو يغنّى ، صوته الحنون القوىّ يتهدّج مع رقرقة الماء فى الرَيَّاح .

أُحبهما معا ، لنده ورحمة ، وتسحرنى مفاتن خَضْرة ، وأُنثويتّها الفاضحة .

فى داخل هذا المثلث النسوىّ ، كنت .

عمّي سلوانس كان صرّافاً ، دورته فى المنوفية ، وينام فى استراحات المالية بعد أن يجمع الضرائب من الفلاحين وأصحاب الأرض يلفّ عليهم ممتطيا حماره المُطهَّم الفخم ، وله مهابة ، لأن نقاءه الخُلقي لا تشوبه نقطة سواد واحدة ، وحذقه فى الكتابة والحسابة لا يبارىٰ ، وله مكتب فى مصلحة الرسوم المقررة فى شبين الكوم . الآن كان متبّسطا وحزينا ، وفى غنائه شجَن وفتوة . كان يُلمّ بالطرانة بين الحين والحين ، لم أكد أراه إلا لماما ، زوجته ماتت من سبع سنين ، فترك البلد كأنه يعاقب نفسه على خطيئةٍ لم يقترفها ؛ أم أنه لم يقترفها ؟ وترك البنتين فى رعاية أُختيه خالتِي روزه وخالِتى سالومة ، وخَضْرة التى كانت تخدمهن جميعاً تعيش معهن ومع الجواميس والبقر وفَحْل الثور تحملهم ، جميعا ، على كفوف الراحة ، فى البيت القديم العالي .

قويٌّ الوجه ، قمحىٌّ داكن ، عيناه نفّاذتان وغائرتان تحت محجريهما ، وخضراوان . يدان صغيرتان ، واضحٌ أنهما مدربّتان ، ورقيقتان بشكلٍ غريب وكأن لهما قدرة على تهدئة صخب المياه فى الريَّاح . جلابيّته الجوخ الغالية

تضرب إلى لونٍ طحلبيّ قاتم ، ورصين ، وتنسدل على هيكل جسمه المتين العَضِل ، وهو جالس بارتياح على دكّة المركب الجانبية . يغنّي ، ممتلىء القلب .

كان له ابن أخت يدرس فى المعهد الزراعي فى شبين الكوم ـــ هل كان عمي سلوانس ينام عندهم ؟ ـــ ويأتي للطرانة فى المسامحة الصيفية ، كما كنا نأتي من اسكندرية ، لكنه كان أكبر مني بعدة سنين ، والغريب أنه أشقرانى أبيضانى جسيم وطُوال ، له حضورٌ وجاذبية ، جلابيّته دائماً ناصعة زيّ الفُلّ وجزمته الأستيك دائما لامعة السواد ، كنت أغِير منه ، كان المفهوم والمقرر ضمنا أنه سيتزوج رحْمة بعد أن يأخذ الدَبْلون .

يصدر عن المعديّة صوتُ صريرِ السلسلة التى تصل بين ضفّتىْ الرَيّاح ، يجذبها المعدّاوي ، أُواصرها مصلوبة تصلصل بصوت خَلفيّ وراء الدندنة الغائبة عنا ، وعن نفسها :

جَنَتْ عليك الليالى
وطال عليَّ الأنين
والماضي يخطر ببالي
يخلّي قلبى حزين

أما من الناحية الأخرىٰ ، فالسلسلة الحديدية الصدئة مرتخية ، حلقاتها المحمرّة غارقة ، من المنتصف ، فى المياه المتقلبة بطمي الفيضان المُدوِّم ، تتحرك مع حركة المعدية البطيئة الناعمة فى عبورها الذى يجلب إلينا نسمة مائية حلوة تتفتّح لها صدورنا ، مُرحِّبة ، فى حَرّ أوائل سبتمبر .

مررنا ـــ ونمر بلا انقضاء ـــ بالكوم العالى صلب الجسم ، على حرف الرَيّاح . تراب القرون الناعم وأنقاض المشهد الإلهي والأرض الوعرة الخشنة تلمع بالنشع الملحىّ وفيها شعث من الحلفاء الشائكة التى تجرح العين ، تحرس

تُرَب الأقباط ، أنقاض الصبَوات القديمة لم يبق منها إلا شقافه الزجاج الأخضر السميك ، غير جارح ، وشظايا الخزف اللامع عليه النقوش من الأوميجا إلى الابسيلون وعواء الذئاب المهزومة بسهامِ جالبِ الطواعين وقاهرها ، حامى الفانين وشافيهم . مَنْ لي بأن أعرف نواياك القدسيّة أو القاتلة ؟ عمى سلوانس الوريث الذى لم يُعقِب ولداً ، أين الخورس الذى له أن يصاحبك فى عبورك غير المنتهى ؟

أحدّق إلى رحمة . لا أستطيع أن أحوِّل عنها عينىّ ، حتى مع رقابة أبيها الفاهمة ، ونظرة جدى ساويرس الصارمة ، صقراً جارحاً وحانياً لم أنسَ — ولا أنسىٰ — صفعته الأولىٰ والأخيرة على وجهى منذ أسابيع ، إذ ضبطنى متلبسا ، أجري وراء لنده فى الزقاق السدّ الضيق بين بيتنا وبيت عمى أرسانيوس ، فى سَوْرة الاستغمّايّة المرتجلَة فى عِزّ الظهر ، فإذا بى أصطدم بها عن نصف قصد ، وأحس — لحظة واحدة — بطنها المتماسك النابض تحت انتصابى وهى تنهج ، ثم تفلت من بين ذراعىّ مضرّجة الوجه عارفة العينين مبتسمة كأنما بالرغم منها .

لكن رحمة هى التى أحدِّق إليها الآن مسحورا .

كانت أصغر منى جسما — حتىٰ — وأنحف عودا .

رقيقة ، وجهها طويل خفيف السمرة مسحوب ، ليس فيه دوران اللحم بل نعومةٌ منسابة . هل هى غريقةٌ رحمة فى أمواج حبى البائد الباقى أمواج الليالي ، هذا الوجه المنحوت الشمعيّ ، شاخصَ النظرة ، يرودنى فى مياه الأحلام الملحيّة ، ألم يكن وجه غريقةٍ أخرىٰ فى بحيرة زيوريخ ؟ أم هى غريقة قادمة لا أعرف ، بعد ، غَرَقَها ؟ قلت : الغرق شهادة . أم هو وجه شاعرٍ أحببته وضرب نفسه بالرصاص ، من الحب ، ومات سُدىٰ ، مَنْ يعود يذكره ؟ وكانت غائرة العينين قليلاً ، ونحيلة وصَموتا . على عكس أختها الصغرىٰ البضّة المدوّرة الحنايا ؛ كانت أميل إلى لبس الثياب الطويلة الصاحية داكنة الألوان ، على عكس أختها التى تحب لبس المشجّر ، الملوّن ، حواشي

فساتينها مكشكشة ، طويلة صحيح فلا مفر من ذلك ، ولكن واسعة قليلاً من تحت ، مما يعطيها انفساحاً وانكشافاً إلى حدٍ ما .

تكشفت له ظلمة الغيطان ، حيث تكمن الهداهد ، رسل الملك سليمان ، والأشباح . وبدت له السواقي ملفّعة بالظلال ، جاثمة ، مَرَدة تستريح ، ردّد الأفق هديرَ ساقية تدور ، والمياه ترتفع ، وتتساقط ، ومصر تتنفس ، وتعمل فى الليل كما تعمل فى النهار ، مثل شاعرٍ يصوغ أبداً قصيدةً أزلية من أحزان قلبه الهادئة .

سألتُ ستى أماليا عن حكاية رحمة وابن خالتها أسعد ، فقالت لى :

ــ وانت بتسأل ليه ياواد ؟ قال ياداخل بين البصلة وقشرتها ... آه ياناري من ولادِ آخرْ زمن ، دى البتّ مولودة قبل منّك بأربع سنين يابن سوسن . ياميَّه من تحت تِبنْ ، ساهي وتحته دواهي صحيح . ياخْواتي !

أتجنب النظر إلى خضْرة ، متربعة ــ جنب حميدة البَرْصَا ــ على أرض المعدية الحديدية الرطبة ــ لا يصح طبعاً أن تجلس على الدكة الخشبية مثل أسيادها ، هل هذا يصح ؟ ــ ذراعها على القُفّة الكبيرة المغطاة بخرقة نظيفة مغسولة جيداً ، باهتة التلوين ــ ربما كانت فستاناً من فساتين لنده القديمة ؟ ــ وتحت جلابيتها السوداء نصف الشفافة تبدو جلابية أخرىٰ بأزهار حمراء صغيرة وكثيرة ــ هل هى أيضاً من فساتين لنده ؟ ــ وطَرْحتها الشفافة السوداء تنسدل على ظهرها حتى أرض المعدية .

تُخفي بيدها الممسكة بطرف الطرحة نصفَ وجهها الأسمر الصابح . كان فخذاها المدوّرتان الملفوفتان قد ارتفعتا إلى أعلىٰ قليلاً ، فى تربّعها على الأرض المنداة قليلاً ، تحتنا .

أدخلتْ ساقيها وطوتهما تحتها فبانت لوركيها استدارةٌ وبضاضة خاصة ، حتى من تحت الجلاليب التى التفّتْ عليهما بإحكامٍ ووثاقة فى هذه الجلسة التى

ليس فيها أدنىٰ نيّة واعية للإثارة ، ولكنها ــ لذلك ــ مثيرة جداً . لا أريد أن أنظر إليها ، لكنى لا أستطيع أن أنساها .

هأنذَىْ أعبر من ضفّةٍ إلى أخرىٰ ، دائما ، بلا بدء ولا انتهاء ، وعلىٰ فمى قرص المليم الأحمر البرونزيّ الكبير ، يغلقه ، أجرة المعَدّاوي .

المعدّاوي خشن الوجه ، أخرس ، لا غَمْضَ لعينيه ، له مأوىٰ خفيّ على الضفة الأخرىٰ .

أسعىٰ دائباً إلى قاتِل التنّين ، أحمل عنه كَفّارةَ خطيئة ، فى منفىٰ مقيم ، فى أرض الثلج الشمالية ، أقصىٰ أقاصي المعمورة ومعه وعلى رغم كل نسوان الشّبَق والثّمَل والشهوة أريد النظامَ والعقل والعدل والموسيقىٰ .

لن أصل قط ، لن أدفع الأجرة ؛ دائماً بين شطّيْن .
أعرف هذا ، ألا أعرفه ؟
فى داخل هذا المثلث النسوي كانت الأغنية تهزّ قلبى الطازج الغرير .

أما فى الطرّانة فقد صنعتُ ، على يدى ، من صبغةِ هدوم وجدتها ، مسحوقاً ناعما ، فى بيت ستى أماليا ، حبراً أحمرَ فاتح اللون .

وعلى ورقٍ نصف شفّاف رماديّ قليلاً ــ كان الورق عزيزاً علىّ وصعب المنال فى ثاني سنوات الحرب ، ومازلت حتى الآن أكنز الورق الأبيض والمسطرّ كما يكنز الجوعان أرغفةَ خبزٍ لن يأكلها قط ــ وبالريشة الخشبية السوداء أمّ سنّ نحاسيّ رفيع ، وبلُغةِ الصبا وبسذاجةٍ لا اعتذار عنها ، ولا بُرء منها ، كنت أكتب على الطبلية ، متربعاً على الشلته .

قبل أن نخرج من الطرّانة مباشرة ، ونحن نستعد لركوب الحمير حتى نقطة المعدية فى الريّاح ، وصل البوسطجى ــ عريان أفندى ــ إلى الساحة

الصغيرة أمام بيت جدى ساويرس ، تحت الجميزة الضخمة .

منديله المحلاّوي ، مربّع التشكيلات الزُرقِ الباهتة ، غيرُ نظيف تماما ومندّىً الحوافّ من العرق تحت طربوشه .

نَشِطٌ وعفيٌّ مع أنه ناحلٌ ضاوٍ فى رُفْع الإبرة ، صفّق بيديه قبل أن ينزل تماماً من على حماره الميري الأبيض العالى ، وهو يهتف :

— عمى ساويرس . بوسطا ..ااه ! ياصباح الخير على أصحاب الكرم والخير .. يابتّ ياخضره إدينى شوية اللوميّة أُمّال يابتّ . أبِل ريقى يابتّ .. !

وهو ينظر إليْها نظرة شَبَقٍ صريح ، ويسلمها البوسطة .

لم يكن فى البريد الا الأهرام — اشتراك — يجيئنا كل يوم بالمستعجلة التى تصل إلى محطة كفر داود ومكتب بريدها فى تمام الساعة الثانية عشرة ، ومجلة « الاثنين والدنيا » ، تصل منها نسخة يرسلها أبى من اسكندرية ، كلّ حِينْ ومِينْ ، حسب التساهيل .

ومنها استأثر بى ، من وسط أشياء ساحرة كثيرة ، مجهولة ، أنّ ملكة الاستعراض المسرحى بديعة مصابني تقدم من يوم السبت ٣٠ نوفمبر ١٩٤٠ فى كازينو أوبرا بميدان إبراهيم تليفون ٤٤٨١٤ الاستعراض الموسيقى الثاني : « ساعتين حظّ » ٧ مناظر حافلة بالمفاجآت المبتكرة تأليف الأستاذ الروائيّ المعروف أبو السعود الأبياري وتلحين الموسيقار المجدد الأستاذ فريد غصن وميزانسين الرقص للبروفسور إيزاك ديكسون ويشترك فى التمثيل الراقصة العالمية تحية كاريوكا والمنولوجست المحبوب إسماعيل ياسين مَطْعم من الدرجة الأولى بار أمريكانى موزيكهول .

فى تراب الطرانة وجفائها وخضرتها الخام كان ذلك مغويا .

لم أكن أعرف بالضبط الموزيكهول .

لماذا تصورته إذنّ بساحة فسيحة خاوية تقريباً ، مبلّطة ببلاطٍ صقيل ،

وفيه بيانو عريض جداً على منصة عالية جداً ، وراقصات مثل اللاتي فتنتْني صورُهن فى المجلات ــ لم أكن قد رأيتهن فى السينما بعد ــ مثل التى أثارتنى ، وتجسدت لى ، وساورتنى بها لذّات الصبا الأولى ، وهاجمنى بها القذف البرىء شبْه الطفولىّ ، فى العدد ٢١١ من مجلة « الاثنين » نفسها ، قبل الحرب بقليل ، بِسنَتين ، يمْكن ؟ اسمها سعاد فهمي بفرقة ببا بكازينو مونت كارلو ، ومع أننى اسكندراني فلم أكن قد عرفت مِن هذا الكازينو إلا لافتة على الكورنيش عندما مررت به ، ويدي فى يد أمى ، فى طريقنا إلى حمّام السبّات ، فى الشاطبي ، يوم الأربعاء .

النار تدور فى عينيه الذابلتين ، والكلمات ترتعش على شفتيه الجافتّين ، لكنه لم يلقِ عليها نظرة ، وسار فى بطء ، ثم أزاح الستار عن نافذةِ شرفته التى احتضنتها أفنانُ الكرمة المتدلية كما تحتضن أمٌّ محزونةٌ طفلتّها الحبيبة إلى قلبها ، وعطّرتها أنفاسُ الأزاهر البيضاء ، وألهبها الأرَجُ الدافىء المثقل المتساقط من شجرة التوت العملاقة ، كأن هذا الدفء يسود ضريحاً تتوقد فيه شموع .

سعاد فهمى تلتفّ بفستانٍ مفتوحٍ من تحت الإبطين فتحته واسعة ، يبدو منها جانبٌ من ثديها الرشيق ، وتنزل الفتحة حتى منتصف خصرها . ويدور نسيج الفستان المنسدل ملتصقا بخصرها وبطنها وفخذيها ، سابغاً حتى ساقيها ، مشقوقاً من جانبه ، حتى يصل إلى الأرض فى طيّات مَوْجيّه ، والحزام القماش المضفور ، لامعا ، وهي تمسك بطرفٍ منه ، يحصر خصرها ، وثيقاً محكما على أعلى البطن ، تحجزه بإصبعها الإبهام بينما تفرد يدها على بطنها ، مصبوغة أظافرها بظلٍ قاتم ، كانت الصورة بالروتوغرافور الذى تستخدمه دار الهلال ، بين الرماديّ والرصاصيّ الذى به نغمةُ الأزرق الشاحب ، وكانت ترفع ذراعها العارية من فوق نهديها الصغيرين ، وعيناها فيهما نظرة غواية مستميتة ، شعرها وحف ثقيل يسقط على جبهتها الضيقة فى نصف دائرة أثيثة التكوين وينسدل حتى كتفيها العاريتين .

لم أصنع غراماً قط ــ فى حقيقة الأمر ــ الا مع خيالات جَسَدانيّة . حتى فى عِز التجسّد والأرضيّة كُنّ تخييلات .

أما صواعق الحب والعشق التى انقضّتْ عليَّ ــ كما يُقال ــ فقد ضربتنى ثلاثا . لم أكن أملك لها ردّا ، وارتجفتْ الحراشيفُ المهلِكة ، وصلصلت دروعُ الحيّة العظيمة التنّين ، بلا جدوىٰ .

لم أكن قد ذهبت إلى مصر ــ القاهرة الا مرة واحدة أذكرها ، من سنين ، وكنت صغيراً جدا ، زُرنا المعرض الصناعي الزراعي ، يمكن من ثماني سنين ، يعنى سنة ١٩٣٢ ؟ وذهبنا إلى بيت قريبنا الكمساري جنْب خط السكة الحديد ، تحت مطرٍ أحال الحارة الضيقة إلى ممرٍ مُوحل مستحيل ، وبيّتنا عند عمتى ديماريس فى شبرا واستيقظتُ يومها فى الفجر على صوتِ أذانٍ لم يطرق مسامعى قبلها ولا بعدها أعذبُ منه ولا أشجىٰ ، فى سكينةِ الفجر الساجى كان ثمّ سلامٌ لايمكن وصفه ، لاينتهي جمالُ ترداده ، مازالت دعوة المؤذّن يومها الى حيَّ على الصلاة ، والشهادتان ، بترنيمٍ عميقِ الإيمان ، لها كلها أصداءٌ باقية لا تبارِح جنبات روحي التى لم ترتوِ قط ، ولا تفرغ أشواقها .

ياه .. !

بدت له من الشرفة تربةُ مصر الغامضة الحارة ، وقد تدثرتْ بغلالةٍ ليليةٍ شفافة .

رأىٰ النجوم المتألقة كنيران صغيرة مشبوبة فى السماء الزرقاء ينعكس وهجها على مياه النيل المنحدر فى جلال وهو يغنّي مُهَمهِماً بأنغام قديمة متآلفة الألحان واللغات ، وعلى ضفافه كانت عرائس المياه تتمدد فى تلك الليلة الصيفية ، ملتفّات بضوء النجوم ، هامسات بأحاديث الأساطير التى تتجدد أبدا ولا تموت . عذارىٰ الليل المرهوبات اللاتى يضطجعن على الشاطىء فى ليلهن الأبدي ، بشعورهن السوداء المتناثرة ، وعيونهن العميقة الساجية يغرين

مَنْ قَادَه القدر إلى أذرعهن ، فيرتمي بين أحضانهن الناعمة ، ولكن لكي يَغُصن به إلى الأعماق ، ويخرجن ، وحدهن ، داميات الشفاه ، ملتهبات الأعين بنارٍ مثلوجة .

أما فى الصباح ، بعد فطور الفول البيتي المدمسّ ، بالزبدة ، وعيش البَتّاوْ الطازة ، والشاى باللبن فى الكوب الزجاجي مخضرّ اللون قليلا ، فقد كانت زيارتي لبيت رحمة ولنده ، يعنى بيت خالتِي سالومة وخالتى روزه ، طبعاً ، شبه يومية ، أو مرتين فى اليوم أحيانا .

كان بيتهم من البيوت القلائل ، فى الطرّانة ، التى من دورين ، فى آخر زقاق ضيّق ، متلوّ ، ينتهي فجأة بحائط سَدّ ، ترابُه الناعم يعلق بقدميّ العاريتين فى الشبشب الرفيع — مَنْ كان الذى يهتمّ بلبس الجزمة فى القرية ، على الصبح ؟ ألم تنتهِ أيام المدرسة ، والحفلطة ؟ ، الجلابية أو البيجاما المخطّطة فيها كل الخير والبركة — وكنت أحاذر أن تغوص رجلى فى أقراص الروث الطرية المدوّرة ، أعرف أن خضرة سوف تجمعها لتصنع منها الجلّة الجافة التى أرى صفوفاً منها فوق سطح البيت .

مدخل البيت — بين حائط الزريبة وجدار الحد المصمَت المبني من الطوب النيء — مسقوف وضيق ومظلم من وراء الباب الخشبي العتيق — ذى السُقّاطة الخشبية أيضا — الذى يرتفع بفعل حبلٍ يُشَدّ من فوق ، من الدور العلوي ، لينفتح الباب ، ثم تعود السقاطة فتستقر فى تجويف مُعَدٍ من الناحية الجُوانيّة للباب . وقد غادرتْ البهائم كِنّ الزريبة من الصبح البَدْرِي ، لكن رائحتها مازالت كثيفة وراكدة تفغم الحس ، لا تنجاب ليل نهار .

عندما دخلت ، كانت خضرة تكنس الزريبة بسُباطة نخْل خشنة السَعَف ، مربوطة بشمروخ سنْط مسوّىً واضح العُقَد .

فى جلابيّة الشُغل السوداء الباهتة المُلطّخة ، شقّ طوليّ مفتوح على

جنْب ، ينزل حتى تحت خصرها ، يلوح منه قميص داخلي بلون فزدقي كالح ، خشن النسيج ، وثديها الصبيُّ الأسمر يفلت منه ، يهتز — وهى تشتغل — متماسكا وغضّا ، منعشا بشكل مدهش ، تحت الثياب غير النظيفة ، دون أن تلقي أدنى اهتمام إلى نظرتي النَهْمة الخجول معا .

بنتها الصغيرة تلعب بكوز ذرة ناشف نصفه قد عريَ من حبوبه الجافةَ ، لفّتْ رأسها بخرقة داكنة يبدو من تحتها شعرها الأشقرانى الملبّد ، نظرت إلىَّ بعينين واسعتين خضراوين ، متساءلتين وكأنهما غزِلتان ، بلا خجل .

أما آخر أولادها فقد كان يلتصق بساقىْ أمّه وهى تكنس ، يتدأدأ وهو يشدّ جلابيتها ، ليس عليه الا قميص قصير يكشف عن قضيبه الصغير ، وخصيتيه البريئتين ، وساقيه المقوستين قليلا .

— ياواد نُخشّ جوّه اختشي يُوه .. يابت حُطّي عليه هِدْمة ، يادى العيبة ، ياالَهْوي !

ولكنه ينظر إلىّ وقحاً بوقاحةِ الحياة الطفولية الجديدة المنطلقة من سخونة الروث ، وجَسَدانية الجاموس الجسيمة ، وحنين الأرض الذى بلا تورّع ولا وعي تقريبا يتحدىٰ الحبْسة وزمْتة الحيطان .

وكانت سائر البنات سارحات فى الحوش ، تحت النخلة ، وأمام البيت فى الوَسَعاية المحجوبة عن الطريق ؛ فهل رأيتُ فى ركن الزريبة ظلالَ رجالٍ كثيرين ؟ أم رأيت رجلاً واحدا ، وكأنه كثيرون ؟ أسعد الأشقراني أمْ عيِّ سلوانس بعينيه الخضراوين الثاقبتين تُشعلان ظلال الكِنّ ؟ رَجُلها حجازي أم ظِلّ الوادْ لافنْدى الاسكندراني بن عم قلْدس الصعيدي ، القادم من راغب باشا ، والذى يموت حباً فى الحوريّتين لنده ورحمة ، ويتلظىٰ بنيران شهوةٍ جافة ؟ فهل ظِلال الرجال دائما ، تترصدنى وتتربص بنسواني ؛ لا ، بل كان هناك ، رأيته فى عتمة الصبح .

كنت أعرف أن حجازي زوجها ، الأجري ، يشتغل يوماً ويبطّل أياما ، ويسافر بالشهور مع التراحيل فى مواسم الشغل ، لكنها تحبل كل عام .

وعندما يقعد فى البلد كان يأخذ البهائم أحيانا للمرعى على الترع أو الرّيّاح أو جسر البحر الكبير .

وكانت تلك شُغْلة الصبيان — أو حتى البنات الصغيرات — لكن الحاجّة وَحْش . وكان للرجل وجهُ وَحْشٍ وضحيةٍ معا ، خشن مجدور جافّ كفرع جميز عتيق وفيه أيضاً نضارته المحجوزة . رأيته مرة يكسح الزريبة ويُخرج منها طبقاتٍ قديمةً جافة من مخلّفات البهائم يعجنها بالروث الطازج ثم يُقرّصها — كالنسوان — ويفرشها فى الحوش تحت النخلة ليصنع منها الجِلّة ، وكان يلبس خيشة متصلبة من القَذَر ، على اللحم .

وكان هو وخضرة ، ووليدها الأخير ، والبنات الخمس — فى وِشّ العَدُو — ينامون جميعاً مع البهائم ، فى ركن الزريبة ، أهُو مِنُّه خَرَس ، ومِنُّه وَنَس ، ولهم على أى حال ، من الخير نصيب !

— عَوافي ياخضرة .

— يعافيك ياسيدنا لفندى ياخويا ، ويجعلْ لك فى كل خطوة سلامة .

رفع رأسه إلى السماء فرأى النجوم الأبدية الدقيقة تلتفّ بالقمر الشاحب الصغير الذى اكتسى بسحابةٍ بيضاء شفّافة .

النجوم أنقاضُ قصر أبيض تبددت بقاياه وتشتتت حطامه حول بحيرةٍ نصف مستديرة من فضة هادئة . رأى السحب الجميلة تسري فى صمت إلى أرض خرافية مجهولة ، أشرعة حالمة تحمل فى قواربها أبناء آلهة ، هاجيين ، أبناء خنسو أبوللو ، وبناته القمريّات الشُمُوس .

لفحت وجهه الملتهبَ نسماتُ ريحٍ دافئة عبقت حواشيها بشذى زهرٍ

برّيّ تهبّ من ناحية المقبرة حيث تظلل الأشجارُ أشباح القبور ، حيث تتاوه العِظام المفتتة ، تحت السنْط والنخيل العقيم ، حيث تضرب جذور النبْق والجمّيز فى التربة خلال عيون الجماجم المظلمة التى تُحدّق بلا غمْض فى ليلها الأبديّ ، حيث سيقان أشجار التوت والمانْجه تخترق الهياكل فى التراب ، لكى تحمل الأوراق الغضّة ، مشرقةً متفتحة ، فى نور السماء .

ناديت من تحت :

ـــ خالِتى روزه . خالِتي سالومة ..

لم تكن إحداهما خالتي على الحقيقة ، بل هما أقرب إلى خالات أُميّ ، كان ابن عمهما حنًا بيه الذى يعيش فى شارع جانبي من الرصّافة فى اسكندرية ، وتحرص أمي على أن تعطيه حقّه من فطير الملاك ميخائيل الذى تصنعه لى فى عيده ، وله ابنٌ على اسمى أيضا ، أكبر منى كثيراً وعُمّر طويلا وكان شاعراً عمودياً نُصّ لِبّة نال حظاً من الشهرة .

جاءنى الصوت المشروخ الرفيع :

ـــ إطلع يابْنى .. إطلع ياضَنَاىَ .. يالنده .. يارحمه .. شوفي ابن خالتك ، افتحي المندرة البَحَرى .

كانت خالتي روزه وخالتي سالومه توأمين مصنوعتين على قالب واحد . لم أرهما قط ـــ حتى فى عِز الصيف ـــ إلا بالثوب الأسود السابغ تدور علىٰ صدره سُفْرة ملفلفة من قماش حريرىّ لامع بالياقة العالية المقفلة التى تضمّ ، بإحكام ، العنقَ المجعّد الضاوي ، عنق ديك رومي مخضرم ، وبالحذاء الأسود الرجالي واطيء الكعب صيفا ، وبكعب كُبّاية له أزرار جلدية مدوّرة متلاحقة على الساق الرفيعة شتاء ، وبالشراب ذى القماش الثقيل صيفاً وشتاء . أما فى أيام البرد فى آخر سبتمبر ، فقد رأيتهما تزوران ستّي أماليا بالبالطو الأسود الحرير ـــ التاريخيّ ـــ على الفستان .

لم يكن يبدو لهما صدر أو عَجُز ، كانا مسطحتيْن قائمتيْ العود بصلابة ، ناحلتيْن بجفاف .

وكان بُخلهما يُضرب به المثل فِ الطرانة كلها ، بالفعل .

— يوه إياك حتعمل زَىّ ست روزه مش لاديْ عليها حتى كُبّاية الشاى !

— زَىّ الست سالومة فُولَح دُرة ناشف مايبرّش اللومّيّة !

وكان يحكون عن كنز من الجنيهات الذهب الحَميدى والانجليزى والورق الكبير أبو مَدْنة ، كأنه مناديل خضراء . خبيئة مدفوسة فى كوّة مموّهة بالطوب النيء تحت السرير الحديدي ذى الأعمدة العالية ، أو يُقال إنها فى المصطبة الطينية فى الدور الفوقاني ، فى المندرة الأخرىٰ التى لا تُفتح لأحد قط ، تحت أكداس المراتب القطن والألحفة والأكلمة السيوطى ، وتحت النافذة القِبلية المقفلة دائما ، ذات القاعدة العريضة التى وُضعتْ عليها كتب الترانيم وتعلُّم اللغة القبطية وألف ليلة وليلة بأجزائها الأربعة منزوعة الأغلفة وجزءٌ واحد من كتاب « الأغاني » المطبوع وَرَقُه قد اصفرّ وجفّ ويوشك أن يتهشم من فرط هشاشته .

كان الباب لا يُفتح أبدا ، بعد أذان العشاء الذى يأتي من بعيد ، من الجامع المطل على الريّاح البحيرى .

خضْرة ، وحجازي إذا كان فى البلد ، وأولادهما ينامون من العِشا ويصحون من النجمة ، والخالتان كالديدبان ، حدأتان رابضتان .

أما لنده ورحمة فقد كانتا تبيتان عندنا — يعني فى بيت جدّي ساويرس — اذا عزمنا على السهر أو العشاء معنا — بعد أن تأخذا الإذن اللازم بطبيعة الحال — وخاصة فى هذه الأيام ، عندما كانت خالتي وديدة مخطوبة لعمي فانوس ، وبنات العائلة والستات والقريبات والجارات يعقدن حلقات الغناء

الفلاّحي والطبل البلدي المرتجل ، على مصطبة بيتنا المكشوفة ، فى نور الشعلات الحمراء المتراقصة فى كيزان الصفيح المعمولة مصابيح والتى كنا نسميها « الشيخ عَلي » .

أيّ إصرارٍ عنيد يدفعنى فى وسط مثاليّات الحب الخَجول المكبوت ، واضطرابات القلب وإحباطات التقاليد الفلاّحي والعادات القاسية ، وعصفات الشهوة الخفية ، وعلىٰ نور « الشيخ عَلي » المتهافت المهتز ، أن أواصل الكتابة بالحبر الأحمر الفاتح مقتعداً الشَلْتة الناشفة ، مُسنداً الورق الخفيف نصف الرماديّ على مِهادٍ من صفحات « الأهرام » القديمة ، مفروشٍ على خشب الطبليّة .

سَرَتْ فى جسده رجفة

إنه فى ريف مصر ، فى كهف أحلامه ، فى مثوىٰ آلهته ، فى موطن السحر والخرافة والأشباح ، فى مهد الضنْك والكدّ والحياةِ دائما على شفا الموت .

ترك النسيم الدافىء يهبّ من الشرفة المفتوحة ، واستند بظهره إلى الجدار ، وهو ينظر إلى معبده .

صامتا يتعبدّ .

قال : أما زال فى أحد أركان روحك ؛ هذا الفتىٰ الموجوع الساذج ؟ أما زلتَ ترعاه ، حتىٰ ؟

ألا تريده أن يموت ، هو وشِعره الغرير الذى لايساوي ، فى سوق الشعر ، بَصَلة ؟ ألا تريده أن يَعْبُر ؟

قال : ألعلّه قد تمّ تحنيطه ؟ من وراء قناعٍ مكشوفٍ للعيان ؟ فهل

جُمجُمته ملفوفة بأكفان الكتّان المهتوكة ، لم يبق منها إلا القليل من حبّات الزجاج اللامع ، أو المنطفىء ؟ حبّات من ملح النطرون ؟

قال : بل حيٌّ ينبض ، برغمكَ أو رضاكَ ، سيّان .

قال : مدفونٌ تحت تراب الكلمات .

(٢) بوبيللو

عندما وصلنا الغيط الغربيّ ، ونزلنا من المعدّية على سقالة خشب ، مَدَّها المعدّاوي على جرف الرَّيَّاح ، فوق الطين المبلول الأسود الذى ينزّ بماء الفيضان المكتوم فى جسم مادته الغنيّة ، كانت الشمس قد حميت .

تحت حلقةٍ ملتفّة من أشجار السنط والجازورينا وشجرة نبق واحدة عريضة الجذع ، عريقة ، متهدّلة الأغصان ، فرشنا على الأرض أوراق الذُرّة الخضراء الطرية ، طبقة فوق طبقة .

كانت خضْرة تهوّي على النار الموقدة من حطب القطن وقوالح الذرة .

وكانت كيزان الذرة ، التى نُزعت للتوّ من أغلفتها الخضراء الحريرية الملمس ، تطقطق على الجمرات سريعة الانطفاء ، لا تكفّ خضرة عن تزويدها بالوقود وتهويتها بجانبٍ من صفيحة مسطَحة صدئة مازال عليها آثار من رسم القوقعة وكلمة « شل » باهتة الاحمرار . الدخان يصعد من الكانون المرتجَل المعمول من طوبتين قائمتين على طولهما ، حلقات الدخان المتصاعدة لها لفحة نفاذة من الاحتراق سرعان ماتخفّ ذؤابتها وتتطاير فى الهواء .

تغدينا على الفطير المشلتت المسقسق بالزبدة الخالصة ، كان مَنَابي معه ورك بطة محمّر فيه حلاوة الدسامة التى تتأتّى للبطّ المسمَّن ، تضعه ستى أماليا تحت رِجْليها ، وتزغّطه مرتين فى اليوم ، على الفول والذرة والكريات المعجونة بالماء المصنوعة من الردّة والطحين وقليل من السمسم .

عزم عليَّ جدى ساويرس بالكونياك ، أصهبَ في كأسٍ صغيرة مضلّعة الزجاج تبرق وتشعّ تحت تراوُح هفهفة الظلال ونور الشمس .

كانت نسمة الهواء قد اشتدت ، وقد اقترب العصر ، وحفيف الشجر له موسيقىٰ ، ومياه الفيضان الحمراء المتدفقة في الرّيّاح لها هدير خافت ومدمدِم في ارتطامات أمواجه ودوّماته ، ونحن نهشّ الذباب الذى تجمع حولنا ، يحطّ علينا بلا هوادة ، بعناد ، والمنشّة الخوص رفيعة الفتائل ذات المقبض العاجىّ في يدى عمى سلوانس وفي يدى جدى ساويرس ، لها صوت احتكاك ووشيش يشرئبّ له الجِلْد : أزيز الدبابير ، والفَراش سريع الرفرفة بأجنحته الشفافة والفضيّة ، وخوار الجاموسة المربوطة في الساقية تختلط في مسامعي التي أحدّها الكونياك وأرهفها ، بدندنة عمي سلوانس وشجوها المكتوم ورضيت بنار البعاد ، ياللي راعيت الوداد ، وسمعت نجوىٰ الفؤاد ، أفديك بروحى ، ونباح الكلب الضروريّ الذى لابدّ أن يرتفع بإصرار ، وخوف ، من علىٰ حفافي الغيطان .

ذهبتُ ، في آخر النهار ، إلى آخر الحلقة المفروشة بأوراق الذرة المشعثّة الآن ، وقد جاءتها أشعة شمس الغروب من على جَنْب ، ناعمة ومنبسطة وبدون ظلال ، وجلست جنب خضرة ، جاءت ساقاى العاريتان تحت الجلابية البيضاء التى ترِبتْ أطرافُها الآن ، بجانب فخذها المدورة ، وهى متربعة في جلستها ، بعيداً عن « الخواجات » لأنها تعرف قدرها ، ولكن سلطانة في بَذْخ الجسد الحُرّ الذى يفيض بتدفقٍ من الحنْكة والبراءة والمعرفة غير المنطوقة معا .

قلت لها : خَضرة ، قَشّرِي لى كوز دره كان ، وحياة عينيكِ .

كانت في نظرتها إلى الولد الصغير الذى كنته مؤامرةٌ وتواطؤ ، وجرأةُ المرأة التى تعلمّ الصبىّ كيف يعرف ذكورته .

أكلتُ الذرة نيّئة طريّة تشرّ بماءٍ لبنيّ في فمي له حلاوة خفيفة ومفاجئة ، والنمل الكبير ، حرامى الحَلّة ، البنّي الفاتح ، يجري بسرعة خاطفة من بين ساقيّ وتحت وركيها ، يحمل رزقه من بين أوراق الذرة الخضراء العريضة ، ويهرب به إلى جحوره واضحة الثقوب في تراب جسر الرِّيَّاح .

قالت خضرة ، من غير مبالاة :

— بوبيللو ؟ كوم المساخيط ..! دا من غضب ربنا جَلَب عاليهم واطيهم ، أعوذ بالله من غضب الله .

كان جِسمي باللحم الأسمر الناعم المسترسل يقظاً الآن ، ومتوترا ، لذّته مسترجَعة ، حَية غير راكدة .

هل هى استعادةٌ لا تكفّ عن المثول ؟ هل هى الآن سورة الكونياك ، والزَفَر السمين ، وحلاوة ثمار الأرض الغنية ؟ أم هى حُمَيّا خيالات الصبا التى لا يُكبح جماحها ؟

هل كانت علّمتْنى من فنون الشبَق ألوانا ؟
أم كان هذا اللجَجُ من عربدةِ الغيوبِ ؟

- فوْح التراب المبلول الذى جفّ من وقدة النهار ونفْح خُضرة أوراق الذرة التى تموت تحتنا ولفْحة روث الجاموسة بين حين وآخر ، كأنما كلها تزيد من سعار نشوة أرضية مكتومة فى روحي .

كانت خضْرة تضع على رأسها الطرحة السوداء الشفافة التى انزلقت قليلا على كتفيها ، تشفّ عن مدوّرة زرقاء — زرقتها داكنة ومخايلة قليلا — تحت سواد نسيج الطرحة الذى يهفهف فى النور ، تتدلىٰ على ظهرها ضفيرتان من شعرها الغزير ، سميكتان ، مفتولتان بشريط من قماش المنديل الأزرق الذى يبدو الآن ناصعاً إذ يلتفّ حول شعرها الوحِيّ الأسود .

سمعت خالتى روزه تطلب من خضرة أن تضمّخ شعرها بالجاز ، كانت تطلب منها ذلك بانتظام مرة فى أول كل شهر ، لتنقّيه تماماً من كل واغل .

وبعد أن جفّ الجاز وفاحت رائحته فى مدخل الدار رأيت خضرة تمسّده ببطء ، بحركةٍ شهوية .

أقفلت على نفسها الباب الخشبىّ الذى يسد الكِنّ المسوَّر بالطوب ، فى الزريبة ، ويُظْلِمه .

من فوق ، وأنا أقرأ لخالتى روزه صفحاتٍ من « ألف ليلة وليلة » كنت أسمع وشيش وابور الجاز تحت صفيحة الماء المملوءة من عند الرأس الحجرىّ فى النيل — حيث المياه أسرع جريانا ، وأصفىْ — وعندما نزلتُ شممت من عندها رائحة مَيّة القسيس التى كنت أشتريتها من سوق الثلاثاء فى كفر داود ، وأهديتُها خضرة ، خلسة عن العيون .

موج شعرها الأسود المتلاطم يغمر جَنْبِي وصدرِي وأعلىٰ بطني ، وهى تنحني علىّ ، فى الليل والسرّ — بينما النهار ساطعُ الضحىٰ فى الخارج — فيه رائحةٌ حرّيفة وحوشيّة — قالت لى مرة إنها تدق فى الهون حباتٍ من القرنفل ، وعين العفريت مع قشر الرمان الجاف ، تنقع المسحوق فى قليل من زيت الزيتون ، وشيء من الكحول ، ونقطة ريحة صندل ، وتستخلص منه ما تمسّد به شعرها . قالت لى مرة أنت تجعل من رائحة شعرى أشبه برائحة لبؤة متحرقة للسفاد . حسّ نداوة شفتيها إذ تنضمان علىّ ، وحرارتهما ، وعبثهما بى ، لا توصف لذته ، وعندما يوشك أن يصل إلى الذروة — مَنْ يطيق احتمال حرقة النشوة ؟ ومقاربة التمام ؟ — عندئذٍ ترفع فمها ، بحنكةٍ وذكاءٍ جسدىّ حصيف ، حتى يطول الأمد .

تولّهتُ بشبقِها .

غالتني وجمحتْ بي ، في سورات جسدها ، في مفازةٍ لا منجىٰ منها حتى الآن .

خبّأتُ جسدَكِ في قلبي ، نابضاً ، مطالِبا ، عارم الحياة ، حتى الآن ، حتى الآن .

قال إن المصابيح الشرقيّة المشغولة بنمنمة النحاس كانت تصبّ ضوءها الأزرق الوديع ، تلقي هنا وهناك أنواراً خفيفة مرتجفة وظلالاً شفافة ، وبين لوائح السَنَىٰ وغَمْض الظلّ تناثرت التماثيل الصغيرة ، فاتنة حالمة ، بقايا روح جمدت في قِطَع منحوتة من الحياة .

عيناه تستقران فقط على تمثاله الأخير .

أفرغَ في المرمر الأبيض الناعم كل كؤوس حياةٍ مترَعة بخمر الأحزان ، والأحلام ، خمرَ نشوةٍ وكآبةٍ ، سُكْرَ القلب الذى لا يُراعِي .

ينظر إليها متولّها ، روحه هي محراب قدسها ومذبح بخورها وصرحها المحيق ؛ تحت قدميها شظايا أحجار متطايرة وجذاذات المرمر لامع الحواف وأدواته الحديدية القوية ، الأزاميل والسكاكين والخطاطيف والإبر والمثاقيب ، تثوي ، هي ، بين بقايا النُحاتة وبين تخاييل الظل وارتعاشات لهفة النور .

يمر بيديه المحمومتين على شعره الأشعث المغبرّ .

بنت ، حورية ، إلاهة ، من مصر ، تحلم ؟ أم ترَىٰ ما لايراه البشر ؟ مضطجعة في مخدعها الرخاميّ متموج الطيات ، جسمها الغض تكتنفه غلالة تتثنىٰ وتتهدل كأنما تحتضن منها الروح ، بشغف . رفعتْ وجهها المرمرىّ النحيل الصقيل ، واعتمدت رأسها الأنيق بذراعين عاجيتين عاريتين ، وقد انسدل شعرها ، غدائرَ حَجَرٍ مضيئة ، عميقتيْن في محجريهما ، توحيان بسَعة

لا محدودة ، بنورٍ داخليّ مكتوم ، أسبلت جفنيها الثقيلين على عينيها ، أهدابها ترمي ظلالاً طويلة على الخدّ الشاحب الأسيل ، زواياه حادة التدوير ، وناعمة ، وشفتاها الممتلئتان نصف مفتوحتيْن ، مستعدتين للتلقّي .

صَمْوتٌ ، أنينُها لا يُنطَق به ، في وهج غامض غير منظور .

قبل أن نصل إلى الغيط الغربي كان بوبيللو يرتفع إلى علوّ شاهق ، الكيمان التى يحمل منها الفلاحون مقاطف السماد الكفوري الغنيّ تقطعها ، في حدودٍ رأسية تقريبا ، آثارُ الفؤوس .

ركام من الشقافة ، كِسَر سميكة من الزجاج الملون بالأزرق الفرعوني والأصفر الداكن نصف الشفاف ، ناعمة في اليدين ، غير جارحة ، أحجار جيرية ، ورملية ، عليها نقوش نصف مطموسة بالحرف الهيروغيلفي والديموطيقي واليوناني والعربي الكوفي ، راكمت السنينُ المتعاقبة الطوال الأكوامَ العقيمة من الحجر والزجاج وأنقاض الرخام ، دفنتْها تحت كيمان التراب التي تكشفت فيها فجوات غائرة جَرَفت منها أجيالٌ من الأيدي الصَبور الدؤوب ، من جَدٍ لأب ، محفراً من السباخ الخصيب ، رفاتُ أجسام بائدة وفتاتُ أرواح لا راحة لها الا في أرض الغيطان المسقيّة بماء الفيضان وطميه ترابُ الكهنة والشعب والجنود والتجار يغذو القمح والبرسيم والشعير ويمتزج بعصارة جذور الجميز أبديّ التكرار والنبق العتيد أعوادُ الذرة الغضة وحبوبها السكريّة ، دورةٌ مشرقة الحلقات أم ثأر يأخذه لنا ولنفسه الفلاحُ الذي لايموت قط . هل يموت الآن في ذبذبات الفيديو وكَهْربات الأسمنت والطوب ؟ ابن النور ، عدو الظلمة ، وعدو كل ذراريها الجافّة ، ألا يزال ؟ يضرب بفأسه الأرض — ألا يزال ؟ — كما يصنعُ الحب مع امرأته ، يتلقى أول قطفات المحاصيل بعد أن أنضجها ، سقاها من عسل النيل القديم وحَمَاها من لظى الصيف في الشراقي ومن ندوة الحشرات والديدان وقضْم الجرذان ونهش

الجراد .

أما في العصاري ، تقريبا كل يوم ، فكنت أذهب إلى بيت عمي أرسانيوس ، وابنه فانوس الذى سيتزوج خالتي وديده ، لكى أجد رحمة .
لكى ألتقي بها .
ونخرج معاً من هناك ، نتمشّى .

كنت أصفف شعري الثقيل بالبريّانتين وأغير جلابية النهار ، ألبس أخرى نظيفة ، زَيّ الفُل ، وأمسح الصندل المفتوح الذى سوف أعود به متربا هو وقدماى معاً وبه ثقل من الطين اللازق فى نعله من جسر النيل المرشوش . ندور حول الجرن الفسيح الذى يبدأ فيه نشع الفيضان ينزّ ببطء ، فى الأوّل ، ويرتفع قليلا ، حتى يصبح بِرْكةً واسعةً رقرقةُ الماء الراكد فيها تخفي السمك الصغير الذى يصطاده أولاد الفلاحين بالكوز ، أو بالقفْش باليدين بسرعة وبحذق ، من أين جاء السمك ؟ لم تكن هذه التمشية الأفرنجى عندئذ موضع استغراب من أحد ، الآن يجيئنى رد الفعل المحتمَل — بل الواقع فعلا — عند أولاد القرية بعفرته أهاليهم ، وعند أصحاب اللحىٰ والجلاليب القصار الذين لم يكن لهم عندئذ وجود ، وأصحاب حُواذ المرأة التى كلها عورة واحدة يجب كتْمها ؛ كانوا أيامها يعرفون ساعة للقلب وساعة للرب .

نمشي حتى موضع الساقية الضخمة المهجورة ، تحت جسر النيل المرتفع ، ننزل إليها على حِجار مرشوقة فى جانب الجسر الترابى الهشّ من فوق ، المتماسك عند الشطّ العريض ، ونحن نكاد ننزلق ، ونضحك من خشية الوقوع ، أُمسك بيدها الرفيعة العظام ، شفافة تقريبا ، أُحس لها رجفةً من النشوة الحسية ومن إعزازٍ وإكبارٍ غير مُفسَّر ، ونجلس فى ساحة الشط الواسعة غير بعيد من المياه الدفّاقة ، على ذراع الخشب المترب المشقق ، أسود الآن من الجفاف ومعووجا ، ساقطاً من عجلة الساقية الضخمة الغائرة قليلا فى تراب

الشط . المياه — فى ذروة الفيضان عاماً بعد عام — ترتفع حتى تُغرق الجانب التحتانيّ من هذه الذراع الجسِيمة وتترك فيها ، بعد أن تنحسر ، خطاًّ هيّن التوّج يحدد هذا الجانب بلون داكن يظل على دكنته حتى العام التالي .

لم تكن رحمة تتكلم كثيرا — على عكس اختها لنده التى كانت تستمتع بشقشقة الكلام بلغوتها الفلاّحِى حلوة الجرْس والإيقاع — كانت تسألني أحيانا عن دروسي فى العباسية الثانوية ، ماذا نتعلم هناك ؟ وعن أخبار الحرب فى الجورنال ، وكنت أحكي لها بفقْهٍ وتدفّقٍ وتلقائيةٍ لم أعرفها مع النساء بعد ذلك الا فى النزر من الأحايين .

حكيت لها إن فى وسط أوربا ، بلاد الأفرنْج طبعا ، منطقة اسمها بوهيميا يسكنها ناس اسمهم التشيك وناس آخرون اسمهم السلوفاك ولهذا جاء اسمها الصعب تشيكوسلوفاكيا الذى لايعرف أحد أن يقوله فى الطرانة بذلاقةٍ ولَسَن الا خالَتي وديدة . وقعتْ الآن تحت سيطرة هتلر — كان هتلر مشهوراً فى الطرانة — وإنه على الحلفاء الانجليز والفرنسيين أن ينظروا فى مسألة استقلال بوهيميا حتى يتجنبوا حرباً أخرىٰ ، وأن الأمة التشيكية لها تاريخ وحضارة عريقة ، وأن هناك أحلاما ، وخُططا ، لإيجاد مَلَكٍ يحكم فى الوقت نفسه على بوهيميا وسلوفاكيا وهنغاريا ويكون له ثلاثة عروش فى ثلاث عواصم اسمها براغ وبراتيسلاف وبودابست ، وقلت لها إن طائرات الإنجليز ألقت منشورات على هامبورج وبرلين تدعو الألمان إلى الاستسلام وحكيت لها أيضا عن ليدى الزابيث بيرس شقيقة دوق نورثمبرلاند أُعلنت خطبتها للماركيز دوجلاس فكانت هذه الخطبة نهاية سعيدة لنزاع ظل مستحكما بين أسرتى الخطيبين زهاء ستمائة عام ، وبالمناسبة حكيت لها عن روميو وجولييت ، ونهايتهما الفاجعة ، ودمعتْ عيناها قليلا وكنت ذَرِب اللسان فى النطق الانجليزى القُحّ ، لكنها لم تبالِ بذلك بل سحرتها قصة الحب فقط وكانت تصغي إلَيّ بعينيها العسليتين العميقتين . بكل روحها ، كأنها غادرت جسمها الآن ، فى المغارِب . نعيق

الغربان يزداد حدة وتواتراً على شجر السنط والتوت ، فوْق ، هناك على الجسر العالى الذى كان يبدو بعيداً ومقطوعاً عنّا ، خوار البقر والجاموس وثغاء الغنم العائدة من الغيطان ، ولابد أن نصعد الآن ، ونعود قبل هبوط غبشة المساء ، وإلاّ كان لأهلنا معنا حساب وأى حساب .

خيّل إليه أن روحها تسترسل مع أنفاسها الهادئة ، مع أشجانها الحالمة ، وأن نَهْديها الصغيرين يرتجفان ، فوق قلبها الخافق الملهوف ، فى نشوة حلمٍ ترين عليه الكآبة ، وغلالتها ترتمي على ساقيْها المستلقيتين ، كأنما تبغي أن تُقبّل قدميها — كما يصبو إليه أيضا — ثم تُغفي متعبةً لاغبة فى غمار أحلام غائبة ، وشظايا الروح . تشعّ منها الوداعة الحزينة التى هى ليلُ الحياة إشعاعاً غير مرئيّ . مَن هى ؟ إلاهة أم طيف غير متجسد ، ماثل فى مخايل المرمر والأنوار ؟ نظرتْ إليه وقالت له : تعالَ . تعالَ إلىّ أيها المنهوك . تعالَ بين ذراعيّ ، لكى ترتاح فى حضني . أكانت حلماً من شطحات شبابٍ هائم شرود ؟ أم كانت على جَمَد مادتها تنبض بالحياة كل الحياة ؟ مضىٰ إليها كالمسحور ، أغمض عينيه ، وتقدم ، وركع .

قال الآن أعرف كيف عبد المصريون إلاهاتهم ، وكيف كانت إلاهاتهم خالدة لاتموت .

قال إلاهة ؟ شيء ؟ امرأة ؟ أم أنه هِي ؟

مازالت مسبلة جفنيها ، ترنو إليه من وراءِ أهدابها ، تحلم أحلامها الوادعة أو الشرسة ، لا شأن لها به . هى حرة . منفصلة . ليست شيْئه . ليست له .

فى الطريق إلى بوبيللو مررنا بمقابرنا ، على مدقات متربة غير محددة المعالم بجانب الأرض النشعة بالماء الملح الفضّي المغبرّ فى الشمس .

صعدنا إلى الربوة . مرتفعة قليلا ، منثورة بالتُرَب المبنيّة بقبابٍ صغيرة نصف متهدمة ، والتُرَب القديمة المنقضّة على الأرض وحطام أكوام الحجارة الصغيرة لم يعد أحد يتذكر لمن كانت التُرْبة . وبعد ذلك بسنوات عديدة سوف توصيني أمي بأن أدفنها ــ قلت لها بعد عمر طويل ــ بجانب أبيها جدى ساويرس ، فى بوبيللو ، وتُكرر الوصية بإلحاح ، وأعِدها ، بطاعة ، ولكنى لم أستطع ، وصنعت لها قبراً غاليا فى أرض المدافن بالشاطبى ، فى آخر شوارع موحشة ، ولا أعرف ولا أهتم إن كنت سأُدْفن فيه إلى جانبها ، أم يكتفي أولادى بقبرٍ مرتجل فى مدافن مارِجرجس بمصر القديمة .

حوّدنا على الكنيسة الصغيرة المقفلة ، فتحها أبونا بمفتاحه الحديدىّ الضخم ، وعمّى جورجى يتحسس الأرض فى ثقةٍ ومعرفة ، بعصاه الغليظة ، دون أن يخطىء طريقه إلى الهيكل وهو يخبط الأرض المبلّطة برخام قديم . كان عمّى جورجى ، عرّيف الكنيسة ، يستطيع أن يشعل سيجارة بعدسة مكبرة ، من نور الشمس ، بمجرد حس أصابعه المدرّبة ؛ ووقفنا وراء أبونا أندراوس ، وصلّىْ بنا صلاة قصيرة ــ من غير أن يفتح المذبح أو حتى يعبر الحجاب لكى يدخل الهيكل ــ ثم تلونا أبانا الذى فى السموات ، تمتمت معهم ، لم أكن أحفظها ولا حفظتها قط حتى الآن ، وركعنا أمام الحجاب ورسمنا علامة الصليب وباركنا أبونا وحالّنا ، وخرجنا إلى نور الصبح الذى يعشي العيون ووضعنا الرحمة والنور على تُرَب أجدادٍ وأسلاف لم أكد أعرف منهم أحدا ، سُكْنىْ التربة غربةٌ نهائية ليس لها من مُقِيل ، ولكنها الوطن الأخير . من أين جاء أولاد الفلاحين ينطّون كالمعيز بجلاليبهم الباهتة المرقّعة ، على اللحم ، شعرهم المهوّش تحت الطواقي المغبرّة الملطّخة ألله يرحم ميّتينك ياخواجه أرساني الله يرحم ميّتينك يامعلم فانوس ، وزعتُ عليهم لنده ورحمه وخضرة المِنّين والبِتّاو السخْن من خبيز الفجر ، والبلح الأبريمى الناشف .

كنا نَلمّ بقايا النهار ، وقد شبعت أعضاؤنا من متعتها العضويّة البحت

الحسية التى مهما قيل فيها عبر السنوات فلا وصف لمدىٰ امتلاء نشواتها الراسخة فى نواة الجسد .

وعلى شطّ الرّيّاح البحيرى فى العصاري كانت البنات والنسوان يغسلن الحدوم والطشوت والحِلل النحاس وطواجن الفخار والأطباق الصفيح ، انحسرت الجلاليب عن أفخاذهن السمراء ، بوعْي منهن ، أمام الأعين ، كأنه لم يكن فى ذلك على أى حال مايدعو لأدنى خجل ، نَشيطات فى الدعْك والعصْر والشطْف يضحكن ويثرثرن كأنهن فى ساعة راحة من الضنك لا فى ساعة شغل شاغل مستغرِق للجهد .

كانت البهائم تعود من الغيطان فى صف طويل ، تثير التراب الناعم فيغلّفها فى سحابةٍ لها طعم خشن فى فمي ، صورة تجسدت من نحْتٍ قديم ، وتحركت لا أملُ استرجاعَها من ألف عام ، من آلاف السنين ، قائمة فى اللحظة ، لا زمن فيها . وقفتْ جاموسة ناتئة العظام ، ونحن ننزل على الخشبة الممدودة على شط الجسر ، لنأخذ المعدية ، بهيمة من قَبْل التاريخ ، من قَبْل الأزمان ، باهتة السواد ، رفعت ذيلها فجأة ، فانكشف أمامنا الشقّ الطوليّ المفتوح بلحمه الورديّ الفاتح ، طريّاً ومتماسكا يترجرج ، وانبعثت منه نافورة مياه تبدو نظيفة رائقة أدهشنى نقاؤها المنطلق بقوة ، من غير أدنىٰ حياء .

تذكرتُ حكايات الولد برسوم عن مغامراته الجنسية مع الجواميس .
وفكّرتُ بسذاجةٍ قليلا ، أليس واقع الحياة العضوية ، البيولوجية ، بكل مافيها ، أقوىٰ وأعمق ــ بل وأجملَ أحيانا ــ من رهافات الإخفاء والتسترّ ودعاوىٰ الرقة والسموّ المزعوم ؟ أصرحَ وأصدق على أى حال ؟

لكن السذاجة مطلوبة الآن ــ البراءة والمكاشفة من غير خبث الالتفاف ــ فى وجه تعقيدات نصف قرن من الانتكاس إلى غيبيات الترمّت وضروب المكابتة وتعلّات عنف القمع التى تنتسب ، بلا أحقية ، إلى الدين

والشرع والخلق القويم .

فكرّتُ ، بسذاجة .

آفاق الطين ممتدة الآن على مشارف الغيطان ، وخشة المغيب على الترعة الواسعة مُطبِقة وشاسعة معاً ، الصمت الآن ، فجأة ، تاماً ، عميقاً ، ونسمة تهبّ فيصدر حفيفٌ ناعم عن ورق الشجر المتكاثف الغائم فى غبشة أول المساء .

سمعتُ أصوات الفلاحين واضحة النبرة جداً فى الأفق البعيد ، ولكنى لم أتبين الكلام .

وثَمّ مركب خشبية صغيرة تشق المياه القائمة القديمة ، دون صوت ، من غير شراع ، كأنما تنساب وحدها بلا راكب ولا سكّان .

وعلى الشط الآخر خُصّ معمول من البوص وأعواد الذُرة الجافّة وحطب القطن اليابس ، فتحةُ الباب تبدو لنا سوداء ، فى عكس نور الغسق الدُرّىّ الذى يؤوب بسرعةٍ إلى دُكنة المساء .

قلت هل مرّت بالفعل آلاف السنين ؟

أمازلنا فى أحراش إيزيس ؟

امتدادات شاسعة من مياه المستنقعات ، قارب وحيد ، تحرسه العقارب ، حُور مازال طفلاً ضائعاً موعوداً بالمجد والعذاب ؟ وأنتَ ألن تفرغ قط من إقامة مشابهات لا معنى لها ؟

المعدّية ، فى آخر رحلات اليوم ، تعبر الغسق بحثاً عن شمس الظلام ، هل تجدها أبدا ؟

نظرتْ إليّ رحمة ، نظرة طويلة فى جِسّي ، نصفَ دقيقة ربما ، بينما كانت لندة تثرثر مع عمى فانوس بصوتٍ منخفض مستمر ، كأنما هى ، على غير عادتها ، فى هيبةٍ من شيءٍ ما .

ياما ناديت من أساىَ ، فى وحدتي ياحبيبي ، ماردّ إلا صَداىَ ، فضلت أنادي ، فى كل وادي ، ويطول نِداىَ ، شجْوُ الكهل ونداءات الأشواق القديمة ظِلّ المُغنيّ الخفي وعزْف الليرا فى حماية الثعابين والصقور والغربان وقطعان البقر ، فى صحوها وهجوعها سيّان ، أحراشُ الغار وأدغال الحَلْفا الوحشية البازغة من سَبَخ الملح وطراوة وحرافة الجُعْضيض بين سيقان الملوخيّة البرّية المُزْهرة ، وأسراب الوز الأبيض المنساب على الترعة ، ووراء وزّة ستى أماليا — كأنها بجعة سوداء — التى كنا نعزّها جداً ونناديها باسمها « نعيمة » فتجيب بصيحةِ العِرفان ، كانت تأتينى النيمفيّةُ الحوريّةُ دافني سيريني عروسُ النيل ، بعد أن تقود السرب من الترعة إلى طرقات البلد وحواريها ، ثم تعود إلى البيت ، وحدها ، عند كل غروب ، فتأكل من يدى حبوب الذرة أو الفول أو مايفتح به الله علينا من قوت .

للمرة الثانية نصف دقيقة .
ماأعظم ماأكثر مايحدث — ومايمكن أن يحدث — فى نصف دقيقة .
وبعد ، ألم يَكْفِ ؟

وبعد ، أيها الوادى العميق حيث يجثم كهفُ الظلام ويبسم معبدُ الأحلام ، حيث يمتزج النور بالحلكة ، وترتطم الأمواج الصغيرة فى عمق الهوة المظلمة ، يرتفع أزيز الماء كأنه يغلي ، حيث تتغنى الوردة الغضّة على فَنَنِها الهافي فيقبّلها النسيم بحنان ويُسبغُ عليها النور حباً وهوىً ، يحتضنها الأرَج العبق المنبعث من غوْرِ ذاتها ، وبعد ، أيها الوادي ، إلام المآل وأيان المصير ؟ نظرة طويلة كالأبد ، نصف دقيقة ، ربما ، شعاع يخطر ويختفي فى ظلامٍ أبيد .

وفى ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠ قالت « البلاغ » إنه عُثِر فى الرّيّاح البحيرى بالقرب من كوم بويللو على جثة امرأة تبيّنَ أنها تُدعىٰ خضرة محمود من أهالى الطّرّانة مركز كفر داود ، وكانت الجثة عارية ومحلوقة الشعر وبها كسر فى الجمجمة من ضربة فأس . وقد تعرّف الأهالي عليها وقرروا بأنها كانت « غندورة » ولكن لم يُعرف عنها سوء السيرة وأنها تركت خمسة أولاد صغار وتحوم الشبهات حول زوجها المدعو حجازى عوضين وهو هارب وتجري التحريات بغية القبض عليه وتباشر النيابة العمومية التحقيق .

ويومها كنا على وشك السفر راجعين إلى الاسكندرية ، أنا وأختي عايده التى ماتت بالتيفود بعدها بسنة ، وأختي هناء التى هربت بعد ذلك بسنين وتزوجت مسلماً لا نعرفه واختفىٰ عنيّ كلُّ أثر لها ، وكانت رِياحٌ باردة ، قارصة وجافة ، تمسح الأزقة المتلوية المتربة ، تصفّر فى الجرن الذى انحسرت عنه المياه وان ظل موحلاً كثيف الطين . وفى السماء غيوم رمادية بطيئة ، وهناك فى العظام برد غير مشبّع وغير بليل .

لم نذهب بعد ذلك للطّرّانة ، أنا وأخواتى ، لأننا ، بعد ضرب البِياصة فى باب سِدْرة بالطوربيد الكبير وتهدُّم الورديان والميدان بين كوم الناضورة وشارع السبع بنات ، هاجرنا الى أخميم فى صيف ١٩٤١ ثم إلى دمنهور طيلة ١٩٤٢ .

قلت : الغَرَق شهادة .

فماذا صار من أمر رحمة ولنده ؟

أما زالتا على قيد الحياة ، فى بلدةٍ ريفية أصبحت الآن مزحومة مكتظة بضجيج التليفزيون والفيديو ، أعرف أنهما غادرتا الطّرّانة من زمان ، أتراهما عانستين مقدّدتين جافّتين تكرران مشهد خالتي روزة وخالتي سالومة ؟ أم تراهما كهلتين متهدمتين لهما أولاد وأحفاد ، صوتهما ثاقب مشروخ ، مُقْعَدة

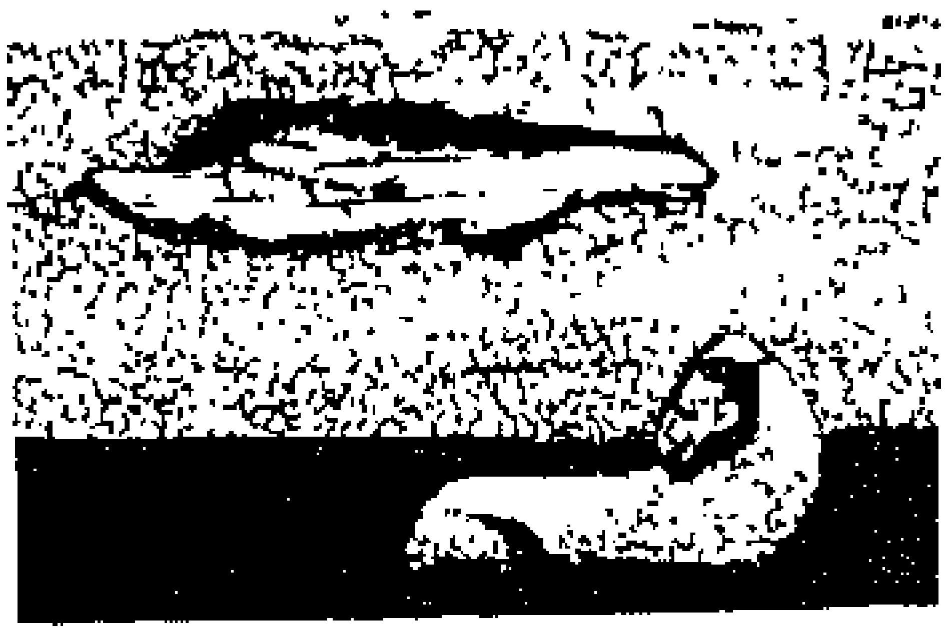

حجارة بوبيللو

الواحدةُ منهما من المرض أم نشطةً متوفّزةُ بحركة العجائز التى لاتهمد ولا تستكين ؟ وكيف تبدوان الآن ، مغضّنتين ممتلئتين باللحم المنهدل المدعوك ؟ أم ناحلتيْن ممصوصتين تستندان إلى عكاكيز ؟ أم هما تحت التراب ، مآلنا جميعا فى نهاية الأمر ، أليس كذلك ؟ ذلك أمر — وإن كنا ننساه — محفوظ مشهور ؛ والتفجّع المأثور .

.

طوارق تقرع القلب .

وبغضّ النظر الآن عن أية رومانسيةٍ محتمَلة أو ممكنة ، عن أية نوستالجيا مقبولة أو مرفوضة ، ستظل رحمة جميلة ورقيقة إلى الأبَد ، وستظل لندة غضّة ومتمردة الجسد .

أما خضرة الشهيدة فقد كنت خبّأت جسدَها فى القلب ، يُشعل لى سِكّة الشهوات ، أبدا ، بنارٍ متجددة لاتنطفىء والروح مشتتة بالشوق العقيم .

إلامَ آلت نصف دقيقة ؟ إلامَ آل نصف قرن من الزمن ؟
هل يَمّحِي أثر الشهوة ؟
وهل يَمّحِي أثر المحبة ؟

(٣) حميدة البرصا

ساعة الظهر فى الطرّانة هى ساعة الوحشة .
يقولون إن العفاريت تطلع فى عزّ الظهر .

أما نحن ، عيال الطرّانة ، الصبيان والبنات ، فإننا لا نخشىٰ طلوع العفاريت ، بل لعلنا نستحثّها ، ونرجو ، بشقاوة مفهومة ومطلوبة ، أن نستفزّها ونرغمها — حتى — على الطلوع ، بالتحدي الصبياني المألوف . طَبّ اطلعوا لنا كده .. ما تطلعوا بَجَىٰ .. آدى الجمل وآدى الجمّال !

فهل كنا حقاً بهذه الشجاعة ، والعفرتة ، فى ليل الطرّانة العتيم ؟

فى ساعة الظهر كان لقاء الخليل ابراهيم مع الملاكَيْن ووعد الرب بأن يولَد لسارة ابنٌ بِكر فى شيخوختها .

فى ساعة الظهر التقىٰ يسوع المسيح ، فى نوره الصاعق ، بشاؤول الطرسوسيّ الذى أصبح رسول المسيحية إلى روما المجيدة ، قيصر كنيستها وواضع شريعتها .

فى ساعة الظهر أيضا كان لقاء يسوع بالمرأة السامرية عند بئر الماء . لا يعطش أبداً مَنْ شرب من هذا الماء . أيّان مِنّي رِيّ العطش ؟

فى ساعة الظهر رُفع على الصليب ودُقت المسامير على الخشبة من خلال

عظام يديه ، من أجل خلاص البشر . أيّان الخلاص ؟

وفى ساعة الظهر كان المعلم شنودة البقال عائداً إلى بيته الذى يطل على الجُرن الوسيع فى سُرّة البلد ، تُظلّله شجرة جميز عريقة عريضة الجذع .

قال إنه رأى فى عرض النيل شيئاً طافيا . كانت منتفخة البطن ، مقلوبة على وجهها ، افترشت الماءَ طرحتها وقد إسوَدَّ لونها ، نصف مغمورة تحت سطح الموج ، وتتقلّب ، قال إنه رأى مايشبه نجمة ذهبية تومض فى الشمس ، مشعّة ونفاذة ، قال ثم دفعها التيار المُدَوّم المضطرب إلى ناحية كفر داود ، النجمة الذهبية كانت تصاحب ذلك الشيء السابح فى التيار نحو الشمال ، قال حلفت برب المجد أنها كانت حميدة البرصا ، قال اللهم إخزِ الشيطان ، وصلّب ، ومَجَّدَ المسيح . والنجمة الذهبية تتألق تزداد سطوعا فى عز الظهر فى قلب السماء قال إنه لم يكن يريد ، حتى ، أن يقول . هبّت عليه لفحة من نتن الجثة الذى لا مثيل لدسامته وقوة ضربته ، قال لم أستطع أن أتحرك ، حتى اختفت .

هأنذا فى المنتصف ؛ إلى جانبٍ منّي ، هناك الشطر البارد المظلم المتحجّر القاسي ؛ وإلى الجانب الآخر ، الشطر الملتهب المنصهر المتألق . اللهم اجعلنى وقوداً للشطر المحترق ، اللهم اجعلنى هشيماً للنصف المشتعل . اللهب ، اللهب ، أريد بقاءً ساطعاً فى اللهب .

لا .

بل أريد الظلام .

يفتننى . أريد نشواته وخفاءه . أحب مخاتلته وخداعه . كأنما بى لهفة لمفازِعِه ، وهواجسه ، وتوجساته ، أحلامه وكوابيسه الرازحة .

الحارة السدّ التي توصّل من بيت خالتي روزه وخالتي سالومه ، إلى

بيت عمي أرسانيوس الملاصق لبيتنا ، تحت النبقة الضخمة العتيقة .

مقفلة مهجورة ، فى عزّ الظهر .
حرّ أغسطس يملؤها بسكونٍ وثقل .

ليس ثم صوت فى هذه الظهيرة الخانقة إلا أزيز ذبابة كبيرة زرقاء ، عنيدة ، مستميتة ، وصوت تهشّم ورق الشجر الجاف المصفر تحت قدميّ .

لماذا أجد نفسي فى هذا المعبر الغلق الذى لا ينتهى إلى مآل ؟ لا يجتاز إلى شيء ؟ فى هذه الساعة النصفية السخنة التى لاتنتهي ، والتراب .

هذه المحرقة ، هذا الانصهار ، على باب الجحيم الزائف المرسوم على حائطٍ مصمت ، لا يفتح — حتىٰ — على هاوية النار بل يحترق فقط بلظاها ، دون نفاذٍ إليها ولا تَرَدّ فيها .

الصمت المُحيق يقطعه فجأة نباحُ كلب غير مرئيّ ، صوت طويل من غير أمل .

كأنه خائف .
كأنه معذَّب بالحرّ ، والوحشة .
كيف يمكن أن تُغْمَر الوحشة فى حُميَّا الجسد ؟
هل هذا ينفيها ، يلغيها ، يغرقها ؟
أبداً ؟

أين حرّ الظهر اللاهب من نور عينيك الأخضر الساري فى الروح بلا انتهاء ؟

ياحبيبتى — هل أنت قد وُجدتِ قط ؟ — أين أنتِ الآن ؟ أم أين أنا ؟ هل حقاً ضربت أيدي الليالي بيننا ؟ أم أن حبنا — حبى — أقوى من أمواج

الليالي ؟

بالضرب الرومانسية الساذجة التي لا برء منها في صميم عظامي .

رأيت حميدة البرصا ـــ فجأة ـــ في آخر الحارة ، تأتي إليّ ، تعرج قليلا في مشيتها البطيئة .

من أين أتت ؟ الحارة عندها سدّ . من أين خرجتْ إذن ؟

كنت أراها أحيانا في بيت عمي أرسانيوس : خضرة قد نادتها إليها ، طمأنت من روعها ، ربتت على كتفها برفق ـــ دون أن تقترب منها جدا ـــ وأعطتها شيئا من طبيخ ـــ مما بقي بعد الغداء ـــ ملوخيّة أو بامية أو رِجْلَه ، وقطعة لحم عنيدة مشتبكة بالعظم والشَغَت ، في طبق صفيح غويط ، مخصوص ، لا نأكل فيه ، ورغيف بتّاوْ جافّ أو رغيفين .

سمعت خضرة تدعوها بحنان : خُدِى كُلِي ياختي ، خُدِي بالهَنَا والشفا ، بالهداوة ياختي . يوه ، ياترىٰ ياهلترىٰ أكلتِ إمتى ياغُنّىً .

وسمعت ردّاً تداغمت فيه الأصوات ، كأنما تموء كحيوان ، كأنما الحنوّ ضَرْبَة ، كأنما فقدتْ القدرة على الكلام من زمان . لكنه كان صوتاً إنسانياً جداً ، ليس حيواناً ذلك الذي يموء من العرفان والجوع .

اقشعرّ جسدي . ونسيته على الفور .

تنتحي حميده البرصا جنب الباب من جُوّه ، بمنأىٰ عن كلاب الحارة ، وقطط القرية النهمة ، وبأصابعها متآكلةِ الأطراف تغمس البتّاوْ في الطبيخ ، وتدفعه بسرعة ولهفة إلى الفم المشقوق ، شفتاها المتقرّحتان المتورّمتان ، لا تكادان تنضمان على اللقمة التي أراها تبتلعها دون مضغ تقريبا ، ترتفع لها تفاحة آدم الواضحة في عنقها ، طرحتها السوداء قد تهدلت حوله ، وعيناها تدوران في شغف الجوع ، ولذة الإشباع ، والخوف من المفاجأة .

متى أكلتْ آخر مرة ؟ وماذا أكلتْ ؟

أحذفُ وجودَها وأنفيه عني .

كما كان أهل الطرّانة كلهم يلغون حضورها ، لا يرونها ، أصلا ، ليست هناك .

البُقَع الفاتحة فى جلد وجهها ويديها ، أنصاف أصابعها البتراء الغليظة ، العُقَد الباهتة المتورّمة فى خدّيها وشفتيها . كانت هى التى تلغيني ، تحذف صباى ، وتقول لى من غير صوت : لا .

لم تكن تخرج من مأواها . مَنْ يعرف أين تبيت ؟ إلام تأوى ؟ فى زريبة مَنْ ؟ تحت أرجل جاموسة مَنْ ؟

على أول المساء تتلصص منسربة ، ملتصقة بالحيطان المبنية من الطوب النيّء والقش وأعواد الذرة الجافة ، تخفي وجهها بطرحتها السوداء التى تبدو معفرة بالتراب ، مغبرة رمادية الأطراف .

خضرة قالت لى إن حميدة البرصا ــ ياوِلْداه ــ لم تكن تغسل طَرْحتها أو هِدْمتها الا بعد غروب الشمس ، تختار مَنْزَلاً وعراً ومتحدّراً للترعة ، بعيداً عن المساقي جاريةِ المياه التى تُملأ منها البلاليص أو تنزل اليها الطيور وتغتسل فيها البقر والجاموس ، بعيداً عن مواقع غسيل الهدوم والمواعين ، التى تختارها وتكرّسها بنات الطرّانة ونسوانها ، يثرثرن ويضحكن ويتغامزن على الرايح والجاىّ ، ويشتغلن بجدّ ، أفخاذهن سمراء مكشوفة ولامعة من ندى الماء المنتثر ، عارية دون حسٍ بالذنب .

بعد عودتنا من وادى النطرون ، وانتهائنا من ترحيلة إعادة رصف شقة من الطريق الصحراوي التى أخذ خالي ناتان عهدتها من المقاول الكبير الذى لم

أعرف اسمه قط ، كنا أمام المعلم شنوده البقال ، فى أول الليل . أنا وخالي ناثان ، وأسعد أفندى ابن أخت عمي سلوانس الصراف . أخرج لنا شنودة مقعدين مدورين ، دون ظهر ، عملهما له خالي سوريال عندما جاء هنا أول الصيف ، وجلس هو على حَجَرة بيضاء كبيرة ، أما كرسي الخيرزان فقد عزم وحلف على خالي ناثان ليأخذه .

كنا نواجه الدكان ، فى الحارة الضيقة ، ووراءنا حائط سدّ طويل متلوٍ ليس فيه منفذ ، حائط بيت الشيخ علوان ، صاحب كُتّاب القرية وإمام مسجدها ومقرئها . وكان يحجز أهل بيته عن عيون القرية ويمنعهم زيارة أهلها ، نصارى ومسلمين على السواء ، يحوّط على كنز هشّ سريع الاشتعال .

كان بيته فى الجانب البَحْري من الطّرّانة الذى يسكنه كل أقباط البلد تقريبا ، فيما عدا بيتان أو ثلاثة .

أما الكنيسة فقد كانت فى الجانب القِبْلي ، فى وسط بيوت المسلمين وأمام السراية .

الجرن المدور الفسيح يربط بين شقّيْ البلد .

جامع القرية كان أيضاً فى طرفها القِبْلي ، يطلّ على الغيطان من ناحية ، وعلى النيل من ناحية أخرى ، والطلمبة الوحيدة فى القرية كانت فى حوش الجامع ، تمدّ الميضة بمائها الرائق الذى كان يصعب قليلاً ترغيته بالصابون .

وكنتَ تأتي إلى الجامع بعد أن تترك دوّار الشيخ عيسى وتعريشة الخشب التى تتعلق بها العنبة العجفاء الناحلة على مصطبته العريضة ، وبعد أن تدور حول سور السراية الكبيرة المرشوق بالزجاج المكسور وشقافة القُلَل والزِلَع ، طالعاً من ماء النيل مباشرة من الناحية الأخرى ، والسراية لا يقيم فيها الا الخواجا أبو أنيس ــ البقية الباقية من عائلة داود ــ وخادمه العجوز حمدان .

هو أيضا لايزور ولا يُلم بّه أحد ، لا يفتح الباب الخشبيّ العريض لأحد ، بعد أن جاء ابنه الذى كان طالباً بمدرسة الطب العليا فى القصر العيني فى المسامحة الصيفية التى فاتت ، وجاء معه برقّاصة من مصر قال إنها زميلته فى الكلية فلما عاد أبو أنيس من دمنهور ، طرد ابنه من السراية ، واستبقى البنت ؛ وأطلق أنيس على نفسه الرصاص ؛ وظلت السراية خاوية على عروشها . لم يكن الشيخ يسمع فى عزلته الا صوت طلقة نار .

وبعد السراية تأتي إلى قبّة الشيخ أبو طاقيّة ، خضراء ، منخفضة ، وحدها على طرف جسر النيل المرتفع ، ولها شبّاك حديديّ نرى منه النعش المكسوّ بحرير أخضر ناصل . الشيخ علوان يوقد المبخرة فى صلاة الجمعة ، ويتبرّك به الناس .

أما طرف القرية البَحْري فقد كان آخر بيت فيه ، يطلّ على الغيطان ، جنب الساقية القديمة المهجورة ، هو بيت الست جِنينة . تعيش فيه وحدها ، بعد أن مات عنها زوجها عمي ميساك البنهاوى ، لا يعرف لها أحدٌ أصلاً ولا فصلا ، سيرتها على كل لسان ، وكلها غَزّ وتنخيس .

عزم عليّ المعلم شنوده بكأس عَرَقي ، سقسقه بالماء فايضّ وكثُف قوامه ، زيتيًا ، كاللبن الحليب ، وفاحت منه رائحة الينسون النفاذة ، وحثني خالي ناثان أن آخذه ، من غير كسوف خُد يابني صَهْلِل ياما عمّك شنوده جُرْبَع خمسينيّات كونياك أوتّار معتبَر من جدّك وياما أكل زَفَر مزغّط من إيد ستّك يالله ياعم حد واخد منها حاجة ان شا الله ماحدّ حوّش إلى آخره إلى آخره . وضحك أسعد أفندي بصفاء وصعد العَرَقي قليلاً — كالعادة — الى رأسي وأحدّ بصري وتيقظ حسي وتوتر جسدي .

عندما خرج إلينا من الغور ، وفى يده رُبْع العَرَقي ، كان لخطواته الثقيلة صدىً فى الفراغ ، وسط الدكان .

الرفوف حوله ، فى عتمة خفيفة ، عليها علب الدخان والسجاير معدن كوتاريللي بالقاروصة ، وبالعلبة ، وفَرْط ، وشاى التموين فى باكوات ورق مسطحة صَفْطَانه صغيرة حمراء ، وعلب أخرى مستطيلة ومكعّبة وطريّة الشكل ، وعلى الرف العلوي أقماع السكّر الكاملة فى غلافها الورق الأزرق ، أما الكَسْر منها فجنب البنك يضربها المعلم شنوده بسنجة الوِقّة المضلّعة فتنبثق منها شرارات حمراء متطايرة من قوة صدمة الحديد بصلابة السكر ناصع البياض . تحتها باكوات الملح فى عبوات ورق رمادي مرسوم عليه أبو الهول . جنبها زجاجات الزيت الفرنساوي تراكَمَ التراب من الخارج على دَسَم زجاجها ، وأقراص اللوف الخشن الملتفّ على نفسه . ومن الناحية الأخرى مكعّبات صابون النابلسي فاروق الصفراء الجافة اسودَّتْ قليلا من الأضلاع الخارجية . أما صفائح الجاز فكانت بجانب الباب ، بعيدٌ متناولها ورائحتها عن سائر البضاعة . لم تكن الرفوف الخشب الخام عامرة . لمبة جاز نمرة خمسة مِدَخْمِسة فى خواء وسط الدكان . على الأرض المتربة أكوام عالية من قوالح الذرة وشوالات الغلّة والشعير والحلبة ، والعيش البتّاو الناشف فى مقطف كبير . صفوف البيض الطازة مرصوصة فى قفص معمول من جريد النخيل ، هذه عُمْلة أهل البلد ، بنك البلد ، ياما قايضت كوز الجاز — بالكوبون — بكوز الذرة ، لستّي أماليا ، وحُقّ الدخان أبو غزالة بثلاث بيضات لجدي ساويرس . وعندما يخرج المعلم شنوده من الدكّانة يرفع البنك الخشب ويتركه يسقط على دعامتيه بخبطة قوية .

قَدَّرْتَ لى سبيلاً على الأرض ، ليتنى أتألق فى جوهرك .

يا أم الاله ، ياذات الأسماء التى لا تُحصىٰ ، ياموئلي ، لا أعرفك أيتها الغريبة ، أُنكرك . أنتِ فِيَّ ، كلَّ لحظة ، تعاساتى لا نهاية لها ياسيدة القُرَىٰ المولودة ناضجةً كاملة فى القوقعة نيمفيّة البحر الكبير إيزه عشتار مريم رامة اشفعي لي ، بحقّ الأنّات التي لا يُنْطق بها . دفنتُ وجهي فى ظلامكِ

الطبعة الأولى ، ١٩٩٣
© دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع محمد صدقى ، من شارع هدى شعراوى
باب اللوق ، القاهرة
ت ٣٩٢٠٣٣٥

لوحة الغلاف :
حفر على الزنك
للفنان أحمد مرسى
الصورة الفوتوغرافية على الغلاف الأخير :
أيمن الخراط
تصميم الغلاف والإشراف الفنى على الكتاب :
محيى الدين اللباد

الذي يسطع بنورٍ أكثر تألقا من كل أنوار الأرض والسماء .

نور معموديّتي الثانية موسيقى الأمواج تصدر عن جدران المقبرة تحت شجرة الدُوم القردُ القدسيّ لا أراه أعرف أنه جاثم بلا حراك بين سَعَفِها الدائري المجدول صلاةُ تطهير للآثام الثقيلة ماضيةً وآتية بزوغُ القمر الوليد .

وفى حموة العَرَقي الخفيفة كان حضورها الذى يمر أمامنا ، قوياً وكأنه تهديد ، تحت حائط الشيخ علوان الرماديّ القاتم ، فى طراوةِ غبشةِ أول الليل ، تميل على رِجْلها وهى تتسرب حافية ، قدماها المتربتان نصف أصابعهما قد تآكل وسقط ، غلظت جذوعها الباقية وتكوّرت ، عيناها وحدهما نقيّتان متألقتان بنارٍ داخلية ليس فيها غضب ولا مرارة ، أمواج شعرها الناعم المنسدل ، مسرحا ممسدا بعناية ، تحت الطرحة المغبرة باهتة السواد ، مفروشة على ظهرها .

طرياً ودافئا ، مع أنه مطمور فى الرمل منذ أكثر من ألف عام . المجد لك يايسوع قال المعلم شنودة ، كنت هناك وأنا صغير ، مع أبى الله يرحمه ويقدّس روحه ، عندما رفعوه ، قال نضح الجثمان فجأة بالدم وسال الدم على الأكفان الملفوفة حوله ، كتّان أصفر كأنه الحرير ، وكأن جِراح الاستشهاد مفتوحة مازالت ، تنزف ، قال ، تخلّلتْ رقائق الزنك التى تحيط بصندوقه ، وتفتّت خشب الصندوق بمجرد أن رُفع فى الهواء ، واستحال مسحوقاً من رماد باهت ، ولكن بقيت علامات الصليب المرسومة على لفائف الكتّان لم يمسسها البلىٰ ولا أصاب فتائلها عطب ، قال ، كل الدفائن حوله سقطتْ عِظاماً مفككة متناثرة ، وبقيَ جثمان الشهيد سليما يضيء وجهُه المكشوف بنورٍ ليس من هذه الأرض ، كأن الروح لم تفارقه بعد ، قال ، رأيته عندما أُخرجوه ، وقبل أن يودعوه صندوقه الجديد المعمول من خشب الجوز الثمين ، سرّاً ، دون أن تعرف الحكومة ، صلّوا عليه صلاة الشهيد ، مساء ، على نور الشمع الكبير ،

وكانت الكنيسة محتشدة بالناس ، لاينِدّ عنهم صوت ، والقداس السِرّي فى عنفوان تقلّبه ، رأيته ، قال ، قويٌ البنيان مازال ، ممتلئاً بالنعمة ، مهيباً ، على قسماته آثار الآلام التى لا توصف ، تجاوَزَها وعبر الى المسيح ، صَفَتْ ملامحه ، وراقت ، نال إكليل الشهادة ، قال .

عثروا تحت بوبيللو على جثمان القديس بساده ، محتفظا بكيانه ، قال .

قلت لكِ : أحتاجُ إلى الشجر ، والسماء ذات الموج الساجي ، والنوارس المنطلقة الصارخة على غَمْر البحر ، لكى أعرف الحرية ، لكى أتخلص من ثقل الدهور بكل مجده وأكاليله .

ليست حريتي محبوسة داخلية مقطوعة عن جسد العالم عن تجلّيات جسد الله . آخذ قربانى فى نور الشمس الفسيح فى سطوعٍ ليلٍ لا نهائيٌ الأفق .

لا . لم أقل لكِ ذلك
لم أقله
لا أقوله
الا ينتهى القِيل والقال ؟
عددتُ صياحَ الديك ، مرتين ، فقط
أظلُ أنتظر الثالثة .

هل أبحثُ عن جسد العالم ، عن تجلّيات جسد الله ، فى جسدك وعجينته ؟

أم أبحثُ عن جسدك تحت بَشَرة السماء الناعمة ، فى عَضَل الشجر ، وفى زهوره الصفراء الساقطة فى تراب الطريق ؟

قال كان جسده أبيض اللون ، نضراً ، قال ، وأبونا أندراوس سكب

عليه قنينة عطر جديدة غالية ، إِسْوَدَّ الجسد على الفور ، كله ، ولكنه ظل على لدونةِ أعضائه وطراوتها . وبقيت في الوجه المُسْوَدّ المنير ، آثارُ كدمات قاتمة ، جرّوه على الأرض أثناء تعذيبه ، جلدوه ، وجذبوه على وجهه من فوق سلّم قصر الوالي وأركبوه بالمقلوب ، دامياً مرضوضاً ، على جاموسة ، وطافوا به شوارع المدينة .

عصبوا عينيه طوال المدة فى طُرة ، فى أبوزعبل ، وضعوا الأسلاك المكهربة فى ذَكَره وحول خصيتيه وعلى حلمتىْ صدره ، كسروا أسنانه بلكمات قوية ، أوقفوه فى الماء البارد عارياً ، وعلّقوه من قدميه حتى فقد الوعى ، وقالوا اعترف .. اعترف .

فى بكين وبرلين ، فى روما وقرطاجنة ، فى لورنزو ماركيز وبيونيس أيريس ، فى دمشق وبغداد ، فى سيول وهانوى ، كلّهم سواء .

الكدمات والتشويهات قد نعمت بالشهادة وكأنها وَسامة مُضافة ، كانت الذراعان منزوعتين عن عظام الكتفين ، وآثار القطران المغليّ المسكوب على رأسه تاجٌ من الشوك . حروق فى الجسم على هيئة سيور غير منتظمة ، والكلّابات الحديد غُرست فى لحمه وعظمه غرسا ، تَرَكَتْ فتحات غائرة ثقوب هلب مَرْكب حادّ الأسنان ، فى الصدر ، ثلاثة أقانيم العذاب والاستشهاد .

الشهداء بلا اسم ولا عدد . بلا مجد ولا نُصُب .
صفوفهم تتوالى تسقط ترتفع بلا انقطاع بلا انقطاع .

فى وحدتي ــ وأنا مع نفسي ــ أجد نفسي دائماً تُسْدِي لكِ الحنانَ والشوق ، من بعيد ، من غير زمن ، وأنا أعرف أن هذا الحنان لن يصلك أبدا ، أعرف أنه يسقط سُدىً مهدراً فى وحشة الغربة المضروبة بيننا . هل

الحب ، والشوق ، دائماً يضيع سُدىً ؟ والعذاب ؟ لا أعرف . هل ترسلين إليَّ ـــ أنتِ ـــ مثل هذا الحب ، هذا الشوق هذ الحنوّ ؟ لا يصلني منك شيء إلا الصمت . ولا منهم ، ولا من أحد .

هواجس اللامبالاة القديمة ، وإرادة القطع ، والخلوص .
الخلوص من الاضطراب والتشكيك والتشعّث .

ورغبةٌ ـــ لك الحقّ فيها ؟ ـــ فى التطهرّ من المرارة التى تتكثّف من صمتي وانقطاعي الذى هو علاقتنا دائماً ، عندما لا نكون معاً ، وأحيانا عند مانكون معاً ، أيضا .

هل يمكن تنقية المرارة بأقراص يبيعها الصيدلي ، كحبّات الأسبرين ؟
حريتي ليست فقط داخلية .

وبصوته المبحوح الخشن الذي يخرج عبر بلغم المعسّل وكُريات الأفيون الدقيقة المعجونة ، مدفونة تحت اللسان ، وهو يحدّق بقصَر نظرٍ واضح ، عبر غبشة أول الليل ، بعينيه الجاحظتين قليلا . وجهه ، مدوراً لحيماً تنقشه خروم رفيعة كنغْز الإبرَ من أثر جدرى قديم ، يمتدّ فى حركةٍ تحديقِه النظر إلى الأمام ، على عنقٍ متين قصير ، كان المعلم شنودة يحكي ـــ دون حرج ـــ حكاية كريمة بنت الشيخ علوان ، جاره الذى لايفتح بابه لأحد .

كانت كريمة تلمّ صفحات قديمة من « الأهرام » التي يقرؤها أبوها ، بايتة ، بعد أن يفرغ منها عمدتنا عباس عيسوى ، وبعد أن يأخذها أهل بيته ، يساعدون بها على وَقِيد الكوانين والفرن ، ثم يرمونها على جنب ، تحملها حميدة البرصا إلى كريمة . وحدها حميدة البرصا تدخل البيوت دون إذن ، ماكان لأحدٍ أن يسألها أو يقترب منها . البَرَص كان حصنها الواقي المنيع ، سورٌ حولها يحيطها بأمانٍ خاص بها وحدها . وكريمة تقطع بالمقص كلمة « محمد » بالبنط

الكبير والصغير سواء ، وتختار قصاصات من كتاب بالصور عنوانه « رسائل غرام جديدة » للأستاذ سليم عبد الأحد ، تسوّيها وتلصقها ، بصمغ تصنعه من قشر شجرة السنط فى حوش بيتهم ، على ورق كراريس كنظام وزارة المعارف العمومية ، وتبعثها ، مع حميدة البرصا ، مراسيل غرام إلى الواد محمد ابن شيخ البلد ، تدسها فى نسخ قديمة منزوعة الغلاف ، اصفرّ ورقها وبليت أركانه ، من روايات الجيب أو روايات المطبعة العصرية لصاحبها إلياس أنطون إلياس من ترجمة المرحوم طانيوس عبده . قال تعلمتُ الكتابة ، قال تعلمتُ الكتابة والقِراية فى المدرسة الأولية فى كفر داود عندما كانت عند أمها التى طلّقها الشيخ علوان بعد أن شاعت عنها وذاعت حكايات — غير مؤكّدة مع ذلك — عن ذهابها فى المغارب — من زمان — وراء الطاحونة ومايحدث هناك فى دِرا الحلفا والهيش ، بين النسوان وبين ولاد البلد العايقين الفسدانين .

غارت الأرض الطينية تحت قدميه ، انزلقت رجلاه فى وحل ليّن مرحِّب طريّ الملمس يجذبه بتوقٍ لا يُردّ ، هل كانت المياه أمواج غضب ، رقرقات اختناق الحلم ، طعم الملح فى عينيه المفتوحتين ، ضرباتها رقيقة لكن قاسية صدره يدرّ بالحنو الموجع وهي بين يديه يدفع برأسها فى العنصر الغريب غير المُعادي وتطاوعه ، ارتفعت المياه دون أن يتطاير لها رشاش حتى وصلت إلى ركبتيه ، يضغط على العظم المدوّر المضلّع النحيل ، وجهها الشائه المضروب قناع نحاس سطحه حارّ فى البلل انحسرت كل عوراته عنه فجأة فى هذا التموّج الخفيف الريش الأسود الحريريّ يغطي يديه ويثيره فينتصب فجأة ولكنه لايقذف ، طرحتها السوداء مفروشة فى الماء تطفو تحت سقف الموج بقليل لا ترتفع إلى سطحه ولا تغوص ، لها حياة خاصة تتقلّب ، استكنّتْ بين ذراعيه وهى ماتزال تتفلّت وتموء قليلاً مواءها المحِبّ الشاكي العارف بالجميل ، أيضعها تحت الماء بيديه العاريتين ؟ قلبه يصرخ صرخة واحدة بإزاء الجسد المنساب ويثوخ فى عمقٍ ساكن مظلم لحظة الاندماج الحميم مع هذا الكيان

الناعم الذى لا اسم له .

سِتّ الخَمَاسين بِتّ غيوم الطرّانة الشتويّة سُحُبُها القاتمة تلقي ظلالاً متموّجة ، ثعابين الماء ، وَرْدتي السوداء شوكتها فى شفتي جرحها مفتوح لايرمّ قلت لن أضمدّه أدع الدم ينزّ حتىٰ مجيء الصبح الذى لا إيذان له بمجيء جارية حاني المبذولة طوعاً أو قسراً ، المومس التى لم يمسسها بشر خصيانكِ يبخّرونك بالصندل والعنبر والطيوب من وراء حِجارة بوبيللو عبق البخور الحرّيف فيه نتن جذّاب يطوّق عنقكِ تطير جبال البخور ودخان المحارق سُحُباً مهدّرة قلت حِجارة فوق حجارة ؟ إلى متى تظل ترتفع الأنقاض ؟ يمامة مقصوصة الجناح ومحلّقة لا تسقط الكبش النطّاح الكبش النطّاح يطاردكِ بلا هوادة يضربكِ بقرنين لا تنكسر حفافيها المدبّبة الجاموسة تمتلىء ضروعها باللبن المشكوك فيه قواملكِ الإلهيّ مضروب بالغوّار صفحة الماء تطفو عليها أوراق البطيخ العريضة أعواد الذرة الناشفة تنْقلب وتدور فى حلقات حاشيتكِ غير المنظورة أوقات النعماء والنكبات كل الرباطات مفكوكة وكل الأنشوطات محلولة نوّار البرتقال فيه بُشرىٰ لَعِب الغرام على المصاطب المظلمة نداء نيران الحطب فى الأفران والكوانين .

من بعيد تتردد فى الأفق صفّارة الاكسبريس الطوّالي كأنما تمتصّ الغيطان قوّتها ويقول جدي ساويرس دون أن يخطيء قولها ولا مرّة : الساعة حداشر ونُصّ ياوْلاد كان ساعة كده عريان افندى البوسطجى حيوصل حَدَانا ويطلب شربة ميّة من البنت خضرة .

رأيت حميدة البرصا تأتى إلىّ ، فى عِزّ الظهر . من أين أتتْ ؟ الحارة عندها سَدّ مقفلة لا منفذ لها . من أين خرجتْ فجأة ؟

اتجهتْ إلىّ مباشرة ، بلا جَوَل . عيناها المتقدتان في عينىّ مباشرة . أعرفها كما يعرف المرء ذات نفسه .

وحدنا ، ليس فى العالم إلا أنا وهي ، فى ساعة الظهر الموحشة الصامتة .
التقىٰ جسمانا بقوةِ صدمة .

أحتضنُها بلهفة ، بكل ما في روحي من نجدة . لا أرىٰ أنفها الأفطس المتآكل ، وفمها المتورم باهت البياض . طويتها فى حضني ، تغمرني رائحتُها النفّاذة الحرّيفة . كنا شيئاً واحداً ، جسماً لا شقّ فيه ، لحظةً بذْل نهائيّ وتماسكٍ لا ينفكّ .

نفرتْ مني فى الأوّل ، خطفةَ برق . ثم أقبلتْ . رجفة الجسم فقط فى إيماءةٍ نأْيٍ لاتكاد تُحَس ، ورعشة الالتصاق . تشبّثتْ . كنت قد اندفعت إليها فى طلْقةٍ حافزٍ لايقاوَم ثم تماسكتُ وتجلدتُ نسيتُ كل شيء .

قبلة تماسّ أقصىٰ لا انفصال له . الشفتان المشقوقتان المتضامّتان بصعوبة جِلدهما الجافّ أحسه عذباً فى عمليةِ صَلْبٍ لا ينتهي .

لم تُغمض عينيها المشتعلتين بنار صفراء مخضرّة . ليس فيهما مرارة ولا غضب ولا طلب للنجدة . وليس فيهما انتصار . أرىٰ عمق نفسي فى هاتين العينين .

دهشت — كأنني فى غيبوبةٍ من نوع ما — رأيت فى أذنيها الدقيقتين قرطاً صغيرا ، نجمة ذهبية ومَضَتْ فى الشمس ثم خبَت . قامتها فى حضني ، مفاجئة طازجة مطواعاً ، أحسست أنها لا تلبس شيئا تحت الجلّابية السوداء الباهتة ، لحمها غضّ طريّ وبكر ، شعرت بهما نهدين قويين على صدري ، صلبين تقريباً . وعرفت ، دفعة واحدة ، قطيعةً كاملةً مع العالم ، توحداً كاملاً بهذا الجسم الحارّ .

ثم انفصلنا ، دون صوت .
قلتُ : القناع . أى إثم يعاقب عليه المرء إذ يُفرَض عليه قناع الجسم .

القناع مخز ، حِجارة منقوضة .

قالت : قامتك أطول منهم جميعا .

قالت ؛ لا لم تكن هى التى قالت : كل هذه الرومانتيكية عندك ؟ أكبر منك بكثير .

كأن القناع الشائه لم يكن قط .

قلتُ : ذلك لايعني شيئا ، أيَّ شيء . لايُثبت ولا ينفي شيئا .

قلتُ : هل أصبحتِ فى عداد الآلهة ؟

لن أقدم إذن قرباني . أنيني .

فى كل عام يرفع حابي بين يديه نهديك الصغيرين ، ناعمين ، ثمرتين غضّتين .

نهديك النيل ماءه الطهور . تلوَّثَ الآن بعوادم المصانع والمخلّفات الكيميائية والفضلات الحيوانية .

أما زهر النرجس النقيّ فقد زيّنتِ به شعركِ المنسدل ، زيت الزيتون قد مسّدته به ، وعسل النحل ولبن الجاموسة . وفى الصيف خمر العنب الصافية .

أنوثتك المخفيّة وذكورتك المُضمَرة أُقنومان لاينفصلان فى جوهر عشقك المشتعل داخل جوهر كأس الكونياك الأصهب الذى لا أنتهي من شُربه مع المعشوق لا يغيض ولا يمتلىء قط دّقات الطبلة الصغيرة وشوشة الطار فى أفراح لم تبدأ هل تستلفين مذاقها ؟ مرميّة بالسهم والقوس حطام رأسكِ مغمورة فى جرن معموديّةٍ لانضوب لها جُرن الطرّانة الذى نشف ماءَه النيليّ الآن واندثرت ذكراه صرخات انتصار الحب هتفات قذف العاشق بالمنيّ المهدور رقّة الريحان ورمليّة العِتْر البلدي معاً مكنونةُ كلها تحت البَشْوِ والعطَب على حافّة الصحراء الغربيّة فى جمّيْ بوبيللو منبسطة بلا نهاية ولدك العتيق الذى لم يأتِ قط ، أدونيسكِ حوركِ يسوعكِ جيفاركِ كلهم ، مصروعين كلّهم ،

لم يزدهرْ حتى التفتّق النهائيّ ولم يذوِ قط .

أصبحتِ في عداد الآلهة : لن أقدّم إذن قرباني وأنيني .
عروس البحر الدفينة تحت القناع الشائه قد شيّدتُ دخيلتي لك داراً ومأوىً قائماً لا ينقض ولا ينهدم . قناع مقتحم ماذا وراءه ؟

قشرة هشّة . القناع ، وما وراءه ، يصبحان واحداً . واحداً ، هما الحاصل الواحد ، دون ازدواج أليس كذلك ؟

أحسه صرحاً شامخاً وأعرف أنه شيء قميء ، أهو محراب ، محراب تقديس أم موطن خطيئة أم هو لا ذاك ولا هذا بل مثوىً كابوسٍ مبتذل ولعله تافه في ساطع الظهيرة في حارة سدّ في قريةٍ رثّة قد راحت قد انقضَتْ .

هذا التفجّع له رنّة الحكمة والعمق والشعر وكأنما ملؤه خبرة السنين .
أقول لنفسي ، طبعا : يَاه ؟ أتظن ذلك ؟ ياسلام ! لكنه في آخر الأمر كوميديّ قليلاً وشائع وسوقيّ ومكرور حتى آخر الملل ، أليس كذلك ؟

حَطَب الشِعْر هشّ وجافّ ولا يصلح حتى للوقيد .
شِبَاك الكلمات مخرومة ، لا تحجز شيئا . يسقط السمك عائداً للبحر ميّتا . ليس عندى شَبَك . الشَبَك هو نفسه السَمَك .
قوقعة ضيّقة الفوّهة ، مجوّفة ، مدوّرة ناعمة البطن ، تطنّ بوشيشٍ غير مقروءٍ ولا مُؤوَّل .

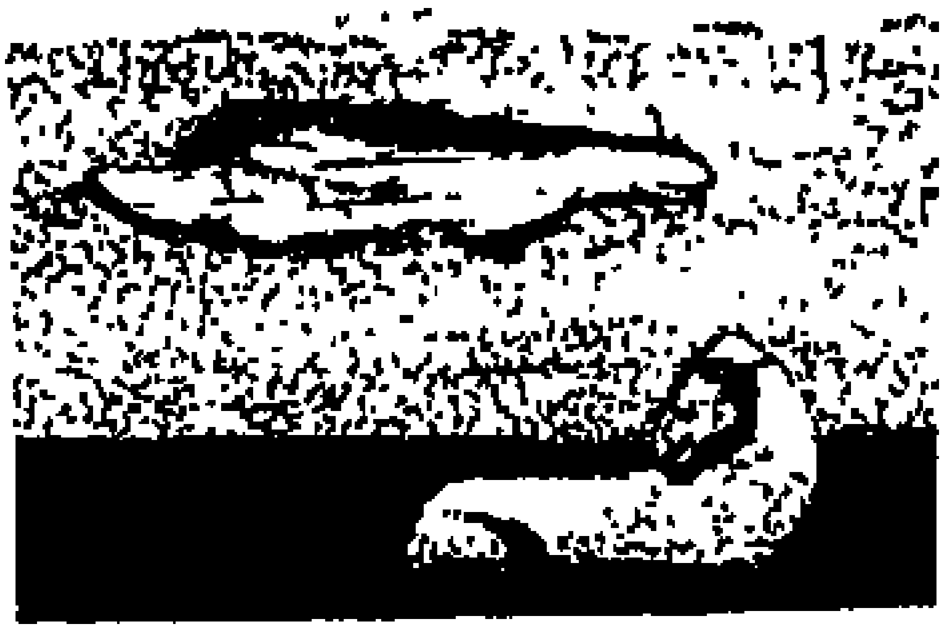

حجارة بوبيللو

إدوار الخراط

دار شرقيات للنشر والتوزيع

(٤) نافذة علوية زرقاء الزجاج

هذه الحياة تبدو جميلة هادئة فى إحدى لحظات الرقة ، والمرء يستيقظ من غفوة الظهر فيجد سماء الأصيل واسعة رصينة فى زرقتها الناعمة والريح تهبّ منها على الروح ، والشمس دافئة ليست حارّة ولا رازحة ، والأطفال يلعبون ويصرخون فى الشارع المزدحم .

والمرء حين يجد هذه السماء الناعمة والطيور السريعة ترتفع فيها ، وتذهب مائلة منخفضة فوق البيوت المشمسة ، ويجد أن هذا العالم كله لايساوى شيئاً الا جمال لحظة ، حنوّ هبوب الريح الصغيرة ، رفرفة الطيور ، ضجّة المدينة السابحة فى شمس العصر ، عندئذ يحس المرء ، لحظة ، بالسلام يمر بقلبه ، يوحى إليه بوداعة هادئة فى استسلامها وقبولها للمأساة — من غير رضىً بها — وفى أسى لا ثورة فيه الآن ، ولا دموع ، ولا سخرية ولا صخب ، بل صمت كالذى يأتى فى موسيقىً جميلة .

كم أريد أن أجد ، فى طريقى ، أكثر قليلاً من هذه اللحظات ، الهدوء الذى يتقبل الجمال فى السماء ويتقبل صمت الوحدة لا غضب فيه ، ولا يَشقىً من معنىً المأساة وما يتقلّب من الضيق بحياة الآلاف والملايين يعيشون فى تراب الحياة المدقع ؛ ولا تنحرف به امتدادات ناهشة طفيلية من الهواجس والأفكار .

لكنها قليلة هذه اللحظات .

من خمس أو ست سنوات كنت أذهب كل عصريّة إلى الجزيرة الرمليّة المنسية فى النيل ، تطفو كل سنة ثم يغرقها الفيضان ، وينحسر عنها . أنام على الرملة بعد الغروب ، عيناى معلّقتان بهذه السماء الزرقاء نفسها عميقة بزرقة الغسق . أحلم بحب عظيم وأسميه نبيلاً ، بصداقات راسخة تتحدى صروف الزمن ، بأعمال شاهقة ، بروج أحلام . لم أكن عندئذ أعرف السلام .. أو أظن ذلك . لم أكن أعرف معنى أن يتقبل المرء المأساة . هل أعرفه الآن ؟ كنت فيما أذكر أنزوي فى ركن مظلم — فى الغرفة المقفلة فى بيت جدّي ساويرس ، أو فى ناحية معتمة من الروح ، سواء — وكنت أبكي كطفل يتمزق قلبه بضربات عاصفة وجامحة . ألم أكن — ألم أزل — هذا الطفل ؟ أبكي لأن رحمة ، أو لندة ، (هل كنت أعرف أيهما ، أنا ؟ كنت أعتقد أننى أحبها ، أما زلت اعتقد أننى أحب أيهما ، كليهما ؟) لم تكن رقيقةً إلىّ ، ولم تكن تعرفني . (طلبي الحنو والمعرفة لا ينقضي ، للأسف) . ولأن أحداً فى الوجود لم يكن يعرف أسرار أحلامى ، لأن أحداً لم يكن يستطيع أن يحب ضوء القمر كما أحبه ، وأن ينصت إلى هدير أمواج النيل معي ، وينصت معي أيضاً إلى الضجيج الذى يفور ويتقلّب فى داخلى .

أو هكذا كنت أظن .

لكن البكاء حقيقي ، ولاذعٌ جدا .

فى ظلمة الدموع أعرف فى داخلي أن الوحشة لا تطاق . وأن الصمت جائع ، لا ينتهي أبدا .

فى العصر إذن كنت أترك الطرانة المتربة الصغيرة نحو جزيرتي هذه الرملية — كأنها وجدت من أجلي — فى وقدة شمس العصر مندفعاً لا أحتمل ركود البلد الحارة وإصرار صفّارة الطاحونة فى رتابتها تصمت وتصرخ فى الفراغ تصمت وتصرخ تصمت وتصرخ باستمرار وعناد كأنما ركبها جنون فى

حرّ العصر ، فيم يهمني أنا أن الناس تطحن غلّتها وشعيرها وحلْبتها وأن المعايشْ صعبة على كل حال ؟

أفرّ ، أجري تقريباً ، إلى حضن النيل القديم ، أعبر المخاضة الضحلة ، أرفع ذيل الجلابية وأنا ماسك شبشبي بيدي ، أحاذر أن أطبّ في نقرة غويطة وأن يبتل لباسي ، وأتلمس موقع قدميّ عبر الماء الرقراق شفّاف الصفاء .

أتوه في الجزيرة الرملية التي ليس فيها أحد غيري ، وليس فيها إلا زراعات بطيخ صيفي تنضج على مهل وحدها ويسحرني تأمل الحبّات الضخمة الخضراء قائمة تغوص في الرملة تقريباً ومخفيّة تحت الورق الزاحف العريض ، اخترت واحدة (صغيرة) منها ، مرّة ، فقشتها بيدي ، كانت هشّة المكسر ، ونحتّها بأسناني وكانت نصف حلوة ولم تستوِ تماماً ، ورميت القشر بعيداً بعزم مافيّ ، في أعمق جبّة في النيل طُلتها .

أذرع جزيرتي ، تغوص قدماى الحافيتان في الرمل الأبيض الناعم الذرّات ، ثم أجري خلف الطيور الزرقاء التي تطير منخفضة ألاحقها يخيّل إليّ أنها في متناول اليد ليس على إلا أن أمدّ ذراعى فأقتنصها لكنها تفلت مني — ألا تفلت دائما ؟ — صورة طائرة في حلم ، تندفع ، ومضات خاطفة ، زرقاء وجميلة ، تنخفض كأنما تراودني عن قصد ، أجْري خلفها واثقاً كل الثقة الآن أنني لن أظفر بواحدة منها قطّ ، أحب أن أجري خلفها فقط ، أملأ عيني ونفسي بها ، وبالسماء التي ترتفع إليها الطيور المندفعة فجأة ، وتهبط فيها بسرعة وصمت ، نغمات حية زرقاء مرميّة من السماء .

فإذا شعرت بالانهاك ، وانخطف نَفَسي تماما ، ارتميت على الرمل الأبيض ، وأخذت أحفر في الرمال بيدي ، حتى تظهر المياه ، تنزّ طبقة كالغشاء فوق الرمل ، بحيرات صغيرة من المياه الصافية في فجوات الرمال ، أقيم

حولها ، بطفولة ، سدوداً وجسوراً ، أردم البحيرات ، أصنع غيرها ، أحلم وقد أوشك المغرب أن يحلّ بي ، ثمة أنوار صغيرة محمرّة تظهر من الطرّانة ، عبر جسر النيل .

في تلك الأيام لم أكن أعرف معنىٰ السلام .
هل أنا الآن أعرفه ؟ هل عرفته قط ؟

كنت ملء نفسى أحلام صبيانية فى نبلها ــ سذاجتها ، وأحلام بشعة قاسية ، تنبثق من حرارة النفس وحُميًا الجسد الذى يضرب شرنقة الطفولة ويغوص أولىٰ موجات ذكورته .

الآن وهواء اسكندرية ، فى راغب باشا ، يشتدّ قليلا ، السماء تعمق زرقتها التى لا مثيل لها ، وينحدر النهار نحو المغيب ، لم أعد أحس هذا السلام الا عابراً ، ضيفاً يلقي تحية من على الطريق ، ويمضى كالثلاثة ملائكة الذين زاروا إبراهيم العجوز ، أكلوا تحت خيمته ، وبشّروه ، ومضوا فى طريقهم . كان من بينهم الرب .

فى الظهر كنت راجعاً مع شفيق بسطوروس وأحمد صبري ووديع بطرس . أحس بالثقل القديم العنيد يرزح فى نفسى ، ثقل فى كل شيء لايدع شيئاً الا ركوداً ساقطاً على قلبي . وهم يضحكون ضحكاتهم المقلوبة تلك ، شهقات الشقاء الذى يريد أن يفرّ من ذاته ، زفرات تأكيد الذات تلتقط هواء حياتها من قلب زحمة الحياة ، تشهق وتضحك لأنها تجد حولها تلك العلاقات المقلوبة بين الناس والأشياء ، كل المساخر الصغيرة والكبيرة تُخرج لسانها فى وجه المرء وتُدحرج حملاقيّ عيونها أمامه .

نحن فى ذلك نشقّ الطريق القديم نفسه ، الذى اختططناه لأنفسنا بين ركام بقايا أفكار فجّة وعلاقات شوهاء وصور ماحلة ، لا أحد يهم ، ولن يهم

أحد ، بما يحدث أو سيحدث ، بما حدث أو لم يحدث . كلٌ منا يشق سِكّته المرتجلة — مهما زعم لنفسه — كلٌّ منا وحيد فى ذاته له أحلامه وضحكاته وشهقاته وحيداً إلى الأبد ، وحيداً كالمقضيّ عليه . وحيداً لايهتم بأحد فى النهاية ، ولا يعنى بأحد . أحقًا ؟

ألم يكن مفروضاً أن الصحبة والرفقة — والحب ؟ — تقضي على هذه الوحشة ؟

لماذا هذه العلاقات ، إذن ، تزيد عبء الوحشة ؟

فى وحشتي وفى لحظات السلام النادرة أُحس دائما بأنه معي . ولكنه احتمل ثقل وحشته — هو — حتى النهاية وأزاح بيده كل هذا العبء ، ومضى .

رصاصة من مسدس صغير كأنه لعبة : أنا هارب من الشقاء . رأيتها اليوم صباحاً ، ومررت بيدى على شعرها . ولمست جبينها بشفتى ، أحسستُ ما بنفسى ، واختلجت عيناها ، وخفت أن أبكي . لا تتركها أبداً ياإبدوي وارعها من أجلي فهى تعسة وأنا أعبدها . منير . الجمعة ١٩٤٥/٥/٢٠ أنا هارب من الشقاء ..

أما أنا فلست أملك هذا .

ليس لى إلا أن أنظر إلى لحظة الهرب من الشقاء ، كما ينظر المرء إلى حلم من أحلامه القديمة . لن يتحقق بإرادته . ليست بيدي هذه اللحظة الأخيرة . عليَّ فقط أن أنتظر ، صامتاً ، أعمل وأشهق بالضحك . أجري خلف طيور زرقاء لن أمسك بها قط ، وأرتمي فى غسق المغرب منهكاً مازلت أحلم . وعند الليل شقياً وموحشاً أبكي فى الظلمة .

قال رجل البوليس للمجرم عندما قبض عليه أخيراً ، فشكا وبكى :

قال :

ـــ ياعيني . قطّعت قلبي ..

أضغط على رقبتها الصغيرة الملساء بكل قوّتي ، بكل عزمي ألتصق بكل استدارة فيها سعيداً على نحوٍ ما في حضنها المبتلّ نطفو معا في تموّج واحد متماسك لحمها تحت يدي فيه بضاضة جديدة طازجة تومض في عتمة الماء نجمة ذهبية وحيدة تتقلّب في اهتزاز الموج البطيء والماء قابض وضحضاح نخبط بالأذرع ولا رشاش هناك لم أصدق عينيّ وإن كنت أعرف في صميمي أن ذلك محتوم قلت الغرق شهادة الحرق شهادة حبّة لامعة في الأذن الصغيرة مازالت نقية محتفظة بكل نقائها في هلوسات الطين يرتفع الماء فوق رأسي يرتفع حتى يصل إلى عنان السماء تدور ذراعاى حول جسمها أغوص بها أحتضنها في صدري القبلة الآن لا فكاك منها أذوق طعمها الطينيّ فيه حلاوة خفيفة صامتة أحب هذا الغرق لا أنجو منه علّمني حسي بفقدانك أننا نحب وحدنا كما نموت وحدنا غاصت قدماى في الطين الرخو بصمت لم أخرج منه .

لا بل كنت أخرج في الظهر ، أضرب في السكك الترابية الضيقة بين غيطان الذرة والقطن والبرسيم ، رائحة الخضرة الساخنة تفغمنى ، أسير بلا نهاية ولا هدف ، أدور وأتلوىٰ مع الطرقات ، غيطان الذرة عالية محتشدة بالأعواد المثقلة بالورق والكيزان التى تنضج على مهل ، والتراب ، عالية ومتقاربة أكاد أغرق في حُوشيّة زروعها أشقّ فيها طريقي بالكاد ، أمرّ جنب المساقي ، على حفافي القنوات الصغيرة ، وعلى شطّ الرّيّاح الكبير ، ماؤه منخفض وبطيء ومخضرّ قليلا ، غائر تحت الجسر ، في حموة الشراقي ، ساعة الظُهريّة المحرقة . حتى أصل إلى النيل .

أنزل من جسر النيل متحدراً متسارع الخطىٰ أكاد أقع ، أعرف هذه البقعة التى تترقرق فيها مياه قليلة الغور ، صافية وزرقاء تقريبا في شفافيتها ،

أخلع الشبشب وأمسكه بيدى مع طرف الجلابية الذى رفعته فوق ركبتيّ بكثير ، أخوض الماء دون أن أثير الرمال على الأرضيّة الناعمة المتماسكة ، أرى قدميّ منكسرتيْن من لعبة الضوء عند حافّة الماء الزجاجيّة تقريبا ، أرتفع مع الأرضيّة قليلاً قليلاً حتى أصل إلى شطّ الجزيرة التي أعتقد فجأة أنها لي وحدى ؛ في رملها المذرور كثيف النعومة وهداتٌ مزروعة بالبطيخ ، أرتمي على الرمل ، أنهج ، في الوحدة الكاملة والصمت الكامل تُوشيه رقرقاتُ الماء يتشرّبه الرمل الذى يدكن لونه من البلل عند الحافة القريبة العميقة ، على الناحية الأخرى من المخاضة الضحلة التى عبرت منها ، هبّات الهواء في وسط النيل ندية وحارة وحلوة كأنها سكّرية الطعم ومُسكِرة نوعاً ما .

أقف فجأة ، أتسلل بخطىً مسترَقةٍ وراء عصفور أزرق طويل الجناحين لا أعرف اسمه ، أخطو إليه بخفّة وسكون ، أريد أن أمسكه ، بطير فجأة أمامي ، ثابت الجناحين بزرقتهما بريشهما الذى لايكاد يتحرك ، وكأنه شفّاف ، واذا سربٌ من الطيور الزرق تخلّق معه ، مندفعة إلى الشاطىء الآخر ، مرتفعة إلى السماء ، ريشها الزمرديّ يتماوج في طيرانها معاً ، رفرفتها من غير صوت ، انطلاقاتُ أحلام وأشواق ومحبّات غير معروفة بعد ، لم أمسك بها قط .

طرقتْ الخيالات بابى ، لم أفتحْ لها ، بل ماج بى الشوق ، واضطرب .

أعرف أنه سوف يُنضيني ويُضنيني خيالُك الذى يطرقني بالليل والنهار ، يُشجيني ويُؤسيني ، فماذا أفعل ؟ أتحمله ، على الكلال . بل أستدعيه . لا ، لست أستعذب الوجيعة ولا أُطيق اقتراب الألم منّي ، فكيف إذ يُطبِق ، ولا يمضي ؟

« طال بى الحبس » صريع الغواني أم صريع الأشواق المحلّقة .

ماذا أستطيع أن أعطيكِ ؟

كيف أستطيع أن أمد للكِ يد الحب ، فى وحشتكِ ، وربما دهشتك ؟

سيقول لي عمي ميخائيل : جئت لها وجاءت لى بعد أن أوشك النهار أن ينتهي . بعد أن بنيتُ العمر فى غير أرضها ، ولا أرضي ، فليس لي من أرض ولا مأوىٰ . بعد أن أوشكت يدي أن تكون صفراً من كل شيء ، من غير حسرة ، من غير وجع .

سيقول لي : ليس هناك الا هذا الحب الغريب الذى يعمر غرفة البيت القصوىٰ المقفلة ، الغرفة الأربعين .

ماجدواه للكِ ؟ أيّ سَنَد للكِ فيه ؟ أريد أن أسديكِ أمناً وعوناً ونجدة . لكني لا أعرف هل أنت حقاً بحاجةٍ إليها ؟ نجدة غير مطلوبة ، وربما غير ضرورية .

إلى آخره . إلى آخره .

وسوف أقول : قبلة البدء هى أيضا قبلة النهاية ، ربما ؟
قبلة البرء هى أيضا قبلة العطب الأخير ، ربما ؟

ولعلني قلت ، أو لم أقل : الذى قال هذا رجلٌ يحبكِ ، أنتِ ، عندما كنتِ وجوداً مترَقّباً مستسلَفاً ، من قبل ومن بعد . أنتِ عنده وجودٌ واقعٌ مستحوِذ . أنتِ عندما تكونين وصْلاً ، واستحالة ، ذوْباً فى حضني ، ذكرىٰ وتخيّلاً ، وابتذالاً يومياً ، معا .

وجودكِ الذى ليس لك أنتِ وحدك .
مثل ظل قطة سوداء تحت نافذتي .
قلت : أين منامها ؟
على الأبواب ؟ فى الحوش الترابي ؟ فى العراء ؟ أم فى فرْش وثير مُعَدّ ،

خصيصاً ، ودفيء ؟

في آخر أيام الشراقي ، عندما يرتفع ماء النيل في تلك البقعة من النيل ، إذا رفعت جلابيتي حتى وسطي ، وخضت الماء حتى يبتل لباسي ، أستطيع أن أعبر إلى الشاطىء الآخر . وأنا أنهج من المغامرة في عتمةٍ تحلّ وشيكاً الآن ، حريصاً على أن أخطو في الموقع الصحيح تماماً وإلا غاصت بي ساقاي في مغاور قاع النهر التي لا أراها الآن عبر الماء المضطرب .

أعود من مغامرتي التي لا يعرف أحد ماهي ، منهكاً متربا ومبللاً ، نسيت الأكل ونسيت ماسوف ألقىٰ من ستي أماليا : ياهوي ياهوي مال وشّك مخطوف كده ياواد ؟ دا لونك ولا البفتة البيضا . ياخواتي . أعمل فيك إيه يابن سوسن ؟ هو أنا حاخلّص من أمّك ياواد ، وحاروح فين من أبوك ؟ ياواد اهمذ بقىٰ وكِنّ هو أنا حافضل انبخ في حسي لإمتىٰ ؟ طبْ تعالَ ، تعالَ . غيَّر هدومك وكُلْ لك لقمة .

وتحيطني بذراعيها الضاويتين اللتين تسَعَان حنانَ الأرض كلها ، وهي تحضر لي رغيف البتّاو ، طرياً ، سخناً ، بالزبدة الطازة التي تكاد تسيل على سطحه المحمر الفوّاح .

عندما كنت عائداً ، ليلتها ، أخذت الطريق الطوّالي من وراء الطاحونة ، حتى لا أدور في الغيطان . كانت العتمة قد ضربت ، ونباح الكلاب موحش ، وكأنما في البعد عواء يجمّد الدم ـــ مَنْ يدريني ماهو ؟ أهو ضبيح ضباع أم وعوعة ذئب ؟

في الهيش والحلفا المرعرعة ، وراء الطاحونة ، حدست حضوراً غير غريب .

تأوّهات المرأة الشبقة وهتفاتها المكبوحة : آه ياني .. آه .. ياويلي

ياسواد ليلي . أوعىٰ عليَّ ياخويا بالراحة ، من غِير هَبْش ياوَله جاك هَبْشة .. آه ياني . وزحير الرجل الذى ينهج بصوتٍ أجشّ خشن . أصوات الليل والعهر ، أنين اللذة المنتزَعة وقسوة النشوة المبحوحة ، كانت أرعبَ عندي من عواء الوحوش التى لا أعرف ماهي .

لحقتْ بي ، من وراء الطاحونة ، وسبقتني . لم أر وجهها فى الظلام ، لايبدو فى مشيتها أنها خَجلة ، ولا هى متأثمة ، ولا شيء ، طبيعية جداً فيما خيل اليّ ، الرضىٰ الجسديّ غير واعٍ ، حتىٰ ، بأنه رضىٰ أو شبع أو اكتفاء ، هو ذات الجسم ، مسلّما به ، غير مدرّك ولا موضع للتفكير فيه ، قفّة الطحين على رأسها ، موزونة فى إيقاع خطواتها الهادئة الواثقة ، طرحتها عليها هباء أبيض من الطحين وباهت من تراب الأرض — هذا لمحته بسرعة — قائمة العود ، لا همّ لها ، كمن فرغ لتوه من قضاء حاجة أو أداء شغلة ، وارتاح . لم يعلق ببالها شيء .

كنت قد عدت من الطرانة ، سَنَتَها ، وكانت أشعار شيلي وكيتس تؤنسنى فى الغرفة المطلة على حارَة الجلّنار . كنت قد أُنسيت الآن نوافذها العلوية الصغيرة ، تحت السقف مباشرة ، كوىٰ زجاجية لا ضُلَّف لها ، زجاجها أبيض وأزرق فيروزي ، وأصفر . يتقطّر منها ضوء سماويّ دائم ، ناعم وخاص . يُشيع فى الغرفة سكينةً عذبة الجوّ ، أنيسة المعشر . تبدو لي هذه الغرفة الآن شديدة الفقر والرثاثة ، ولكنها غير منفّرة ، بل كلّ نفسي حنانٌ لها .

وحتى فى الليل كان نور مصباح الشارع يُنَعِّم من خشونتها التى لم أكن أحسها ، حتى . كان شِعْرِي يرقّق حواشيها ويُطرّيها .

فى هذا الضوء ، نهارياً وليليّا ، كتبت أولى أشعاري على مائدتي الرخامية العريقة بسيقانها الخشبيّة المشغولة التى نقر فيها سوسٌ قديم ومندثر ، خروماً

دقيقة كثيرة ، رخامها الأبيض الرمادي فى القرص البيضاوى متعرّج الشرايين . مازالت قائمة ، ماثلة حتى الآن . الكنبة الطويلة مغطاة بفَرْش خشن وملوَّن فوق المرتبة القطنية صلبة القوام شيئاً ما ، هى كما كانت تماماً من أربعين خمسين سنة ، ينام عليها الآن متولي مبروك اللبّان الذى يدور يوزّع اللبن على شوارع غيط العنب وراغب باشا ، أقساط اللبن الضخمة والوسطىٰ والصغيرة ، قديمة اللون ، معلّقة بالترتيب على البسكليتة التي يركنها تحت السلّم الحجريّ ، وقد حلّ محلَّ السلّم الخشبيّ طالما انتظرت مُنَىٰ تحته فى العتمة ، مُنَىٰ ممتلئة الشفتين نائئة السنّ تحت شفتها العلوية ، طالما حلمت بقبلةٍ على فمها الواسع الناعم حارّ الشكل ، لم أعرفها قط ، هذه القبلة ، ولكن عرفت الموت والهجر والنكران ، وهو الطبيعيّ والعاديّ والمألوف المتوقَّع ، من غير ضجّة ولا صخب .

وعلى الباب أسمع المرأة تهتف بجارتها فى الحارَة ، وهى تطلّ من النافذة التى تقابل نوافذي الزجاجيّة القديمة ، وتحلف بملء عقيرتها ، بصوتها الحيّاني : ان شالله ينْزِل لي بالسمّ الهاري لو كنت رميت قشر البطّيخ اللى اتزحلق عليه الواد ابنك اسم الله عليه ، ياختي دا حتىٰ مادخلْش بيتنا السّنَه دي ؛ وعندما أسألها هل هى تذكر سُكّان هذا البيت من خمسين سنة ، الستّ أم محمود ، وبناتها جَمّالات ومُنَىٰ ؟ تضحك ، فى غَنْدرة لا محل لها ، عن فمٍ أدرد تآكلت نواجذه وتقول : أيوّه .. خمسين سنة ؟ هو انتَ فاكرْنى عجوزة ولا إيه ؟ دا بَسّ الهمّ اللى أكلْنى ياخويا . مُنَى ؟ وجَمّالات ؟ أمّ محمود ؟ والنبي ماشفتهم ولا عرفتهم . آل اللى يعرفك مايجهلك !

والجارة من نافذتها العلويّة ، صدرها الضخم مدلوق ومدكوك على إطار الشبّاك ، تصرخ بصوت ملسوع بالولد يجري بعيداً عنها فى الحارة : ياود مِش انتَ اللي شُفت خالتك أم سيّد بترمي قشر البطيخ ؟ ماتردّ ياواد يامقصوف الرقبة ، رُدّ ، ردّتْ المَيّه فى زورك . مش انت اللى قلت ياواد ؟

كان قد رفع جلابيته عن مؤخرةٍ عارية سوداء الجلد ، وفرّ ناحية قمة الشارع الذى كانت نفيسة قد رقدت فيه تومىء ، بفصاحةِ الجسد ، إلى حكاية المضاجعة والتمثيل الايمائيّ لخِلْفه ولّدٍ متوهّم فى حُميّا الردْح لمتىٰ ، ونحن نرقبها مبهوتين .

أما السرير العالى ذو الأعمدة والدوران المشغول بالدانتيللا ، فقد كان فى مكانه ، مازال ، وكأن أبي سيأتي الليلة متأخراً ، ويسهر علىٰ خمسينيّة الكونياك الأصهب ومَزّة شرائح البيض المسلوق المعصور عليه ليمونة ، والجبنة التركي ونسيرة الفرخة . ثم يصعد إلى شقّ ليلته ، وعشقها ، على هذا السرير ، بينما أسهر فى الغرفة الداخلية المطلّة على المنور أذاكر ، أقرأ مختار الصحاح ، أترجم الشعر ، أرىٰ المروج الخضر الممتدة حتى الأفق ، وبحيرات الماء الأزرق المثلوج ، بينما قبلة حميدة البرصا مازالت على شفتي ، أرتعدُ بها ، أتّقدُ بها .

من قوىٰ هذه الأرض الغَمِقة عائرة الخصوبة ، تُخضِعين الناس ، والآلهة ، لسطوتك .

هل تحملين الرّصَد و« العَمَل » فى الحجاب الذى كتبه لك عمي الشيخ علوان بماء البصل والحبر الأحمر والأزرق ، بالقلم البَسْط ، على ورقٍ كثيف النسيج ، مطبّق مثلثات مطويّة أحدها على الآخر ، هل تجذبينهم إليكِ ، بلا حِوَل ، مسحورين ، مغمضي العيون والأشواق المحزّزة .

فى جِنينة عم توماس لاوندي تُسقِطين ثمرات الجوافة . فَحْلا رمّانك ينضجان حتى العطن دون أن يستطعم أحدٌ رضابهما . الحبّات الحمراء متحدّرة من الفم المشقوق .

حارسة طِيبة عوراتك متجددة أبدا ، ناعمة ومحرقة ، من جديد ، للشفاه النهمة فى عمىٰ شهوتها الساطع .

ضاربة الرمل هامسة إلى الوَدَع مخزومة الأنف بحَلَق نحاس مشرشر .
قلت : أحفظ عليكِ كبرياءك .
بنت الحبشيّ النجاشي الأحمر ، منبثقة من طمي النيل منذ الدهور .

صاعدةً من قوقعة الظلمة رافعةً ذراعيها طرحتها السوداء الباهتة قد انسلّتْ من كتفيها بانَ عَظْم الترقوة الأبيض الهزيل من خروم الثوب الملبوس على اللحم تتضرع لحنان موسيقىٰ لن تسمعها قط وإن كانت تعرفها فى العمق منذ الأزل السحيق .

أدحضكَ ياأبَ النور فى عتمة سمائيّ تحت نخلة مولدك ، تحت شجرة زيتونك ، أُنكر ملاذي ، أنفي مرجعى نفياً ، آفاقُكَ دارت بي تضيق سدودها ، طائرُ القلب مذبوح على ماء حي يتقطر دمي نقياً وملوّثاً آناً فآن فى وعاء الخزف اللامع المصقول الخارج تواً من الفرن .

بيدي اليمنىٰ أنضح رشّ الماء الحرّ على الوجه المضروب بقبلةٍ أبدية .

ها قد انطلق طيْري بأجنحته الزرقاء محلّقاً فى أجواز السماء المغلقة سبعة أيام بلياليها لا يأوي إلى كِنّ ولا ينتهي منفاه .

ثغاء الخروف الفادي يتردد به الصدىٰ يحمل الثغاء ، كالملاكيْن ، فرخَيْ حمام ، إلى شمسكَ التى تضع قطرة من زيت الميرون على أذني اليمنىٰ على إبهام يدي اليمنىٰ على إبهام قدمي اليمنىٰ طاهرٌ طاهر طاهر ، مايتبقىٰ من الزيت به على رأسي لا حاجة لي به أنفضه عنى أجحده أُوقد من أمشاج روحي محرقةً لاأريد لدخانها أن يرتفع اليكَ بل هو يلتفّ عائداً إلى حشاى .

أُموسيقىٰ الليرا الذهبيّة موسيقىٰ المزمار موسيقىٰ السمسميّة تغسل أدران التوحّد مع عروس النيل فى موتها المائي وانتفاخ بطنها بالموت ؟

ومع كل شيء فليس ثَمَّ تطهير قط لأن الطهارة قائمة أزليّة لم تمسسها قط لوثات الغضب والصَغَار .

ياهلترى إيه اللى انكتبْ للفؤادْ
شُوك الضنىٰ ولاّ عبير الودادْ

هل كانت سينما بلازا ، أم سينما الكوزمو ؟ وهل كان هذا هو مشهد السور الحديديّ الطويل ، قوائمه ، كالرماح ، تتعاقب تحت ضوء البروجكتور المتحرك على الشاريوه ، بقعة نور مستديرة وسط الظلام ، تُلقي ظلالاً متلاحقة على مايبدو أنه غيطان موحشة أو حدائق شاسعة مهجورة ، والصوت الباكي يكوي الروح وهو ، بعد ، طفل : يالوْعتي ياشقاىَ ، ياضنىٰ حالي ، ضاع الأملْ من هَواىَ .. فيم كان الطفل الصبىّ يبكي فى عتمة السينما ؟ ضحّيتْ غرامي ، عشان هَنَاكِ .. أيّ غرامٍ مهتوكٍ ومدمَّر فى غرارة الصبا وروْع اليفاعة الماثلة وانهيار كهولةِ الروح معا ؟

أيّة أوهام تلك التى صاحبتك — وتصاحبك — منذ ذلك العهد السحيق ؟

هل أنت — حقا — من ضيَّع فى الأوهام عمره ؟
أو كما قال ؟
لا أستسلم .. أستسلم .. لغواية اليأس ..
لا .. لا أستسلم ..
أستسلم ..
لا أستسلم ..
لا ..

(٥) الحائط القبلي المهدوم

فى أول صباح حارّ من مسرىٰ ، بعد أن ارتفع النيل وملأ الجُرن ، رأيت المعلم جورجي مقبلاً علينا ، رافعاً رأسه ، كما يفعلون جميعاً . يخبط الأرض بعصاه خبطات منتظمة ، يتحسس السكة بها ، واثقاً عارفاً ولكن شكله قلقِ ومنذر ، وهو يعبر من تحت شجرة النبق العريضة أمام بيت جدي ساويرس .

وقف على الباب ونادىٰ :

ــ ياهْل الله .. يابا ساويرس !

قبل أن يدخل ، يتلمس العتبة بعصاه حريصاً وحافظاً ، ضرب جانبيّ المدخل بعصاه ، وعبر من الباب الخشبي العريض .

قال بصوته الملىء ، الباريتون ، من فوق البطن ، إن الحائط القِبْلي للكنيسة قد سقط اليوم ، الصبح بَدْرِي .

قال إنه رأىٰ ملاك الرب ، نعم رآه ، رآه ساطعاً فى ملكوته . ضرب الجدار ضربة واحدة بسيفه البتار . المجْد للرب . ضربة واحدة مرت فى قلب الحائط الحجرى الكبير . بسرعة . ونعومة .

كانت النار تتقد على حواف السيف العريض . أحسست وأنا راقد فى الحُوش القبلي البراني لفْحها ؛ مالتْ عارفُه يابا ساويرس .

قال إنه أحس لفح النار قبل أن يرتفع السيف الضخم ، ثم رآها . رأى صفحة السيف ممتدة تومض ، مونعة تجرى على وجهها شعاليل صغيرة وتنزلق عليها بفحيح . ثم هَدَّة الضربة القاصمة .

يابا آرساني كانت الضربة ليَّ . ليَّ أنا .

قال إنه سمع حجارة الحائط القديمة الكبيرة تقع ، متدهورة ولها لَجَب متلاحق كالرعد . وعندما قمت على حيلي وذهبت إلى يمّ قِبْلي كان هواء الصبح يهبّ على وجهي حُراً دون عائق ، وعرفت مِن أبونا أن العمود الرخاميّ الذى كان الحائط مبنياً عليه ، قد مال إلى جنب ، وأخذ معه الخزنة الخشب وفيها السنكسار القديم المجلّد بجلد بقر أصلي ، والصور والأيقونات المصلّى عليها ، والأناجيل القبطي والعربي ، راحت تحت الحجر تحت كومة الأنقاض التى ارتفعت مرة واحدة إلى أعلىٰ مما تطوله عصاى . يارب ارحم . كيرياليسون .

قال رأيته يأخذ تاج العمود الضخم كرحىً عظيمة منحوتة ومنقوشة بالخط القديم ، قال رأيته ، ورماه بضربة ذراع واحدة ناحية النيل ؛ سمعت خبطة الماء ، وحصَّلني رذاذه ، سقط فى البحر وارتفعت له نافورة هائلة وظلت الهوّة التى تركها فى سقوطه مفتوحة ، رأيتها ، لم ترجع المياه إلى أصلها ، وكالحصَّاد بمنجله قال ملاك الرب بصوت عظيم هكذا ستُرمىٰ بابل المدينة العظيمة ولن توجد فيما بعد هكذا سوف أطوّح بكل الخطاة إلى الهوّة المفتوحة .

قال الانجيل وحده سوف يجبر المكسور سوف يقيم المعطوب . كانت عيناه جاحظتين ، خلع نظارته السوداء ، لحظة ، كان بياض الحملاقين باهتاً ، ويتقلبان دون هدىً ، دون مركز ، وأعاد النظارة على الفور .

لم نعرف إلا بعدها بساعات عندما عثر الفلاحون بالصدفة على عمي

باسيلي ممدداً دون حراك ، مكسوراً تحت الأنقاض تغطيه الحجارة الكبيرة . فاقد الوعي ، ظننا أنه مفقود الرجاء .

وعندما نقلوه إلى البيت الطيني الصغير في حُوش الكنيسة ، صلّى عليه أبونا اندراوس ، فتح عينيه فقط . قال بصوت ملتبس غير مستبين : جورجي . أخوىَ ولم يتكلم بعدها قط . كانت عيناه فقط تلمعان ، وإن كانت عينه اليمنى قد توقفت في محجرها ، لاتتحرك ، وثقل جفنها . ذراعاه ساقطتان إلى جنبه بلا حياة ، وساقاه ، كلتاهما ، مشلولتان . فاجأتُه ، على الرغم مني ، في غرفة الست جِنينه ، متردياً ومتجمداً في آخر ذلك الصيف . وفي الصيفية التالية عرفت أنه استطاع أن يمشي ، بعنَت ، مستنداً إلى عكّاز مرتجَل معمولٍ كل شي انْ كانْ من فرع جميز عفيّ .

لم يكن المعلم جورجي يعرف أن أخاه كان قد قام من فَرْشته في صُبْحيتّها ، وأن حائط الكنيسة القبلى سقط عليه ، ضربه ملاك الرب كأنه يعاقبه على إثم لم يرتكبه ، أهذا هو مصير الأبرار ؟

عمي باسيلي الطيّب ، الفتيّ ، شديد الأسْر ، هو الذى كان يقوم بذراعيه العفيّتين على فِلاحة القيراطين اللذين تركهما أبوه ، أبا ونجت درباس الكبير . يقوم على معاشه ومعاش عمي جورجي ، مستوريْن الآن ، لم يعد في مُكْنته أن يقوم ، على الإطلاق ، على حِيله ، راح فيها الرجل .

كان محتقنا ، مزروداً بالدم ، وجه المعلم جورجي المكتنز المترهل بجلده المزرقّ أصلاً ، منقوراً بآثار جدري قديم ، عيناه الجاحظتان مبقورتين ونيئتين ، تدور المقلتان من غير رؤية ، وتحس أنهما تتبعانك مع ذلك ، وترصدان كل حركة في داخل نفسك أيضاً . لم يعد فيهما ـــ الآن فقط ـــ حسّ التقحّم والفجور والبذاءة التى عرفتْها فيه ، وقبلتها منه الطرانةُ كلها ، سلّمت له بها ،

من زمان . بل حسّ الروع ، والتوجس ، والمعرفة بالخطيئة .

لا صلة لذلك كله بأنه عريف الكنيسة وكبير الشماسين وحافظ لا تخونه الذاكرة للخولاجي ولألف ترنيمة بالقبطي والعربي ، وأنه هناك حيث يجري كل شيء كبير أو صغير فى الولادة والتنصير وجَبانيّوت الخطوبة وأكليل الزفاف وقُدّاس الجناز ، فى رش الماء المصلّى عليه بعد أربعين الميّت لإراحة الروح من عناء الانفصال وإطلاقها بسلام ، عند تفريق الملبسّ ، وشرب المُغَات وأكْل جسد يسوع وشُرْب دمه ، عند توقيع عقود البيوعات والإيجارات ، بعد جمع القطن ، فى كيل القمح ، عند ذبح الوزّة ، وعِشار الجاموسة ، فى لعب الطاولة والدمينو وعشرة البصرة ، وعندما يأتى حكيم المركز — فى الشديد القوي — أو ضابط النقطة ، على السواء . حضوره فى كل مناسبة وبدون مناسبة ، بعينيه المسدودتين وتلمّظ شفتيه الدهنيتين ، بتعليقاته وحكاياته القبيحة مباشرة اللفظ بالعربي الصريح . شيء يحس الجميع براحة إليه ، بمتعة فيه ، حتى ، كأنها محرَّمة قليلاً ولكنها مسموح بها ومتواضَع عليها لأنها أساسية ، كالمتعة التى تفاجىء يديك وجسمك عندما تقبض على استدارة امرأتك ، المليئة ، مقبّبة ، كالعجين الخمران ، وتغوص فى الليل .

الطرّانة كلّها وكِليلها تتكلم بمتعة دائماً وحس من الفضيحة أحياناً عن أن المعلم جورجي يشاهَد — بجرمه المهول وعصاه الضاربة — كيف لا يُشاهَد ؟ — وهو يدخل وحده ، دون ورع ، بيت الست جِنينه ، وهى وحدها ، دون ورع ، فى أنصاف الليالي — يعنى بعد مغيب الشمس على الحقيقة — وكيف أنه يشاهِده الفلاحون الذاهبون للغيط فى نداوة الصبح البدري ، والعيال السارحون بالمواشي ، والنسوان حاملات الزلَع والبلاليص فى موكبهن المرِح إلى مياه المسقى تحت جسر النيل ، حيث اللوميّة جارية صافية تردّ الروح ، يشهدون أنه خرج من عندها ، قبل طلعة الشمس ، متجهاً يمّ

الكنيسة ، إلى غرفته الطينية التي بناها له أبونا أندراوس . الله يرحمك بقىٰ ياعم ميساك يا بنهاوي ، تموت بالداء الخبيث ــ اسم الصليب يحمينا ــ وتترك هذه المرأة متفجرة بالجسد متوقدة بالشهوة للحياة ، وحدها من غير خلفة ، لم يكن في طوعك أن تخلّف ، لكنك تركت لها الستة فِدْن والقيراطين في جنينة عمي توماس .

كان عمي سلوانس الصرّاف يقول دائماً ياجماعة فُضوّها سيرة بِجَى مَنْ كان منكم بلا خطيئة ... .

فتقول ستي أماليا ، بإصرار وببساطة : ربنا يسامحني في يوم الجِيامة بس الوِليّة دي متفرِجْشِ عن الفواحش . هو الفُجْر يِدّارَىٰ ؟ جال تْلاته ما يستخبوّش العِشْج والحَبَل والركوب ع الجمل .

يردعها جدي ساويرس ، برفق ، لكي تترك الحساب لربّ الحساب . ألله هو وحده الذي يغفر الخطايا ، بشفاعة ستنا مريم ، والقديسين . ابن الإنسان وورثته على الأرض لهم السلطان أيضاً . الإيمان يخلّص ياأم يونان .

ويقول آبا أرساني ، صارم النظرة ومقدّد الخدّين ، يامُّ يونان المجدليّة التي كانت تعيش في الخطيئة سكبت على ساقيْ المسيح قارورة الطيب ، ومسحتهما بشعرها . غفر لها يسوع ، بل كانت أول من ظهر له ، بعد صعوده بالجسد .

فتجيبه دون شرّ ، بل دون سوءٍ أصلاً : ياخْواتِي ! آه منكم يارِجّالَه ! فهل كان في مقصودها أن يسوع كان ، أيضاً ، رجلاً ؟

ذهبنا للكنيسة صباح الأحد التالي ، نحضر القدّاس ، ونتناول ، ونرى بأعيننا الحائط المهدوم .

سرنا عبر طرق الطرّانة الضيقة المتلوية ، تحت النخل العتيق مائل

الجذوع ، والجميز العتيق ، والكافور مشروخ السيقان ، وبيوت الطين العتيق .

كانت لنده ورحمه وخالتي روزه وخالتي سالومة يسبقننا بخطوات ، وإن كانت انحناءات الحارات وحيطان الأحواش المفاجئة تحجبهنّ عنا لحظة ، ثم تكشف عن حضورهن ، على غير توقع ، أمامنا مباشرة ، كأنما بسحرٍ صباحيّ .

أجيء أنا وراءهن ، ومعى خالتي سارة وخالتي وديدة ، وجدي ساويرس مهيباً ، عصاه السميكة قوية العَضَل تدق الأرض تثير تراباً خفيفاً عند كل ضربة . ستي أَمَالْيا بقيت فى البيت تعدّ غداء الأحد ، طبيخ بالزَّفَر ، مخصوص .

فستان لنده المشجَّر الأصفر منقوشاً بزهور حمراء دقيقة منسدلٌ عليها بانسياب . أدهشنى وأثارنى — على الصبح — أنه كان ضيقاً ، نوعاً ما ، على ردفيها ، ثم ينبسط إلى كورنيش تحتانيّ به كشكشة واسعة فوق القدمين مباشرة ، وهى تسير بحيوية وتوفُّز ، وواضحٌ أنها غير معتادة على المشي بحذائها الرجاليّ الغالي البُنّي . كانت دائماً بالشبشب ، وأحياناً حافية بجرأة ودون تورّع .

وكانت تتأخر عن الموكب النسائي السحري ، قليلاً ، وترميني بنظرة سريعة متواطئة ، أو أتوهمها .

وعيال الفلاحين ينظرون إلينا بفضول طفوليّ ، ونزوعٍ للعفرته يكبحه مجرد وجود جدي ساويرس ، بقامته الطويلة الشامخة ، لا ينظر لأحد .

كانت الحجارة الساقطة قد سدت الحَارّة الخلفية وراء الكنيسة ، وقطعت السكة على السراية . وكان العيال يتسلقون الكومة العالية المضطربة وهم يتنادون بأصوات فرحة ومستثارة ، وينزلون من الناحية الأخرىٰ ، تحت

محفورات :

أحمد مرسى

سور حوش الكنيسة ، من الخارج .

كانت الفجوة الكبيرة التى تشق الحائط القِبلي شقين ، قد شُدّت عليها صفحةٌ كبيرة من قماش الخياميّة الذى تقام به سرادقات الأفراح والمآتم على السواء ، جاء به أبونا أندراوس من كفر داود ، منقوشاً بالأحمر والأزرق بتخطيطات الأرابيسك ، فى قلب كل وحدة من التفريعات يتكرر « الله » بالخيط الأبيض المغبرّ قليلاً ، فتائله كثيفة وبارزة قليلاً ، القماش مسنود إلى عوارض خشبية مائلة نوعاً ما ، يخفى كومة الحجارة ، ويتسلل من حواليه نور النهار الخارجى الذى يضع إطاراً غريباً ودنيوياً حول حوافّ القماش فى عتمة صحن الكنيسة الفسيح . هالات الشموع الكبيرة المفردة ، تؤكد نسيج هذه العتمة الأخرويّ الهفهاف . تنتثر فيها تفاريق ومجاميع الشموع الصغيرة المتزاحمة ، معلّقة فى نجفات خشبية عريقة ومشقّقة بخطوطِ العراقة .

كنا نحن الرجال القليلين إلى يمين الكنيسة ، أما النساء فقد غطين رؤوسهن بالمناديل والطُرَح ، وعلى رغم الحرّ كانت أكمامهن — كلهن — طويلة ، وأثوابهن سابغة ، وكانت ظلال أهدابهن ، فى نور الشموع الرفيق ، مفروشة على الخدود الناعمة ، وترقّق جفاف عِظام العجائز منهن .

ياربّ أنت تعرف ضعفي ونقصي وخطاياىَ فبنعمتك اسندني واسند كل الخطاة بقوّتك آزرني وشددني وكل الخطاة إن حاربتُ وحدي وانتصرت على الشيطان وحدي فقد يصيبنى عوار العُجب والكِبر فأسقط فى هوّة النار التى لا قرار لها وتغيّبني لجّة اليمّ المفتوحْ سَرْبلْنى يارب بثوب البرّ واكسني بإزار العفّة يارب من فرط مراحمك أن تغطينى بنعمتك فأعرف ضيقة نفسي ونجاسة قلبي وفساد طبيعتي وإن سقطتُ بلا نجدة فقد تدهمني صقور اليأس الناهشة ولا مفرّ لى فأعطني أن أثبت عينىّ بك إلى الأبد لولا نعمتك لا أخرج عن صغر نفسي ياربّ ارحمْ كيرياليسون كيرياليسون .